

هذا الكتاب تحت الطبع

الروض الباسم

في الذب عن سنة أبي القاسم

للامام العلامة النظار المجتهد

أبي عبد الله محمد بن ابراهيم الوزير اليماني

صاحب كتاب إيثار الحق على الخلق وغيره

المتوفي سنة ٧٧٥ هجرية

الجزء الاول

عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه جماعة من العلماء بمساعدة

ادارة الطباعة المنيرية

فهرست

القصائد

Kitab maqalat Qasr al-Dubarah

كتاب

مقالات

قصر الدوباره

﴿ بعد يوم الاربعاء ﴾



﴿ وهي مجموعة ما كتبته جريدة المؤيد عن اللورد كرومر وسياسته ﴾

(وخطابه الوداعي ورد المؤيد عليه)



﴿ ملتزمي طبعها ﴾

عبد الله حسين وصالح شكري

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم يا معز يا مذل يا قابض يا باسط أنت مديل الدول ورافع ش
الامم ومحيي الرمم . سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا . علمتنا بالقلم ما لم نعل
وصلي اللهم على رسولك المصطفى علم الهدى والمنقذ من الردى وعلى اخو
المرسلين وآل كل وصحبهم أجمعين .

وبعد فقد رأينا اعجاب الامة المصرية بخطة جريدة المؤيد الفضلى فى معا
المواضيع السياسية الوطنية وماأظهره عقلاءالشعب من دلائل الرضى عن مقالا
هذه الجريدة الوطنية خصوصا في أخريات أيام جناب اللورد كرومر في مد
وبعد استقالته وقد رأينا أن الناس يودون الحصول على بعض تلك المقالات
مجموعة تحفظ فى مكاتبهم ويرجع اليها في الاعتماد على رأى مستقيم وفكر صحي
فاستأذنا سعادة الوطنى الفاضل الهمام الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد
جمع بعض مقالاته وتفضل حفظه الله بالاجابة فأصدرناها كما ترى فى هذه المجمو
تحقيقا لرغبة القراء الكرام . حقق الله الآمال بمنه وكرمه .

ملتزمى الطبع
عبد الله حسين وصالح شكر

مصر في يونيو سنة ١٩٠٧

السياسة الضعيفة العنيفة

يستغرب القراء أن نجمع بين هذين الوصفين لموصوف واحد لما يظهر من أن العنف
ن مع القوة وهي لا توجد مع الضعف في شيء غير متعدد ولو بالاعتبار

أما نحن فنقول ان العنف قد يكون مظهراً كبيرا من مظاهر الضعف وخصوصا في
ـة الامم وحكمها . كصفة الكبرياء للمتكبر فانها لا تكون في الشخص الا حينما يذهب
ء من فضائله ومزاياه فيحل الكبر بهذا الفراغ ليكمل صاحبه علاء في زعمه

وخذ الشراسة مثلا في بعض الناس فانها توجد حيثما يعوز المرء شيء من مزايا حسن
ر وضبط النفس وسعة الصدر فتحل الشراسة محله . ولذلك تجد اضيق الناس صدراً من
ب غيره وأقلهم مقدرة على الاقناع الخطابي من يصيح في وجه محدثه ليحمله على قبول رأيه

كذلك العنف وقوة البطش في حكم الامم يحل محل حسن السياسة وقدر المسؤلية
رها في كل عمل . وقلما ترى سياسيا محنكا قادرا على تصريف الحوادث بالحسنى
لاستنتاج منها بقدر ماتعطيه مقدماتها الا كان عادلا حليما بعيدا عن فعال الظالمين

* * *

لا نذهب بالقارىء بعيدا بضرب الامثال عن الموضوع الذى نحن بصدده . فهذه
ر يدير دفة سياستها وادارتها المحتلون من الانكليز منذ ربع قرن وهم يقلبونها على كل
ه من وجوه النظام محوا واثباتا وتبديلا وتعديلا ورفعا ووضعا فلم تكن أمة ألين عريكة
طوع فى يد العامل منها . تشكر حسن الصنيع وتصبر على الاساءة ولو كان اللورد كرومر
غير مصر لمج السياسة ومل أن يقيم في قطر واحد مثل هذا الزمن الطويل حتى قيل انه
ل مرارا أن يكون قنصلا جنرالا فى مصر عن أن يكون سفيرا لدولته في أعظم العواصم
ورو بية بل فضل هذه الوظيفة على أن يكون عضوا فى وزارة الاحرار ولو شاء ذلك لحفظ له
كزه في الوزارة الحاضرة

وماذلك الا لانه في مصر يعمل كالملك المطلق الارادة لا يشوش عليه مشوش من المراقبات
ديدة ولا ينغص عليه منغص من الحوادث المزعجة . قضى كل هذا الزمن طيب الخاطر

هادىء البال قرير العين بهذا السلطان القوى الذى يدير به دولاب الحكومة المصرية و
لتى من الامة مهادا طريا ومن أمير البلاد مسالمة مرضية ومن الوزراء استسلاما ليس
العبودية أوفى منها في العبد لسيده

ولكن اللورد فى حكومته كان ككل حاكم مطلق يحتاج الى الاعوان الذين يساعدو
ومن عادة الملوك أن يختاروا فى كل دور من أدوار حياتهم الاعوان الذين يوافقون الظرو
. ففى دور كان مع اللورد كرومر أعوان مثل الجنرال غرنفيل في الحربية والكولونيل
منكريف في الاشغال والسير سكوت فى الحقانية والسير ادجار فنسنت أو بالمر وملنر أو غورس
فى المالية ثم الداخلية

وفي دور كان معه المستر ماتشل في الداخلية والمستر كوربيت في المالية والمستر دانلو
في المعارف وهلم جرا

ولا خلاف في أن هؤلاء يختلفون كفاءة كما أنهم يختلفون استقلالا في الرأى مع اللور
بل مما لا خلاف فيه أن اعوان جنابه فى هذا العهد كانوا فى وظائف مصرية صغيرة أو صغير
جدا ثم ترقوا بحسن عناية اللورد وعظيم رعايته فله عليهم يد الفضل أكثر مما لهم عليه
يد المعونة الكبرى

والزمن الذى كان السير سكوت لا يقبل كل رأى يشار عليه به من الوكالة الانكليز
فى التشريع والقضاء . ويقول ان النظامات القضائية لا تحكي بناء القناطر وتشييد الجس
قد ذهب بذهابه . جاء الزمن الذى يضع فيه أساس الادارة الداخلية في البلاد كلها و يق
بضرورة الانقلاب العام واحلال العنف فيها محل العدل من كان قبل بضع سنوات ضا
عسكريا صغيرا يؤدى وظيفة عسكرية محضة

نحن لا نطعن على كفاءة عامل ولكن نقول بالاجمال ان الذين يتولون ادارة البـ
الآن أعوانا للورد كرومر تنقصهم تجارب كثيرة وخبرة كبيرة بأحوال البلاد حتى يكو
بعد ذلك منظمين مصلحين ولا يمكن أن يكون اللورد عاملا بذاته في كل مصلحة لا
المراقبة العامة تشغله عن المراقبة الخاصة . فاذا حدثت حادثة غير منتظرة في البلاد حال
قلة الخبرة بينهم وبين تكييفها بحقيقتها فأعطوها غير حكمها و بنوا على حدوثها تغييرا وتبد

في النظامات قد يبعدان بها عن محجة الصواب بعدا شاسعا . وكلما سأل جناب اللورد واحدا من أولئك الاعوان عن سبب حادث ما أجابه بقدر مايعلم بالرأى الفطير فأمره بناء عليه بما يأمر الطبيب ممرضا يخطئ في أعراض سير المرض والطبيب غير مسئول

فالبلاد سائرة والحالة هذه بآراء أولئك الاعوان على غير خبرة كافية منهم وبالاوامر المطاعة من جناب اللورد كرومر . وحيث اختلفت حواس السمع والبصر والبيان اختلفت نتائج الحكم على الاشياء

هذا هو سبب الاختباط الحاصل الآن في ادارة البلاد وعيوب هذه الادارة تزداد وضوحا يوما بعد يوم فيوجد فى عناصر السياسة المصرية الآن فراغ كبير من حسن النظر والحكمة هو الذى يراد سده بالعنف والخروج عن منهج الدستور الذى تحكم به البلاد . ومن سوء الحظ أن هذا الدستور وجد ناقصا فى ذاته نقصا يقولون ان طبيعة البلاد اقتضته وللورد كرومر فى هذا المعنى فلسفة طويلة عريضة فى عدة أبواب من تقريره الاخير حكم فيها حكما قاسيا على استعداد الامة وقلة استعدادها للنظامات الدستورية الكاملة

وأضف الى ذلك الاختباط وسائط شتى تحيط بالوكالة الانكليزية وكبار موظفي الانكليز جعلت همها تأويل كل حادث في مصر بما يوسع مسافة الخلف بينهم وبين المصريين وتحريف كل كلمة تكتب فى الصحف المصرية بما يسوء سمعه حتى تبقى لهم وظيفتهم على الدوام مصدر نعمة وخير

فلو وجد محللون كياويون سياسيون خبيرون يحللون عناصر الحوادث التى تحصل في مصر ويكون لها سوء تأثير عند المحتلين تحليلا حقيقيا يردون به كل جوهر الى أصله وكل معلول الى علته وكل نتيجة الى مقدمتها ؟ - . ولو وجد من الانكليز في وظائفهم من لا يخدعهم تحريف المحرفين - والمحتلون أكثر الناس انخداعا بزخارف المموهين كما قال المرحوم الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية سابقا - لما انعكست آية ما بين أبناء البلاد وأولئك المسيطرين

انعكست تلك الآية الى حد أن يظنوا ان حادثة دنشواى أثر من آثار التعصب الدينى القائم الآن بين المصريين والاوروبيين وهو ظن باطل ان لم يكن خطأ مقصودا بالذات لتخفيف شناعة مافعله رجال الاحتلال فى هذه الحادثة لدى الرأى العام الانكليزى

هذا الكتاب تحت الطبع

الروض الباسم

في الذب عن سنة أبي القاسم

للامام العلامة النظار المجتهد

أبي عبد الله محمد بن ابراهيم الوزير اليماني

صاحب كتاب إيثار الحق على الخلق وغيره

المتوفي سنة ٧٧٥ هجرية

الجزء الاول

عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه جماعة من العلماء بمساعدة

ادارة الطباعة المنيرية

فهرست

صحيفة

صحيفة

القصائد

Kitab maqalat Qasr al-Dubarah

كتاب

مقالات

قصر الدوباره

﴿ بعد يوم الاربعاء ﴾

﴿ وهي مجموعة ما كتبته جريدة المؤيد عن اللورد كرومر وسياسته ﴾

(وخطابه الوداعي ورد المؤيد عليه)

﴿ ملتزمي طبعها ﴾

عبد الله حسين وصالح شكري

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم يا معز يا مذل يا قابض يا باسط أنت مديل الدول ورافع الامم ومحيي الرمم . سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا . علمتنا بالقلم ما لم ن
وصلي اللهم على رسولك المصطفى علم الهدى والمنقذ من الردى وعلى اخ المرسلين وآل كل وصحبهم أجمعين .

وبعد فقد رأينا اعجاب الامة المصرية بخطة جريدة المؤيد الفضلى فى مع المواضيع السياسية الوطنية وماأظهره عقلاء الشعب من دلائل الرضى عن مقالا هذه الجريدة الوطنيـة خصوصا في أخريات أيام جناب اللورد كرومر في م وبعـد استقالته وقد رأينا أن الناس يودون الحصول على بعض تلك المقالات مجموعة تحفظ فى مكاتبهم ويرجع اليها في الاعتماد على رأى مستقيم وفكر صح فاستأذنا سعادة الوطنى الفاضل الهمام الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد جمع بعض مقالاته وتفضل حفظه الله بالاجابة فأصدرناها كما ترى فى هذه المجمو تحقيقا لرغبة القراء الكرام . حقق الله الآمال بمنه وكرمه .

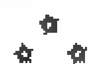
ملتزمى الطبع

عبد الله حسين وصالح شكر

مصر فى يونيو سنة ١٩٠٧

السياسة الضعيفة العنيفة

يستغرب القراء أن نجمع بين هذين الوصفين لموصوف واحد لما يظهر من أن العنف
ن مع القوة وهي لا توجد مع الضعف في شيء غير متعدد ولو بالاعتبار
أما نحن فنقول ان العنف قد يكون مظهراً كبيرا من مظاهر الضعف وخصوصا في
ة الامم وحكمها . كصفة الكبرياء للمتكبر فانها لاتكون في الشخص الا حينما يذهب
 من فضائله ومزاياه فيحل الكبر بهذا الفراغ ليكمل صاحبه علاء في زعمه
وخذ الشراسة مثلا في بعض الناس فانها توجد حينما يعور المرء شيء من مزايا حسن
ر وضبط النفس وسعة الصدر فتحل الشراسة محله . ولذلك تجد اضيق الناس صدراً من
ب غيره وأقلهم مقدرة على الاقناع الخطابى من يصيح في وجه محدثه ليحمله على قبول رأيه
كذلك العنف وقوة البطش في حكم الامم يحل محل حسن السياسة وقدر المسؤلية
رها في كل عمل . وقلما ترى سياسيا محنكا قادرا على تصريف الحوادث بالحسنى
لاستنتاج منها بقدر ماتعطيه مقدماتها الا كان عادلا حليما بعيدا عن فعال الظالمين



لانذهب بالقارىء بعيدا بضرب الامثال عن الموضوع الذى نحن بصدده . فهذه
ر يدير دفة سياستها وادارتها المحتلون من الانكليز منذ ربع قرن وهم يقلبونها على كل
ه من وجوه النظام محوا واثباتا وتبديلا وتعديلا ورفعا ووضعا فلم تكن أمة ألين عريكة
لوع فى يد العامل منها . تشكر حسن الصنيع وتصبر على الاساءة ولو كان اللورد كرومر
غير مصر لمج السياسة وملّ أن يقيم في قطر واحد مثل هذا الزمن الطويل حتى قيل انه
ل مرارا أن يكون قنصلا جنرالا فى مصر عن أن يكون سفيرا لدولته في أعظم العواصم
روبية بل فضل هذه الوظيفة على أن يكون عضوا فى وزارة الاحرار ولو شاء ذلك لحفظ له
كزه في الوزارة الحاضرة
وماذلك الا لانه في مصر يعمل كالملك المطلق الارادة لايشوش عليه مشوش من المراقبات
ديدة ولا ينغص عليه منغص من الحوادث المزعجة . قضى كل هذا الزمن طيب الخاطر

هادىء البال قرير العين بهذا السلطان القوى الذى يدير به دولاب الحكومة المصرية
لقى من الامة مهادا طريا ومن أمير البلاد مسالمة مرضية ومن الوزراء استسلاما لي
العبودية أوفى منها في العبد لسيده

ولكن اللورد فى حكومته كان ككل حاكم مطلق يحتاج الى الاعوان الذين يساعدو
ومن عادة الملوك أن يختاروا فى كل دور من أدوار حياتهم الاعوان الذين يوافقون الظرو
. ففى دور كان مع اللورد كرومر أعوان مثل الجنرال غرنفيل في الحربية والكولوني
منكريف في الاشغال والسير سكوت فى الحقانية والسيرادجار فنسنت أو بالمر وملنر أوغورس
فى المالية ثم الداخلية

وفي دور كان معه المستر متشل في الداخلية والمستركور بيت في المالية والمستردانلو
في المعارف وهلم جرا

ولا خلاف في أن هؤلاء يختلفون كفاءة كما أنهم يختلفون استقلالا في الرأى مع اللو
بل مما لاخلاف فيه أن اعوان جنابه فى هذا العهد كانوا فى وظائف مصرية صغيرة أوصغ
جدا ثم ترقوا بحسن عناية اللورد وعظيم رعايته فله عليهم يد الفضل أكثر مما لهم عليه
يد المعونة الكبرى

والزمن الذى كان السير سكوت لايقبل كل رأى يشار عليه به من الوكالة الانكليز
فى التشريع والقضاء . ويقول ان النظامات القضائية لاتحكي بناء القناطر وتشييد الجس
قد ذهب بذهابه . جاء الزمن الذى يضع فيه أساس الادارة الداخلية في البلاد كلها و يق
بضرورة الانقلاب العام واحلال العنف فيها محل العدل من كان قبل بضع سنوات ضا
عسكريا صغيرا يؤدى وظيفة عسكرية محضة

نحن لانطعن على كفاءة عامل ولكن نقول بالاجمال ان الذين يتولون ادارة البلا
الآن أعوانا للورد كرومر تنقصهم تجارب كثيرة وخبرة كبيرة بأحوال البلاد حتى يكو
بعد ذلك منظمين مصلحين ولا يمكن أن يكون اللورد عاملا بذاته في كل مصلحة لا
المراقبة العامة تشغله عن المراقبة الخاصة . فاذا حدثت حادثة غير منتظرة في البلاد حالت
قلة الخبرة بينهم وبين تكييفها بحقيقتها فأعطوها غير حكمها وبنوا على حدوثها تغيرا وتبديلا

في النظامات قد يبعدان بها عن محجة الصواب بعدا شاسعا . وكلما سأل جناب اللورد واحدا من أولئك الاعوان عن سبب حادث ما أجابه بقدر مايملي بالرأى الفطير فأمره بناء عليه بما يأمر الطبيب ممرضا يخطئ فى أعراض سير المرض والطبيب غير مسئول

فالبلاد سائرة والحالة هذه بآراء أولئك الاعوان على غير خبرة كافية منهم وبالاوامر المطاعة من جناب اللورد كرومر . وحيث اختلفت حواس السمع والبصر والبيان اختلفت نتائج الحكم على الاشياء

هذا هو سبب الاختباط الحاصل الآن في ادارة البلاد وعيوب هذه الادارة تزداد وضوحا يوما بعد يوم فيوجد فى عناصر السياسة المصرية الآن فراغ كبير من حسن النظر والحكمة هو الذى يراد سده بالعنف والخروج عن منهج الدستور الذى تحكم به البلاد. ومن سوء الحظ أن هذا الدستور وجد ناقصا فى ذاته نقصا يقولون ان طبيعة البلاد اقتضته وللورد كرومر فى هذا المعنى فلسفة طويلة عريضة فى عدة أبواب من تقريره الاخير حكم فيها حكما قاسيا على استعداد الامة وقلة استعدادها للنظامات الدستورية الكاملة

وأضف الى ذلك الاختباط وسائط شتى تحيط بالوكالة الانكليزية وكبار موظفي الانكليز جعلت همها تأويل كل حادث في مصر بما يوسع مسافة الخلف بينهم وبين المصريين وتحريف كل كلمة تكتب فى الصحف المصرية بما يسوء سمعه حتى تبقى لهم وظيفتهم على الدوام مصدر نعمة وخير

فلو وجد محللون كيماويون سياسيون خبيرون يحللون عناصر الحوادث التى تحصل في مصر ويكون لها سوء تأثير عند المحتلين تحليلا حقيقيا يردون به كل جوهر الى أصله وكل معلول الى علته وكل نتيجة الى مقدمتها ؟ — . ولو وجد من الانكليز في وظائفهم من لا يخدعهم تحريف المحرفين — والمحتلون أكثر الناس انخداعا بزخارف المموهين كما قال المرحوم الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية سابقا — لما انعكست آية ما بين أبناء البلاد وأولئك المسيطرين

انعكست تلك الآية الى حد أن يظنوا ان حادثة دنشواى أثر من آثار التعصب الدينى القائم الآن بين المصريين والاوروبيين وهو ظن باطل ان لم يكن خطأ مقصودا بالذات لتخفيف شناعة مافعله رجال الاحتلال فى هذه الحادثة لدى الرأى العام الانكليزى

والقارئ لما نشرناه اليوم نقلا عن جريدة التيمس يرى كيف كان مركز ناظر الخارجية حرجا في البرلمان وهو يسئل عن نقط كيفية تنفيذ الحكم على الصورة الفظيعة التي حصل بها فلا يجد له جوابا سوى أن يعد بالجواب فيما بعد على هذه النقط . سألوه هل حقيقة كان تنفيذ الحكم بكيفية أن يشنق المحكوم عليه بالاعدام ثم يبقى معلقا على مرأى من بقية المحكوم عليهم به و بالجلد حتى يجلد اثنان ؟ ؟ . ـ سألوه هل حقيقة كان الشنق والجلد على مرأى من الاهل يبكون والنساء يندبن و يعولن ؟ ؟

سألوه هل كان التنفيذ بواسطة الكبتن متشل مستشار الداخلية (لانه لايزال برتبة كابتن في الجيش الانكليزي) ـ وقد وصفوه وصفا مهينا جدا كما يرى القراء في محضر جلسة البرلمان المنشور اليوم نقلا عن التيمس

سألوه أشياء من هذا القبيل فكان لا يستطيع أن يجيب بالايجاب وهو يعلم أن كل ماسألوه اياه واقع لاريب فيه . وكان كل مايقدر عليه في هذا الموقف الحرج أن يعد بالجواب ريثما تأتيه التفصيلات الوافية في ذلك ـ ولو أجابهم بالايجاب في ذلك الموقف لساءت حالة الوزارة وساء حال كبار المحتلين في مصر بما لايعلم الا الله نتيجته

***

على أن اللورد كرومر وجد من هذا المضيق الخطر فرجا له ولوزير الخارجية في جلسة تالية فاتهم الامة المصرية كلها بالتعصب الديني على الاوربيين . وقال ان عمل الحكومة المصرية في حادثة دنشواى كلها كان عملا استثنائيا اخماداً لثورة خفية في الطبقة النازلة من الامة وهدد مصر بمعاملات جائرة ربما اضطرت لها الحكومة اضطرارا . وكان هذا ختام فصول الرواية في البرلمان الذي ترجح عنده الآن أن الامة المصرية كلها أثيمة مجرمة لا أهل دنشواى وحدهم . وان مركز الحكومة المصرية يحف بالاخطار الهائلة ان لم يطلق لها السراح للنهاية في استعمال كل ماتريد استعماله عند الحاجة مخالفا للدستور ولطرائق الامم المتمدنة

***

ما الذي أوجب اللورد كرومر أن يدافع عن نفسه وعن بقية أعوانه في البرلمان بهذ

السلاح الخطر المضر بمصر وأهليها ؟؟

ما الذى أوجب القائمين بادارة مصر الآن أن يلجؤا الى هذا العنف المودى بأهليها اتهاما وعزما ؟؟

ما الذى اضطر ناظر الخارجية أن يهدد الامة المصرية فى مستقبلها مثل هذا التهديد ؟؟

أوجب ذلك كله ضعف في سياسة القوم يحاولون سد فراغه بهذا العنف الشديد

ولكن حنانيك أيها اللورد الكريم. وعطفا أيها العامل المصلح الذى ماعهدناه يريد لمصر غير الخير والفلاح. وانصافا أيها الرجل الشريف النزيه الذي لا يرضيه أن تضحى مصلحة أمة شكورة تعرف الجميل لصانعه ولا تنساه ـ أن يخدعك عجز أعوانك فتحكم خطأ على أمة كتبت صحف تاريخك فيها بيضاء فتعكسها آية انتقام لامحل له منك بما تجره عليها من الويل والثبور فى مصير الأمور

(المؤيد في ١٨ جمادى الاولى سنة ١٣٢٤ ـ ١٠ يوليه سنة ١٩٠٦ ـ عدد ٤٩١١)

لا تعصب

في مصر

التعصب بالمعنى المعروف فى الغرب عن أهل الشرق . و بعبارة أخرى عند المسيحيين عن المسلمين هو انبثاث روح العداء والبغضاء من الآخرين ضد الاولين انبثاثا يحمل على الاعتداء عليهم حينا بعد حين

التعصب بهذا المعنى رذيلة من الرذائل التى ينهى عنها الدين الاسلامى والقوانين الاجتماعية وفي نظر الاوربيين هو التوحش الذى يفتك بنفوس الابرياء كلما ثار ثائره . أو هو أشبه بالغول الكاسر الذى يندفع بعماية فيفترس كل مافى طريقه من نفوس البشر

التعصب على هذا مجموع أرواح شريرة لا نظام لها فى ثورانها وعدوانها نعوذ بالله أن تورأ أمة بهذا البلاء العظيم

قالوا ان المصريين متعصبون تعصبا دينيا . ومعنى هذا أنهم يكرهون المخالفين لهم فى

الدين كراهة عمياء يعتدون عليهم بروح البغضاء المتناهية كلما سنحت لهم فرصة الافتراس أو استفزهم صائح ويقولون ان هذه الفطرة قد أيقظها من أول هـذا العام موقظ فتنـة جاء من ناحية الاستانة العلية بسبب مسئلة العقبة

فلننظر ماذا كان من نتائج تلك اليقظة المزعومة ؟ ؟

هل كان من نتائجها أن فريقا من المسلمين هنا وهناك انقضوا على جماعات أو أفراد من المسيحيين انقضاض بغضاء وعدوان متأصلين فى النفوس ثائرين بها

فان كان الجواب لا . قلنا قـد بطلت دعوا كم وجود هـذا التعصب . وان كان نعم قلنا ماهي تلك الحوادث التى تتخذونها دليـلا على صحة الدعوى ونحن علي يقـين أنهـم لايجدون حادثة واحدة فضلا عن جملة حوادث يقيمونها برهانا علي صحة دعواهم

يقولون ان حادثة دنشواى كانت مظهرا لهـذا التعصب فان المعتـدين كانوا من أول وهلة مستعدين للفتك بالضباط الانكليز الذين وافوا بلدهم لصيد الحمام

قلنا أنها برهان على كـذب الدعوى لاعلى صحتها . فان الضـباط ساروا فى مظاهرة عسكرية من القاهرة الى الاسكندرية كما يفعلون ذلك فى صيف كل عام منذ بضع سنوات. وقد مروا فى ذهابهـم على مئات من البلدان والقرى مثل دنشواى فـلم يلاقوا الا حفاوة حسنة من الاهلين في كل مكان . ولو أنهم ساروا فى طريقهم دون أن يعرجوا على دنشواى أو أنهم عرجوا عليها ولم يصـيدوا حمامها ماأصابهم شئ فان كان أهالى دنشواى قد ثاروا وفتكوا بالضباط وارتكبوا من الآثام اضـعاف ماارتكبوا . ولو وصفوا فى ذلك بالتعصب الاعمى فقد كان تعصبهم للحمام لاللدين . اللهم الا اذا قيـل ان الامة المصرية كلها أهالى دنشواي أولا مسلمون فى القطر الاهم فانه ربما كان لزعم التعصب الدينى وقتئذ وجه

ولكن أهالى دنشواى ليسوا الامة المصرية بأكملها بـل الذين ثبت عليهم الاعتداء والتجمهر لم يكونوا الا ٢١ نفسا من أهالى دنشواى على التوسع العظيم الذى توسعته المحكمة المخصوصة فهل الامة المصرية كلها هذا العدد حتى تتهم بالتعصب الدينى

في البلاد من قديم الزمان أديان مختلفة يتجاور أهلوها في المنازل ويتشاركون فى المرافق ويتنافسون فى الاعمال فـلم تكن بين المسلمين والاقباط تلك الروح الشريرة . ولو كانت

في فطرة المسلمين أو فطرة الفريقين للاشت الا كثرية الاقليـة فى عصور مضت وخصوصا في عصور كانت الجهالة فيها سائدة وكان بعض الحكام من المماليك وغيرهم يبذرون بذور البغضاء بين الفريقين لا لخدمة دينية اسلامية ولكن لاغراض شتى منشؤها الشهوات والمطامع. ولكن التواريخ تدل على ان الفريقين عاشا مع الوئام التام في كل الظروف أوفى أكثرها

* * *

وفد على القطر المصرى منذ أول عهد المرحوم محمد على باشا الكبير وفود من كل الطوائف المسيحية غربية وشرقية من أرمن وأروام وسوريين وفرنساويين وطليانيين وانكليز ونمساويين وامريكانيين من بروتستانت وكاثوليك وأرثوذكس وغير ذلك من علماء وتجار وصناع وعملة وهمل متشردين . فلقى الكل في مصر صدراً رحيبا على هذا

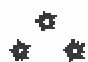
كان منهم الموظفون في كل مصلحة حتى تولى نوبار باشا وهو أرمنى فوق كونه مسيحيا وللارمن حزازات كثيرة مع المسلمين في ممالك الدولة العلية رئاسة النظار فى مصر وفي خلال مظاهر تلك الحزازات وثوراتها المتوالية من الارمن على المسلمين وجد نوبار باشا قائمقام خديوى ورئيس الاحتفال بموكب المحمل الشريف فهل يوجد في أمة غير الامة المصرية المسلمة مثل هذا التساهل فيرأس احتفالاً دينيا مسيحيا مسلم أوغير مسيحى

وكان من علمائهم الاساتذة والمعلمون ونظار المدارس والمكتشفون فهل الامة التى تربى أبناءها على أيدى الاساتذة من غير دينها . وهل الامة التى يوجد فيها مثل مدارس الجزويت والفرير والمرسلين الامريكان دعاة للدين وفى مدارسهم أبناؤها تعد متعصبة ؟ ؟

وكان التجار على مايحبون من الرحب والسعة وحسن القبول فضربوا في البلاد بمتاجرهم من غث وسمين وجيد وردىء وخالص ومغشوش حتى صارت مصر من أوسع أسواق متاجر أوروبا ومعاملها

وكان الصناع أساتذة ومعلمين ومستخدمين في أعمالهم التى وجدت اقبالا من الامة هائلا . وقد استمر الاقبال على صنائع الغربيين وزاد الآن حتى استشاط جناب اللورد كرومر غيظا من هذا الافراط فى رغبة الامة المصرية فى البضائع الافرنجية وكتب فصلاهو أحسن ما كتب في تقريره الاخير تحت عنوان (التعليم الصناعى) قال فيه

« ان مما يوجب الاسف أن الصنائع التى اشتغل الوطنيون أنفسهم بها قرونا طوالا آخذة فى الانقراض . فالترموای يحل محل الحمير لنقل الركاب و بانقراض ركوب الحمير تنقرض صناعة السروج وتوابعها . ومنذ قل استعمال البلاط البلدى لتبليط أراضى الغرف أخذت صناعة الحصر تنقرض . وقد جعلت الطلمبة الحديثة تحل محل ساقية الماء . ولما كان الدباغ الوطنى يجهل طرق الدباغة الحديثة قد طفق ينقرض أمام زميله الاوروبي وصناعة النسيج في انحطاط والمنسوجات الاوروبية تحل محل المنسوجات الوطنية . وقد أخبرت أن الصباغ بالنيلة بطل أو كاد لان المنسوجات القطنية التى تصنع منها ملابس الفلاحين عادة ترد من الخارج مصبوغة بالنيلة الصناعية . وقد جعل الاهالى يستبدلون ملابسهم المزركشة الزاهية الالوان التي يخيطها الخياطون الوطنيون بالملابس الاوربية التى ترد جاهزة . وكسدت صناعة الاحذية الحمراء الوطنية حتى صار المشايخ وهم أكثر الاهالى تمسكا بالقديم يلبسون أحذية أوربية . والمنجد الذى كان يرضى الجيل القديم رأى نفسه عاجزاً الآن عن ارضاء الجديد يصنع كراسى ومقاعد من طراز لويس الخامس عشر - الى أن قال والاختلاف ظاهر لكل من يقابل بين مصر الآن وما كانت عليه منذ عشر سنوات أو خمس عشرة سنة . فان الشوارع التي كانت مزدحمة بالصناع من غزالين وحاكة وعقادين وصباغين وخيامين وأساكفة وصاغة وعطارين وقربية وسروجية وصانعى مناخل وأقفال وهن شاكلهم كلها قلت جداً أودرست وقام على أطلالها قهاوى ودكاكين صغيرة ملآنة بضائع أوربية الخ الخ » اه



فالاختلاط التجارى الاوروبى قد وصل في مصر الى مثل هذا الحد الذى وصفه جناب للورد أوضح وصف وحزن من أجله كثيراً هل يتصور أن يرافقه تعصب دينى من أهالى البلاد على الاوربيين . بل الجماعات المتشردة من كل أمة وجنس ومذهب تفد على مصر متزايدة كل عام فلا تجد فى العالم مهداً أكثر رفقا والفة للنزيل أيا كان نوعه من الامة المصرية

وهؤلاء الاروام يقيمون الاكواخ الصغيرة الحقيرة لبيع الخمور الرديئة فى كل قرية من قرى القطر مهما سحقت وقل عددها أويربون الخنازير ويثرون شيأ فشيأ حتى يكون

الصعلوك منهم في بضع سنوات صاحب القرية ومزارعها ومداينا أهلها وسيدهم وهم يكادون يعبدون الخواجه من دون الله اعظاما له واجلالا. فهل هؤلاء هم المتعصبون الذين يخشى من شرهم فى وادى النيل على الاوربيين

هذه البنوك أصبح لها في كل المديريات والمراكز فروع تعامل الاهلين بالربا وهؤلاء اليهود والاروام يعاملونهم من قديم الزمان بأضعاف الربا الفاحش . والربا محرم في الاسلام ومثار للنفوس لانه شيء من أخذ أموال الناس بالباطل وخصوصا اذا كان فاحشا . فكيف يكون عند المصريين تعصب ديني وهؤلاء بينهم تتسع معاملاتهم معهم وكثيراً ماتنتهى هذه المعاملات بمصادرات المدينين فى أملاكهم ولايخطر على بال مسلم خاطر سوء من ناحيتهم لعلمه أن دينه ينهاه عن ذلك حيث لاتكفى القوانين النظامية زاجرة للنفوس المتعصبة لان للاعتداء ضروبا شتي وطرقا خفية أكثر منها ظاهرة وهذه تعديات الاهالى على بعضهم تعد بالالوف في حين أن تعدياتهم على غيرهم لاتكاد تذكر في جانب تعديات الاجانب على بعضهم في هذه البلاد .

فكيف تعمى أعين الناظرين عن هذه الشمس المشرقة العامة بأشعتها على أرجاء القطر ويقوم مفترون يزعمون أن في المصريين الآن تعصبا ثائراً يكاد يفتك بالاوروبيين لمجرد كونهم مسيحيين

أيها المدعون راقبوا الله في أمة رزئت بالاهمال في شؤونها حتى انحلت عرى الجامعة بين أفرادها وذهبت منها ريح العصبية في كل شيء . والعصبية قوام الطوائف وقوام الجماعات وقوام الامم فحرام عليكم مع هذا الانحلال أن تتهموها بالتعصب فى أشد حالاته

أيها الزاعمون راقبوا الذمة في أمة منيت باحتلال الاجنبي القوى وهو يريد أن ينتهز الفرص ليحدث فيها الحدث الاكبر فيقضى على بقية استقلالها . فحرام عليكم مع هذا الاحتلال أن تتهموها بالتعصب في أقبح درجاته

أيها الظالمون . اتقوا ربكم في أمة منيت ادارتها بالاختلال فللحوادث فيها كل يوم مجال فلا تزيدوا مصائبها بتهمة التعصب الجالب لاكبر اخطاره وويلاته

تقول بعض صحف الاحتلال انه لايكفى لتبرئة الامة من هذه التهمة الشنيعة مجرد

تكذيبها . ونحن نقول ان البراءة أصل وان التهمة طارئة فلا يكفى فى اثباتها مجرد زعمها وادعائها . وليس كلام ناظر خارجية انكلترا أو كلام اللورد كرومر في ذلك الا مجرد دعوى لابرهان عليها . والحق أكبر من اللورد وأكبر من الوزير . قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين .

(١)

في قصر الدوبارة ـ بعد يوم الاربعاء

« أبحر جناب اللورد كرومر من مرسيليا يوم الجمعة على الباخرة — مرمره — عائدا الى مصر فيبلغها يوم الاربعاء »
(الجرائد المحلية)

فهرست مقالات هذا العنوان كما وردت فى جريدة المؤيد

١

﴿ الطوب أو القلوب ﴾

يوم الاربعاء القادم يعود جناب اللورد كرومر الى القطر المصرى وقد نقص عدد سكان البلاد أربعة من الرجال قضوا في دنشواي شنقا وكانوا حتى يوم سفر اللورد الى انكلترا احياء يرزقون . لكن السياسة لاقلب لها وجناب اللورد سياسي محنك مشهود له فهولا يشعر بهذا النقص التافه الذى طرأ على أمة يربو عددها على ١٢ مليونا

الا ان السياسة التى لاقلب لها ولا حنان . لها فى الوقت نفسه قلب يتأثر من الفشل والخسارة ومن هذا القبيل ينتظر أن يتأثر جناب اللورد عند وصوله لانه سيجد في هذه البلاد نقصا كبيرا من هذه الوجهة

ذلك النقص الذى يؤثر على قلوب السياسيين وهو مايعبر عنه بالفشل . نريد به ازدياد نفرة الامة المصرية من الاحتلال . نفور الشعب المصرى وتألمه من خطأين كبيرين ارتكبهما الاحتلال فالخطأ الاول ـ خاص بعواطف الامة المصرية الوطنية والثانى خاص بالجامعة الدينية

سيجد جناب اللورد عند وصوله الى قصر الدوبارة قلوباً نافرة ونفوساً مشمئزة . أولاً لان السلطة الانكليزية ضربت مصر بيد من حديد في حادث تعتبره الامة من أبسط حوادث الاعتداء والخصام وهو حادث دنشواي . ثانيا لان الحكومة الانكليزية بلسان ناظر خارجيتها اتهمت الامة المصرية بالتعصب الديني وصورتها لاوروبا في شكل أمة متوحشة مخيفة خالية من المدنية والتهذيب لايمنعها من ارتكاب جريمة لاترتكبها أمة متمدنة سوى القوة القاهرة . صوروا الامة المصرية الاسلامية فى شكل ديوان تفتيش اسبانيا بل أوهموا أوروبا بأنها توشك أن ترى في مصر طبعة ثانية من مذبحة سان برتلماو وان مصر الاسلامية ستكون فرنسا الكاثوليكية وأن الاجانب في مصر قد يذهبون فريسة تعصبها كما ذهب البروتستانت فريسة تلك المذبحة الفرنساوية وانه لابد لمنع هذه الفظائع من تجييش الجيوش وأخذ الاهبة بزيادة جيش الاحتلال

جرى كل ذلك اثناء غياب جناب اللورد فى انكلترا وهو عائد الآن والعالم باسره الذى سمع تلك التهم وشهد ذلك التمثيل والامة المصرية أيضا تنتظر أن تعلم رأيه وان تعرف خطته بعد مااستوثق من تأييد دولته له وأخذها بيده

وأول مايتوقون الى معرفته بعد كل ماحدث هو هذا ـ

هل يريد جناب اللورد كرومر أن يعطى حكومته طوب مصر أم هو يريد أن يجمع من حولها قلوب المصريين ؟

لقد نشأت الامة المصرية كما نشأت باقى الامم الشرقية على عادات وأخلاق وعواطف تختلف كثيرا عن عادات الانكليز واخلاقهم وعواطفهم . وامتلاك قلوب امة هذه احوالها لايكون باستعمال وسائل العنف الا اذا أراد الغالب القوي ان يكون مستبداً جبارا وهذا مايتبرأ منه الانكليز ويقولون انهم اعظم الامم ميلا الى الرفق وانهم افضل الدول استعمارا

والامة المصرية على ماذكرنا من اختلاف عاداتها وأخلاقها الطبيعية المتأصلة فيها لايمكن تغييرها بمثل سرعة تغيير حدودها وهندسة شوارعها . وانما يستطيع الانكليز ان يستميلوا هذه الامة بالمعاملة الحسنة فيستولوا على القلوب بدلا من الاكتفاء بالاستيلاء على الطوب

واهم مايرجي ان تنصرف اليه عناية جناب اللورد الآن تحريض جمهور الموظفين

الانكليز على اعتبار أنفسهم فى منزلة عمال لا رؤساء فى مقام موظفين يعملون لمنفعة مصر وخدمتها مقابل مرتباتهم لا في مقام آلهة ينتظرون أن يسجد لهم المصرى

ولا شك عندنا ان جناب اللورد قد درس الاسباب التي من أجلها اشتهر نفور الامم الشرقية من الانكليز مع انهم يمتزجون مع كثير من الشعوب الاخرى ويأنسون بهم وناهيك بلطف الفرنساوى الموظف والعامل والتاجر بازاء تلك الكبرياء المشهورة وعلى خلاف ذلك فمن الحكمة أن يأمر جناب اللورد ان تسرى هذه الروح بين جميع الموظفين الانكليز في مصر واذ ذاك يستأنس المصرى عن رغبة لا عن خوف ورهبة

والامر الآخر الذى تنتظره الامة المصرية من حكمة جناب اللورد هو انه اذا كان لابد من تسليم المناصب الخطيرة لقوم من الانكليز فليكن اختيار هؤلاء من الرجال الذين يؤثر حكمهم تأثيرا حسنا على الاهالى بمعنى أن يأتينا برجال لهم حنكة واختبار وشئ من جلال العمر بعيدين عن نزق الشباب وصلف النفوذ فان تقليد المناصب للاكفاء المجربين بطول الزمن يزيد الوظيفة نفوذاً ووقاراً ويبعد عنها شعب الشباب المضرة

ويعلم جناب اللورد أيضا ان الامة الانكليزية على رسوخ قدمها في المدنية والتهذيب العام لاتزال حتى الآن تلبس قضاة محاكمها الشعور البيضاء المستعارة حتى يخيل لمن يقف فى محاكمها انه امام مجمع من الشيوخ وانما أرادوا من تلك العادة الزام القوم بما في جلال الشيخوخة من مستوجبات الوقار — والنفوس تخضع دائما للمعمرين

ويعلم جناب اللورد ان الامم الشرقية وخصوصا الاسلامية منها توقر الشيخوخة أكثر من سائر الامم تبعا لخضوع العقل للتجربة فما هى الحكمة اذاً فى اعطاء أعظم المناصب فى مصر لشبان لايزالون فى الادوار الاولى من حياتهم وانما يبدؤن فى مصر نفسها التى جاؤا لاصلاحها بدارسة السياسة والرئاسة وتولى الاحكام

ليتصور جناب اللورد الجليل الحكيم رجال مجلس شورى القوانين وكلهم شيوخ في السن والاختبار يأخذون رأى أحد المستشارين أو يودعونه في سفره مثلا . اذا راقب اللورد هذه الحالة ذات يوم وتذكر عادات هذه الامة وأخلاقها ألا يشمئز اذ يرى عشرة من رجال مصر وخيرة أعيانها ونواب شعبها — الصغير فيهم تجاوز ٥٠ سنة من عمره وقوفا بين يدي

شاب خرج بالامس من حضن مدرسته . الشيوخ الشيب في ملابسهم الرسمية التي يلبسونها عادة لدى تشرفهم بالجناب العالى الخديوى والمستشار ياجناب اللورد واقف بينهم في ثوب من التيل الابيض مقلوب عند طرفي ساقيه كأنه يغوص في السواقى وعلى رأسه قبعة القش والغليون بين شفتيه وربما كان كلبه الصغير من ورائه

نحن ياجناب اللورد لانقول ان الشبان لايكونون حكماء اذكياء ولكن نقول ان الامة المستعمرة التي تريد امتلاك القلوب في استعمارها يجب ان تستخدم المحنكين المجربين ويجب ان تراعي بقدر الامكان عوائد الشعوب وموعدنا فيما بقي الغد

(المؤيد في ٢٦ شعبان سنة ١٣٢٤ — ١٤ أكتوبر سنة ١٩٠٦ عدد ٤٩٩٢)

٢

حرية . مراقبة أو تقييد

فى القطر المصرى الآن سلطة قوية قادرة هى الصحافة الوطنية لا أدعي لها الكمال ولكني أقول ولا أخشى لومة لائم انها قوة قادرة وكلمة نافذة وصوت يخترق الاسماع ويؤثر على القلوب قد تخطئ أحيانا ولكنها تصيب غالباً وللامة تعلق بها وميل اليها وثقة بآرائها واعتمادا على صحة وطنيتها . وخلاصة مايقال عن أهمية الصحافة الوطنية فى مصر انها — على علاتها — هى السلاح الوحيد الذى أباه الاحتلال أو أوجده فى يد الوطنى لدفع المكروه باعلان استيائه فأنت تعلم ان الاحتلال استولى على كل نفوذ في كل دائرة من دوائر الاحكام بواسطة المستشارين ولم يبق حرا فى مصر غير الصحافة فهى موضع أمل المصرى فى شدته وكربه ينقل بواسطتها شكواه أو يعلن رضاه

قد علم جناب اللورد كرومر كل ذلك وجاهر بعلمه هذا فقال فى تقريره ان الجرائد المصرية هى الرقيب على أعماله

على انه لما حدثت حادثة دنشواى والعقبة من قبلها رأى جناب اللورد أن تلك القوة الصحافية قد عظمت وتفاقم أمرها فأراد أن يسكتها واتهمها أولا انها كاذبة وأنها أبرع جرائد العالم فى اختراع الاراجيف ثم اتهمها وكيله بأنها انما صاحت صيحتها التي أزعجت

كل موظف انكليزي في مصر بعامل الرشوة ثم قام اللورد يتهدد حرية الصحافة المصرية من طرف خفي

لذلك خيل لبعض الناس أن جناب اللورد كرومر ربما اهتم بامر الصحافة الوطنية عند رجوعه وذهبوا مذاهب كثيرة فيما عسى أن يفعله اذا أراد أن يفعل شيئاً

هل يبقى لها حريتها الحالية ؟

هل يهتدى الى طريقة لمراقبتها ؟

هل يقيدها ؟

فالذي نراه بما نعتقده فى حكمة جناب المعتمد البريطاني ورسوخ المبادئ الانكليزية الاصلية فيه انه لايمس حرية الجرائد فلا هو يراقبها ولا هو يقيدها

ولنا على هــذا الاعتقاد شاهد تاريخي قديم . ذلك ان كل من كانوا يحيطون بالوكالة البريطانية من موظفين وغير موظفين انكليز أوغير انكليز قبل بضع سنوات رأوا في وجود المؤيد مايحرج صدورهم فخاطب بعضهم اللورد في اسقاطه بأى وسيلة من الوسائل فأجابهم يومئذ «ان اسقاطه لايكون الا باحد أمرين . ايقاع صاحب المؤيد في مكيدة يكون بها القضاء على جريدته . أو الغائها بطريقة استبدادية . والاول لاترضاه ذمتي . والثاني لايرضاه البرلمان »

فيفهم من هذا الشاهد التاريخي الخاص بالصحافة الوطنية المصرية وهو الشاهد الذى كان به تأسيس وجودها الحقيقي أن جناب اللورد يحترم مبادئ الحرية الشريفة في الصحافة بعاملين . عامل ذاتي فيه وعامل تربى على قواعده

وهذا مانتنظر أن تكون خطة اللورد عليه في خاتمة أعماله في مصر ثلا يحمله الغضب الوقتي من هـذه الصحافة على أن يحطم بيديه أعز بناء قام على يديه وكانت فيه التعزية الوحيدة للمصريين

بل هكذا نرجو وهذا الذى نأمله ولكن الليالى حبالى يلدن كل عجيبة

ولكي نحيط بالموضوع من جميع أطرافه نقول ان جناب اللورد قد رأى كما رأى كل من راقب الصحافة المصرية أخيرا ان منها الشاذ الذي لاأهمية له ولاانتشار ومنها الجرائد

الدين كراهة عمياء يعتدون عليهم بروح البغضاء المتناهية كلما سنحت لهم فرصة الافتراس أو استفزهم صائح ويقولون ان هذه الفطرة قد أيقظها من أول هـذا العام موقظ فتنـة جاء من ناحية الاستانة العلية بسبب مسئلة العقبة

فلننظر ماذا كان من نتائج تلك اليقظة المزعومة ؟؟

هل كان من نتائجها أن فريقا من المسلمين هنا وهناك انقضوا على جماعات أو أفراد من المسيحيين انقضاض بغضاء وعدوان متأصلين في النفوس ثائرين بها!

فان كان الجواب لا . قلنا قـد بطلت دعواكم وجود هـذا التعصب . وان كان نعم قلنا ماهي تلك الحوادث التي تتخذونها دليـلا على صحة الدعوى ونحن علي يقـين أنهـم لايجدون حادثة واحدة فضلا عن جملة حوادث يقيمونها برهانا علي صحة دعواهم

يقولون ان حادثة دنشواي كانت مظهرا لهـذا التعصب فان المعتـدين كانوا من أول وهلة مستعدين للفتك بالضباط الانكليز الذين وافوا بلدهم لصيد الحمام

قلنا أنها برهان على كـذب الدعوى لاعلى صحتها . فان الضبـاط ساروا في مظاهرة عسكرية من القاهرة الى الاسكندرية كما يفعلون ذلك في صيف كل عام منذ بضع سنوات. وقد مروا في ذهابهـم على مئات من البلدان والقرى مثل دنشواي فـلم يلاقوا الا حفاوة حسنة من الاهلين في كل مكان . ولو أنهم ساروا في طريقهم دون أن يعرجوا على دنشواي أو أنهم عرجوا عليها ولم يصـيدوا حمامها ماأصابهم شئ فان كان أهالي دنشواي قد ثارو وفتكوا بالضباط وارتكبوا من الآثام اضـعاف ماارتكبوا . ولو وصفوا في ذلك بالتعصب الاعمى فقد كان تعصبهم للحمام لاللدين . اللهم الا اذا قيـل ان الامة المصرية كلها أهالي دنشواي أولا مسلمون في القطر الاهم فانه ربما كان لزعم التعصب الديني وقتئذ وجه

ولكن أهالي دنشواي ليسوا الامة المصرية بأكلها بـل الذين ثبت عليهم الاعتدا والتجمهر لم يكونوا الا ٢١ نفسا من أهالي دنشواي على التوسع العظيم الذي توسعته المحكمة المخصوصة فهل الامة المصرية كلها هذا العدد حتى تتهم بالتعصب الديني

في البلاد من قديم الزمان أديان مختلفة يتجاور أهلوها في المنازل ويتشاركون في المرافق ويتنافسون في الاعمال فـلم تكن بين المسلمين والاقباط تلك الروح الشريرة . ولو كانت

في فطرة المسلمين أو فطرة الفريقين للاشت الاكثرية الاقليـة فى عصور مضت وخصوصا في عصور كانت الجهالة فيها سائدة وكان بعض الحكام من المماليك وغيرهم يبذرون بذور البغضاء بين الفريقين لالخدمة دينية اسلامية ولكن لاغراض شتى منشؤها الشهوات والمطامع. ولكن التواريخ تدل على ان الفريقين عاشا مع الوئام التام في كل الظروف أوفى أكثرها

* * *

وفد على القطر المصرى منـذ أول عهد المرحوم محمـد على باشا الكبير وفود من كل الطوائف المسيحية غربية وشرقيـة من أرمن وأروام وسوريـين وفرنساويين وطليـانيين وانكليز ونمساويين وامريكانيين من بروتستانت وكاثوليك وأرثوذكس وغـير ذلك من علماء وتجار وصناع وعملة وهمل متشردين . فلقى الكل في مصر صدراً رحيبا على هذا

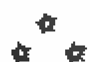
كان منهـم الموظفون في كل مصلحة حـتى تولى نوبار باشا وهو أرمنى فوق كونه مسيحيا وللارمن حزازات كثيرة مع المسلمين في ممالك الدولة العلية رئاسـة النظار فى مصر وفي خلال مظاهر تلك الحزازات وثوراتها المتواليـة من الارمن على المسلمين وجد نوبار باشا قائمقام خـديوى ورئيس الاحتفال بموكب المحمل الشريف فهل يوجد في أمة غـير الامة المصرية المسلمة مثل هذا التساهل فيرأس احتفالاً دينيا مسيحيا مسلم أوغير مسيحى

• وكان من علمائهم الاساتذة والمعلمون ونظار المدارس والمكتشفون فهل الامة التى تربى أبناءها على أيدى الاساتذة من غـير دينها . وهـل الامة التى يوجد فيها مثـل مدارس الجزويت والفرير والمرسلين الامريكان دعاة للدين وفى مدارسهم أبناؤها تعد متعصبة ؟ ؟

وكان التجار علي مايحبون من الرحب والسعة وحسن القبول فضربوا في البـلاد بمتاجرهم من غث وسمين وجيد ورديء وخالص ومغشوش حـتى صارت مصر من أوسع أسواق متاجر أوروبا ومعاملها

وكان الصناع أساتذة ومعلمين ومستخدمين في أعمالهم التى وجـدت اقبالا من الامة هائلا . وقد استمر الاقبال على صنائع الغربيين وزاد الآن حتى استشاط جناب اللورد كرومر غيظا من هذا الافراط فى رغبة الامة المصرية فى البضائع الافرنجية وكتب فصلا هو أحسن ما كتب في تقريره الاخير تحت عنوان (التعليم الصناعى) قال فيه

« ان مما يوجب الاسف أن الصنائع التى اشتغل الوطنيون أنفسهم بها قروناطوالا آخذة فى الانقراض . فالترمواى يحل محل الحمير لنقل الركاب و بانقراض ركوب الحمير تنقرض صناعة السروج وتوابعها . ومنذ قل استعمال البلاط البلدى لتبليط أراضى الغرف أخذت صناعة الحصر تنقرض . وقد جعلت الطلمبة الحديثة تحل محل ساقية الماء . ولما كان الدباغ الوطنى يجهل طرق الدباغة الحديثة قد طفق ينقرض أمام زميله الاوروبي وصناعة النسيج في انحطاط والمنسوجات الاوروبية تحل محل المنسوجات الوطنية . وقد أخبرت أن الصباغ بالنيلة بطل أوكاد لان المنسوجات القطنية التى تصنع منها ملابس الفلاحين عادة ترد من الخارج مصبوغة بالنيلة الصناعية . وقد جعل الاهالى يستبدلون ملابسهم المزركشة الزاهية الالوان التي يخيطها الخياطون الوطنيون بالملابس الاوربية التى ترد جاهزة . وكسدت صناعة الاحذية الحمراء الوطنية حتى صار المشايخ وهم أكثر الاهالى تمسكا بالقديم يلبسون أحذية أوربية . والمنجد الذى كان يرضى الجيل القديم رأى نفسه عاجزاً الآن عن ارضاء الجديد يصنع كراسي ومقاعد من طراز لويس الخامس عشر - الى أن قال والاختلاف ظاهر لكل من يقابل بين مصر الآن وما كانت عليه منذ عشر سنوات أو خمس عشرة سنة . فان الشوارع التي كانت مزدحمة بالصناع من غزالين وحاكة وعقادين وصباغين وخيامين وأساكفة وصاغة وعطارين وقربية وسروجية وصانعى مناخل وأقفال وهن شاكلهم كلها قلت جداً أودرست وقام على أطلالها قهاوى ودكاكين صغيرة ملآنة ببضائع أوربية الخ الخ » اه



فالاختلاط التجارى الاوروبى قد وصل في مصر الى مثل هذا الحد الذى وصفه جناب اللورد أوضح وصف وحزن من أجله كثيراً هل يتصور أن يرافقه تعصب دينى من أهالى البلاد على الاوربيين . بل الجماعات المتشردة من كل أمة وجنس ومذهب تفد على مصر متزايدة كل عام فلا تجد فى العالم مهداً أكثر رفقا والفة للنزيل أيا كان نوعه من الامة المصرية وهؤلاء الاروام يقيمون الاكواخ الصغيرة الحقيرة لبيع الخمور الرديئة فى كل قرية من قرى القطر مهما سحقت وقل عددها أو يربون الخنازير ويثرون شيأ فشيأ حتى يكون

الصعلوك منهم في بضع سنوات صاحب القرية ومزارعها ومداينا أهليها وسيدهم وهم يكادون يعبدون الخواجه من دون الله اعظاما له واجلالا. فهل هؤلاء هم المتعصبون الذين يخشى من شرهم في وادى النيل على الاوربيين

هذه البنوك أصبح لها في كل المديريات والمراكز فروع تعامل الاهلين بالربا وهؤلاء اليهود والاروام يعاملونهم من قديم الزمان بأضعاف الربا الفاحش . والربا محرم في الاسلام ومثار للنفوس لانه شيء من أخذ أموال الناس بالباطل وخصوصا اذا كان فاحشا . فكيف يكون عند المصريين تعصب ديني وهؤلاء بينهم تتسع معاملاتهم معهم وكثيراً ماتنتهى هذه المعاملات بمصادرات المدينين فى أملاكهم ولايخطر على بال مسلم خاطر سوء من ناحيتهم لعلمه أن دينه ينهاه عن ذلك حيث لاتكفى القوانين النظامية زاجرة للنفوس المتعصبة لان للاعتداء ضروبا شتي وطرقا خفية أكثر منها ظاهرة وهذه تعديات الاهالى على بعضهم تعد بالالوف في حين أن تعدياتهم على غيرهم لاتكاد تذكر في جانب تعديات الاجانب على بعضهم في هذه البلاد .

فكيف تعمى أعين الناظرين عن هذه الشمس المشرقة العامة بأشعتها على أرجاء القطر ويقوم مفترون يزعمون أن في المصريين الآن تعصبا ثائراً يكاد يفتك بالاوروبيين لمجرد كونهم مسيحيين

أيها المدعون راقبوا الله في أمة رزئت بالاهمال في شؤونها حتى انحلت عرى الجامعة بين أفرادها وذهبت منها ريح العصبية في كل شئ . والعصبية قوام الطوائف وقوام الجماعات وقوام الامم فحرام عليكم مع هذا الانحلال أن تتهموها بالتعصب فى أشد حالاته

أيها الزاعمون راقبوا الذمة في أمة منيت باحتلال الاجنبي القوى وهو يريد أن ينتهز الفرص ليحدث فيها الحدث الاكبر فيقضى على بقية استقلالها . فحرام عليكم مع هذا الاحتلال أن تتهموها بالتعصب في أقبح درجاته

أيها الظالمون . اتقوا ربكم في أمة منيت ادارتها بالاختلال فللحوادث فيها كل يوم مجال فلا تزيدوا مصائبها بتهمة التعصب الجالب لاكبر اخطاره وويلاته

تقول بعض صحف الاحتلال انه لايكفى لتبرئة الامة من هذه التهمة الشنيعة مجرد

تكذيبها . ونحن نقول ان البراءة أصل وان التهمة طارئة فلا يكفى فى اثباتها مجرد زعمها وادعائها . وليس كلام ناظر خارجية انكلترا أو كلام اللورد كرومر في ذلك الا مجرد دعوى لابرهان عليها . والحق أكبر من اللورد وأكبر من الوزير . قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين .

في قصر الدوبارة ــ بعد يوم الاربعاء

« أبحر جناب اللورد كرومر من مرسيليا يوم الجمعة
على الباخرة — مرمره — عائدا الي مصر فيبلغها
يوم الاربعاء » (الجرائد المحلية)

فهرست مقالات هذا العنوان كما وردت في جريدة المؤيد

١

﴿ الطوب أو القلوب ﴾

يوم الاربعاء القادم يعود جناب اللورد كرومر الى القطر المصري وقد نقص عدد سكان البلاد أربعة من الرجال قضوا في دنشواي شنقا وكانوا حتى يوم سفر اللورد الى انكلترا احياء يرزقون . لكن السياسة لاقلب لها وجناب اللورد سياسي محنك مشهود له فهو لا يشعر بهذا النقص التافه الذي طرأ على أمة يربو عددها على ١٢ مليونا

الا ان السياسة التي لاقلب لها ولا حنان . لها في الوقت نفسه قلب يتأثر من الفشل والخسارة ومن هذا القبيل ينتظر أن يتأثر جناب اللورد عند وصوله لانه سيجد في هذه البلاد نقصا كبيرا من هذه الوجهة

ذلك النقص الذي يؤثر علي قلوب السياسيين وهو مايعبر عنه بالفشل . نريد به ازدياد نفرة الامة المصرية من الاحتلال . نفور الشعب المصري وتألمه من خطأين كبيرين ارتكبهما الاحتلال فالخطأ الاول ـ خاص بعواطف الامة المصرية الوطنية والثاني خاص بالجامعة الدينية

سيجد جناب اللورد عند وصوله الى قصر الدوبارة قلوباً نافرة ونفوساً مشمئزة . أولاً — لان السلطة الانكليزية ضربت مصر بيد من حديد في حادث تعتبره الامة من أبسط حوادث الاعتداء والخصام وهو حادث دنشواى . ثانيا لان الحكومة الانكليزية بلسان ناظر خارجيتها اتهمت الامه المصرية بالتعصب الديني وصورتها لاوروبا في شكل أمة متوحشة مخيفة خالية من المدنية والتهذيب لايمنعها من ارتكاب جريمة لاترتكبها أمة متمدنة سوى القوة القاهرة . صوروا الامة المصرية الاسلامية فى شكل ديوان تفتيش اسبانيا بل أوهموا أوروبا بأنها توشك أن ترى في مصر طبعة ثانية من مذبحة سان برتلماو وان مصر الاسلامية ستكون فرنسا الكاثوليكية وأن الاجانب في مصر قد يذهبون فريسة تعصبها كما ذهب البروتستانت فريسة تلك المذبحة الفرنساوية وانه لابد لمنع هذه الفظائع من تجييش الجيوش وأخذ الاهبة بزيادة جيش الاحتلال

جرى كل ذلك اثناء غياب جناب اللورد فى انكلترا وهو عائد الآن والعالم باسره الذى سمع تلك التهم وشهد ذلك التمثيل والامة المصرية أيضا تنتظر أن تعلم رأيه وان تعرف خطته بعد ما استوثق من تأييد دولته له وأخذها بيده

وأول مايتوقون الى معرفته بعد كل ماحدث هو هذا —

هل يريد جناب اللورد كرومر أن يعطي حكومته طوب مصر أم هو يريد أن يجمع من حولها قلوب المصريين ؟

لقد نشأت الامة المصرية كما نشأت باقي الامم الشرقية على عادات وأخلاق وعواطف تختلف كثيرا عن عادات الانكليز واخلاقهم وعواطفهم . وامتلاك قلوب امة هذه احوالها لايكون باستعمال وسائل العنف الا اذا أراد الغالب القوي ان يكون مستبداً جبارا وهذا مايتبرأ منه الانكليز ويقولون انهم اعظم الامم ميلا الى الرفق وانهم افضل الدول استعمارا

والامة المصرية على ماذكرنا من اختلاف عاداتها وأخلاقها الطبيعية المتأصلة فيها لايمكن تغييرها بمثل سرعة تغيير حدودها وهندسة شوارعها . وانما يستطيع الانكليز ان يستميلوا هذه الامة بالمعاملة الحسنة فيستولوا على القلوب بدلا من الاكتفاء بالاستيلاء على الطوب

واهم مايرجي ان تنصرف اليه عناية جناب اللورد الآن تحريض جمهور الموظفين

الانكليز على اعتبار أنفسهم فى منزلة عمال لا رؤساء فى مقام موظفين يعملون لمنفعة مصر وخدمتها مقابل مرتباتهم لا في مقام آلهة ينتظرون أن يسجد لهم المصرى

ولا شك عندنا ان جناب اللورد قد درس الاسباب التي من أجلها اشتهر نفور الامم الشرقية من الانكليز مع انهم يمتزجون مع كثير من الشعوب الاخرى ويأنسون بهم وناهيك بلطف الفرنساوى الموظف والعامل والتاجر بازاء تلك الكبرياء المشهورة وعلى خلاف ذلك فمن الحكمة أن يأمر جناب اللورد ان تسرى هذه الروح بين جميع الموظفين الانكليز في مصر واذ ذاك يستأنس المصرى عن رغبة لا عن خوف ورهبة

والامر الآخر الذى تنتظره الامة المصرية من حكمة جناب اللورد هو انه اذا كان لابد من تسليم المناصب الخطيرة قوم من الانكليز فليكن اختيار هؤلاء من الرجال الذين يؤثر حكمهم تأثيرا حسنًا على الاهالى بمعنى أن يأتينا برجال لهم حنكة واختبار وشئ من جلال العمر بعيدين عن نزق الشباب وصلف النفوذ فان تقليد المناصب للاكفاء المجربين بطول الزمن يزيد الوظيفة نفوذاً ووقاراً ويبعد عنها شعب الشباب المضرة

ويعلم جناب اللورد أيضا ان الامة الانكليزية على رسوخ قدمها في المدنية والتهذيب العام لاتزال حتى الآن تلبس قضاة محاكمها الشعور البيضاء المستعارة حتى يخيل لمن يقف فى محاكمها انه امام مجمع من الشيوخ وانما أرادوا من تلك العادة الزام القوم بما في جلال الشيخوخة من مستوجبات الوقار — والنفوس تخضع دائما للمعمرين

ويعلم جناب اللورد ان الامم الشرقية وخصوصا الاسلامية منها توقر الشيخوخة أكثر من سائر الامم تبعا لخضوع العقل للتجربة فما هى الحكمة اذاً فى اعطاء أعظم المناصب فى مصر لشبان لايزالون فى الادوار الاولى من حياتهم وانما يبدؤن فى مصر نفسها التى جاؤا لاصلاحها بدارسة السياسة والرئاسة وتولى الاحكام

ليتصور جناب اللورد الجليل الحكيم رجال مجلس شورى القوانين وكلهم شيوخ في السن والاختبار يأخذون رأى أحد المستشارين أو يودعونه في سفره مثلا . اذا راقب اللورد هذه الحالة ذات يوم وتذكر عادات هذه الامة وأخلاقها ألا يشمئز اذ يرى عشرة من رجال مصر وخيرة أعيانها ونواب شعبها — الصغير فيهم تجاوز ٥٠ سنة من عمره وقوفا بين يدي

شاب خرج بالامس من حضن مدرسته . الشيوخ الشيب في ملابسهم الرسمية التي يلبسونها عادة لدى تشرفهم بالجناب العالى الخديوى والمستشار ياجناب اللورد واقف بينهم في ثوب من التيل الابيض مقلوب عند طرفي ساقيه كأنه يغوص في السواقى وعلى رأسه قبعة القش والغليون بين شفتيه وربما كان كلبه الصغير من ورائه

نحن ياجناب اللورد لانقول ان الشبان لا يكونون حكماء اذكياء ولكن نقول ان الامة المستعمرة التي تريد امتلاك القلوب في استعمارها يجب ان تستخدم المحنكين المجربين ويجب ان تراعي بقدر الامكان عوائد الشعوب وموعدنا فيما بقي الغد

(المؤيد في ٢٦ شعبان سنة ١٣٢٤ ــ ١٤ أكتوبر سنة ١٩٠٦ عدد ٤٩٩٢)

٢

حرية . مراقبة أو تقييد

فى القطر المصرى الآن سلطة قوية قادرة هى الصحافة الوطنية لا أدعي لها الكمال ولكني أقول ولا أخشى لومة لائم انها قوة قادرة وكلمة نافذة وصوت يخترق الاسماع ويؤثر على القلوب قد تخطيء أحيانا ولكنها تصيب غالباً وللامة تعلق بها وميل اليها وثقة بآرائها واعتمادا على صحة وطنيتها . وخلاصة ما يقال عن أهمية الصحافة الوطنية فى مصر انها ــ على علاتها ــ هى السلاح الوحيد الذى أباه الاحتلال أو أوجده فى يد الوطنى لدفع المكروه باعلان استيائه فانت تعلم ان الاحتلال استولى على كل نفوذ في كل دائرة من دوائر الاحكام بواسطة المستشارين ولم يبق حرا فى مصر غير الصحافة فهى موضع أمل المصرى فى شدته وكربه ينقل بواسطتها شكواه أو يعلن رضاه

قد علم جناب اللورد كرومر كل ذلك وجاهر بعلمه هذا فقال فى تقريره ان الجرائد المصرية هى الرقيب على أعماله

على انه لما حدثت حادثة دنشواى والعقبة من قبلها رأى جناب اللورد أن تلك القوة الصحافية قد عظمت وتفاقم أمرها فاراد أن يسكتها واتهمها أولا انها كاذبة وأنها أبرع جرائد العالم فى اختراع الاراجيف ثم اتهمها وكيله بأنها انما صاحت صيحتها التى أزعجت

كل موظف انكليزي في مصر بعامل الرشوة ثم قام اللورد يتهدد حرية الصحافة المصرية من طرف خفي

لذلك خيل لبعض الناس أن جناب اللورد كرومر ربما اهتم بامر الصحافة الوطنية عند رجوعه وذهبوا مذاهب كثيرة فيما عسى أن يفعله اذا أراد أن يفعل شيئاً

هل يبقى لها حريتها الحالية ؟

هل يهتدى الى طريقة لمراقبتها ؟

هل يقيدها ؟

فالذي نراه بما نعتقده فى حكمة جناب المعتمد البريطاني ورسوخ المبادئ الانكليزية الاصلية فيه انه لايمس حرية الجرائد فلا هو يراقبها ولا هو يقيدها

ولنا على هــذا الاعتقاد شاهد تاريخي قديم . ذلك ان كل من كانوا يحيطون بالوكالة البريطانية من موظفين وغير موظفين انكليز أوغير انكليز قبل بضع سنوات رأوا في وجود المؤيد مايحرج صدورهم فخاطب بعضهم اللورد في اسقاطه بأى وسيلة.من الوسائل فأجابهم يومئذ «ان اسقاطه لايكون الا باحدأمرين . ايقاع صاحب المؤيد في مكيدة يكون بها القضاء على جريدته . أو الغائها بطريقة استبدادية . والاول لاترضاه ذمتي . والثاني لايرضاه البرلمان »

فيفهم من هذا الشاهد التاريخي الخاص بالصحافة الوطنية المصرية وهو الشاهد الذى كان به تأسيس وجودها الحقيق أن جناب اللورد يحترم مبادئ الحرية الشريفة في الصحافة بعاملين . عامل ذاتي فيه وعامل تربى على قواعده

وهذا ماننتظر أن تكون خطة اللورد عليه في خاتمة أعماله في مصر فلا يحمله الغضب الوقتي من هــذه الصحافة على أن يحطم بيديه أعز بناء قام على يديه وكانت فيه التعزية الوحيدة للمصريين

بل هكذا نرجو وهذا الذى نأمله ولكن الليالى حبالى يلدن كل عجيبة

ولكي نحيط بالموضوع من جميع أطرافه نقول ان جناب اللورد قد رأى كما رأى كل من راقب الصحافة المصرية أخيرا ان منها الشاذ الذي لاأهمية له ولاانتشار ومنها الجرائد

المتطرفة التى لاترى فى الانكليز والاحتلال خيرا على الاطلاق ثم هى أحيانا تتجاوز الحد ف غيرتها الوطنية ومنها الجرائد المعتدلة التى تحترم الحقيقة وتريد أن تكون المرآة النافعة للوط وأهله فى كل حادث ومنها الجرائد المتطرفة من جانب آخر فلا ترى في الانكليز والاحتلا سوأ أو خطأ على الاطلاق ثم هى تتجاوز الحد فى ميلها الى الانكليز وأ كثر الاحيان ف نكاية المصريين وايلامهم

هذه جرائدنا وأقسامها فاذا كان الانكليز قد ساءهم منها رأى أو لهجة فلا يعقل انه يستاؤن من الجرائد المعتدلة فاستياؤهم اذن حاصل من لهجة الجرائد الوطنية المتطرفة واذا أرا جناب اللورد كرومر ان يراقب الصحافة أو ان يقيد حريتها فلانه مستاء من المتطرف فى وطنيتها

ليسمح لنا جنابه ان نخاطبه بحرية معتدلة

اولا . لايجوز معاقبة الصحافة المصرية عموما بجريرة صحيفة واحدة

ثانيا . اذا كانت جريدة مصرية قد تطرفت فى حدتها لوطنها ومصلحته ورأى جناب انها تستحق العقاب فما حال جريدة تطرفت أيضا في حدتها ضد مصلحة مصر والمصريين

اذا رأى جناب اللورد أن يراقب الجرائد واقتضى ذلك منع الجرائد الوطنية عن التطرف في تنفير الامة من الاحتلال ونتج عن هذا الظلم مراقبة الجريدة التى تغتنم كل فرصة لتجر العواطف الوطنية ومنع سهامها المؤذية الجارحة فلا بأس من ذلك لان مصر اذا خسرت حرية جرائدها المطلقة تربح على الاقل خلاصها من لهجة مؤلمة لعواطف الامة وسهام مؤذ توجهها اليها كل يوم جرائد الاحتلال أو بعضها ولكن الحكمة تقضى بغير هذه الخطة أيضا

تقضى الحكمة على من يريد أن يكسب قلوب مصر لاطوبها فقط أن يخفف من عنف سلطته القاهرة وأن يوصى عماله الذين يديرون دولاب الاعمال والوظائف ان يحسنوا معامل الاهالى وان يجيب الامة الى مطالبها العادلة وأن يمنع عنها اساءة اعدائها الذين مابرحوا منذ سنوات كثيرة يسيئون اليها ويصورون تلك الاساءة وتلك الجراح كأنها شبيهة بالرسمي موحى بها من الوكالة الانكليزية والناس في حيرة لايعلمون ماذا يفتكرون

ليفعل جناب اللورد كل هذا وهو سهل يسير عليه ومنطبق على المبادئ الانكليزية

الشريفة بدلا من ان يفعل الصعب العسير وهو غير منطبق على تلك المبادي٠ . انا نضمن له اذا فعل واتق للامة المصرية حرية الصحافة تعزية لها عل مصابها باحتلال اجنبي ان لايرى في الصحافة المصرية مايراه الآن ويومئذ يكون التطرف فى بعض الجرائد الوطنيه موءذيا لها لامروجا

وأما اذا راقب جناب اللورد الجرائد أوقيدها فانه لاينال الغاية التى يرمى اليها . لان الامتيازات الاجنبية تساعدمن أراد على الاحتماء بأجنبي لابراز آرائه واذا احتاط جنابه لذلك من باب فقدت لايمكنه سدأبواب كثيرة من هذا القبيل

ثم لا يجهل جناب اللورد ان « أحب شيء الى الانسان مامنعا » وان حجز حرية الجرائد يزيد الاهالى تعلقا بالمتطرفة منها وينشئ في النفوس ريباوفى الناشئة نزوعا الى أعمال منكرة قد لاتخطرله الآن على بال

فالذى نراه بعد هذا وذاك ان جناب اللورد لايراقب ولا يقيد ولكن من الحكمة أن يسهل للجرائد على الاطلاق الاعتدال في كتابتها وذلك انما يكون لواهتم وعنى بمطالبها وأنفذ الحق والعادل منها . ومتى رأت الامة استثمار شجرة الحرية من هذه الطريقة ألفتها وقضت على الشذوذ فيها القضاء الذي يحاول بعضهم الوصول اليه من غير طريقه الحقيقية

(المؤيد في ٢٧ شعبان سنة ١٣٢٤ ـ ١٥ اكتوبر سنة ١٩٠٦ عدد ٤٩٩٣)

٣
حكومة نيابية

ان الصوت الذى يسمعه جناب اللورد كرومر بعد رجوعه من مصيفه صوت مصر تنشد لنفسها حكومة دستورية نيابية ـ ليس صوتا جديدا لم يسمعه اللوردمن قبل . وليس هو بخاطر طاف الآن فقط على نفوس المصريين . ولا هو مطلب تنزع اليه مصر محاكاة للفرس أو الروس والترنسفاليين الآن ولاتشبها بالانكليز والفرنسيس والالمان وغيرهم من قبل

بل هو ميل قديم في المسلمين فطروا عليه منذ نشأتهم لان الشورى من قواعد أحكام الشريعة الاسلامية فى ادارة شؤون الامة . تلك الشورى التى وجدت فى الاسلام قبل أن توجد في

انكلترا الدستورية المنظمة . غرسها الايمان في قلوبهم وأذهانهم اذ جاء فى القرآن الكريم آمراً للنبي صلى الله عليه وسلم « وشاورهم في الامر » أي فى كل ماهو خاص بحكم الامة وجاء فيه وصفاً لاصحابه « وأمرهم شورى بينهم » . وناهيك بنظام لايعين فيه الخليفة العام الا بالبيعة العامة . وكان أصحاب النفوذ فى صدر الاسلام هم أصحاب الرأى والعقل يراجعون رسول الله عليه الصلاة والسلام فيما يقول من نفسه فيقول لهم انما أنا بشر مثلكم أخطئ وأصيب . ولو كانت العرب يومئذ مترقية فى العلوم والمعارف لوجد فى دول الاسلام الاولى للحكومة النيابية نظام شامل كامل مثل الذى وجد في الامم الغربية المتمدنة بعد لان روح نظاماتها لاتخالف المبادئ الاسلامية في كل ماهو صالح للبشر

اذن فمصر تطلب فى سنة ١٣٢٤ هجرية ماوضع أساسه الاسلام قبل وجود التاريخ الهجرى في حساب العالم

وفضلا عن ذلك ان مصر لاتكاف معتمد الدولة البريطانية عملا مستحيلا . فنحن نعتقد ان مصر أهل للدستور النيابي كما انها فى حاجة شديدة اليه .

أما كونها أهلا للدستور فلأنها منحته قبل الاحتلال ولم يكن هو ينبوع الثورة حتى يقال انه أضر وما نفع . بل كان ينبوع الثورة ومنشؤها قبول الحكومة الادارية من رجال العسكرية التداخل في شؤن ادارتها وعدم الاخلاص فى صدهم عن هذا التداخل من القادرين عليه ـ وأيضا لان الامة العثمانية نالت حكومة نيابية يوماما وكانت أهلا لها ولو أنها بقيت فيها لكانت تركيا اليوم فى نظر العارفين أرقى منها أمس بكثير . وانما جاء تعطيل مجلس المبعوثان لاسباب لاعلاقة لها بكفاءة الامة

ثم ان العجم والترنسفال قد نالتا في هذه الايام حكومة نيابية كما نالت اليونان و بلغاريا مثل ذلك قبل الآن

فاما أن تعطى مصر مامنحته أمثالها واما أن تكون السياسة القاضية بحرمانها منه سياسة ظالمة عاتية . وأما كون الامة الفارسية الآن أرقى من الامه المصرية واقبل للحكم النيابى فذلك ما يأباه العقل والعدل والشرف

مصر فيها الرجال الاكفاء ولكن الاحتلال لا يعترف بوجودهم الا اذا كانت له مصلحه

في هذا الاعتراف . فالرجال الوطنيون الذين جاء ذكرهم في قضية دنشواي كانوا في مذهب اللورد كرومر من اعظم الاكفاء الجديرين باعظام الحكومة الانكليزية واجلالها والخليقين بأن تثق الامة البريطانية بعدلهم فلا تبحث وراءهم في حكم دنشواي . ففتحي بك زغلول من أفضل القضاة واعرفهم بطرق العدالة . وهلباوي بك المدعى العمومي من أكبر الوطنيين استقلالا في الرأي . وأحمد لطفي أفندي السيد ومحمد يوسف بك واسماعيل عاصم أفندي من أفضل المحامين الجديرين بالتقدير والاحترام

فان كانوا كذلك كما وصفهم اللورد ونائبه في الكتب الرسمية . أفلا يوجد المئات أمثالهم من خيرة الوطنيين ونوابغهم استقلالا في الرأي وعلما وفضلا . هل يوجد شيء أعز من النفس والدم . فلماذا يكون أمثال هؤلاء اكفاء لان تزهق الارواح على أيديهم في نظر اللورد ولا يكونون اكفاء لان يؤخذ رأيهم فيما هو دون النفس والدم مساسا بالهيئة الاجتماعية على أن اللورد كرومر لاينكر أنه يعرف رجالا كثيرين في مصر أرقى من أولئك الذين شهد لهم بالاهلية والكفاءة ويثق بهم أكثر من ثقته بهؤلاء الذين لم يكن يعرف اسم بعضهم قبل حادثة دنشواي

ثم ان اللورد يعرف قبل كل انسان ان الحكومة الانكليزيه كانت وعدت مصر بالدستور النيابي في سنة ١٨٨٢ يوم أشارت على المغفور له الخديو السابق بالغاء مجلس النواب المصري الذي كان وقتئذ . فاذا كان بعد ربع قرن لايتحقق هذا الوعد فمتى يتحقق ؟ ؟

وبعد كل ماتقدم نقول

ماهو الضرر الذي يخشاه الاحتلال من منح مصر حكومة نيابية وقد منحت انكلترا هذا النظام للترنسفاليين الذين أثخنوها بالامس جراحا وازهقوا أرواح الالوف المؤلفة من أبنائها حتى ملئت بدمائهم السهول وحتى افرغوا خزائن انكلترا من المال

أفلا يخشى الانكليز من هؤلاء أكثر مما يخافون المصريين الذين برهنوا كل مدة الاحتلال على لين وسلامة نية وقبول للنصائح بل وصبر عظيم على مايضر ويغيظ

يعلم جناب اللورد أن الامة المصرية في حاجة شديدة الى اصلاحات جمة حتى ان المستشارين أنفسهم في حيرة دون معرفة ماهو الصالح والطالح . ونحن نعلم ان جنابه لايريد

تكذيبها . ونحن نقول ان البراءة أصل وان التهمة طارئة فلا يكفى فى اثباتها مجرد زعمها وادعائها . وليس كلام ناظر خارجية انكلترا أو كلام اللورد كرومر في ذلك الا مجرد دعوى لابرهان عليها . والحق أكبر من اللورد وأكبر من الوزير . قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين .

في قصر الدوبارة ـ بعد يوم الاربعاء

« أبحر جناب اللورد كرومر من مرسيليا يوم الجمعة على الباخرة — مرمره — عائدا الى مصر فيبلغها يوم الاربعاء » (الجرائد المحلية)

فهرست مقالات هذا العنوان كما وردت في جريدة المؤيد

١

﴿ الطوب أو القلوب ﴾

يوم الاربعاء القادم يعود جناب اللورد كرومر الى القطر المصرى وقد نقص عدد سكان البلاد أربعة من الرجال قضوا في دنشواي شنقا وكانوا حتى يوم سفر اللورد الى انكلترا احياء يرزقون . لكن السياسة لاقلب لها وجناب اللورد سياسي محنك مشهود له فهولا يشعر بهذا النقص التافه الذى طرأ على أمة يربو عددها على ١٢ مليونا

الا ان السياسة التى لاقلب لها ولا حنان . لها فى الوقت نفسه قلب يتأثر من الفشل والخسارة ومن هذا القبيل ينتظر أن يتأثر جناب اللورد عند وصوله لانه سيجد في هذه البلاد نقصا كبيرا من هذه الوجهة

ذلك النقص الذى يؤثر علي قلوب السياسيين وهو مايعبر عنه بالفشل . نريد به ازدياد نفرة الامة المصرية من الاحتلال . نفور الشعب المصرى وتألمه من خطأين كبيرين ارتكبهما الاحتلال فالخطأ الاول ـ خاص بعواطف الامة المصرية الوطنية والثانى خاص بالجامعة الدينية

سيجد جناب اللورد عند وصوله الى قصر الدوبارة قلوباً نافرة ونفوساً مشمئزة . أولاً لان السلطة الانكليزية ضربت مصر بيد من حديد في حادث تعتبره الامة من أبسط حوادث الاعتداء والخصام وهو حادث دنشواى . ثانيا لان الحكومة الانكليزية بلسان ناظر خارجيتها اتهمت الامة المصرية بالتعصب الديني وصورتها لاوربا فى شكل أمة متوحشة مخيفة خالية من المدنية والتهذيب لايمنعها من ارتكاب جريمة لاترتكبها أمة متمدنة سوى القوة القاهرة . صوروا الامة المصرية الاسلامية فى شكل ديوان تفتيش اسبانيا بل أوهموا أوروبا بأنها توشك أن ترى في مصر طبعة ثانية من مذبحة سان برتلماو وان مصر الاسلامية ستكون فرنسا الكاثوليكية وأن الاجانب في مصر قد يذهبون فريسة تعصبها كما ذهب البروتستانت فريسة تلك المذبحة الفرنساوية وانه لابد لمنع هذه الفظائع من تجييش الجيوش وأخذ الاهبة بزيادة جيش الاحتلال

جرى كل ذلك اثناء غياب جناب اللورد فى انكلترا وهو عائد الآن والعالم باسره الذى سمع تلك التهم وشهد ذلك التمثيل والامة المصرية أيضا تنتظر أن تعلم رأيه وان تعرف خطته بعد ما استوثق من تأييد دولته له وأخذها بيده

وأول مايتوقون الى معرفته بعد كل ماحدث هو هذا .

هل يريد جناب اللورد كرومر أن يعطى حكومته طوب مصر أم هو يريد أن يجمع من حولها قلوب المصريين ؟

لقد نشأت الامة المصرية كما نشأت باقى الامم الشرقية على عادات وأخلاق وعواطف تختلف كثيرا عن عادات الانكليز واخلاقهم وعواطفهم . وامتلاك قلوب امة هذه احوالها لا يكون باستعمال وسائل العنف الا اذا أراد الغالب القوي ان يكون مستبداً جبارا وهذا مايتبرأ منه الانكليز ويقولون انهم اعظم الامم ميلا الى الرفق وانهم افضل الدول استعمارا

والامة المصرية على ماذكرنا من اختلاف عاداتها وأخلاقها الطبيعية المتأصلة فيها لا يمكن تغييرها بمثل سرعة تغيير حدودها وهندسة شوارعها . وانما يستطيع الانكليز ان يستميلوا هذه الامة بالمعاملة الحسنة فيستولوا على القلوب بدلا من الاكتفاء بالاستيلاء على الطوب

واهم مايرجى ان تنصرف اليه عناية جناب اللورد الآن تحريض جمهور الموظفين

الانكليز على اعتبار أنفسهم فى منزلة عمال لا رؤساء فى مقام موظفين يعملون لمنفعة مصر وخدمتها مقابل مرتباتهم لا في مقام آلهة ينتظرون أن يسجد لهم المصرى

ولا شك عندنا ان جناب اللورد قد درس الاسباب التي من أجلها اشتهر نفور الامم الشرقية من الانكليز مع أنهم يمتزجون مع كثير من الشعوب الاخرى ويأنسون بهم وناهيك بلطف الفرنساوى الموظف والعامل والتاجر بازاء تلك الكبرياء المشهورة وعلى خلاف ذلك فمن الحكمة أن يأمر جناب اللورد ان تسرى هذه الروح بين جميع الموظفين الانكليز في مصر واذ ذاك يستأنس المصرى عن رغبة لا عن خوف ورهبة

والامر الآخر الذى تنتظره الامة المصرية من حكمة جناب اللورد هو انه اذا كان لابد من تسليم المناصب الخطيرة لقوم من الانكليز فليكن اختيار هؤلاء من الرجال الذين يؤثر حكمهم تأثيرا حسناً على الاهالى بمعنى أن يأتينا برجال لهم حنكة واختبار وشئ من جلال العمر بعيدين عن نزق الشباب وصلف النفوذ فان تقليد المناصب للاكفاء المجربين بطول الزمن يزيد الوظيفة نفوذاً ووقاراً ويبعد عنها شغب الشباب المضرة

ويعلم جناب اللورد أيضا ان الامة الانكليزية على رسوخ قدمها في المدنية والتهذيب العام لاتزال حتى الآن تلبس قضاة محاكمها الشعور البيضاء المستعارة حتى يخيل لمن يقف فى محاكمها انه امام مجمع من الشيوخ وانما أرادوا من تلك العادة الزام القوم بما في جلال الشيخوخة من مستوجبات الوقار — والنفوس تخضع دائما للمعمرين

ويعلم جناب اللورد ان الامم الشرقية وخصوصا الاسلامية منها توقر الشيخوخة أكثر من سائر الامم تبعا لخضوع العقل للتجربة فما هى الحكمة اذاً فى اعطاء أعظم المناصب فى مصر لشبان لايزالون فى الادوار الاولى من حياتهم وانما يبدؤن فى مصر نفسها التى جاؤا لاصلاحها بدارسة السياسة والرئاسة وتولى الاحكام

ليتصور جناب اللورد الجليل الحكيم رجال مجلس شورى القوانين وكلهم شيوخ في السن والاختبار يأخذون رأى أحد المستشارين أو يودعونه في سفره مثلا . اذا راقب اللورد هذه الحالة ذات يوم وتذكر عادات هذه الامة وأخلاقها ألا يشمئز اذ يرى عشرة من رجال مصر وخيرة أعيانها ونواب شعبها — الصغير فيهم تجاوز ٥٠ سنة من عمره وقوفا بين يدي

شاب خرج بالامس من حضن مدرسته . الشيوخ الشيب في ملابسهم الرسمية التى يلبسونها عادة لدى تشرفهم بالجناب العالى الخديوى والمستشار ياجناب اللورد واقف بينهم في ثوب من التيل الابيض مقلوب عند طرفي ساقيه كأنه يغوص في السواقى وعلى رأسه قبعة القش والغليون بين شفتيه وربما كان كلبه الصغير من ورائه

نحن ياجناب اللورد لانقول ان الشبان لا يكونون حكماء اذكياء ولكن نقول ان الامة المستعمرة التى تريد امتلاك القلوب في استعمارها يجب ان تستخدم المحنكين المجربين ويجب ان تراعي بقدر الامكان عوائد الشعوب وموعدنا فيما بقي الغد

(المؤيد في ٢٦ شعبان سنة ١٣٢٤ ــ ١٤ أكتوبر سنة ١٩٠٦ عدد ٤٩٩٢)

٢

حرية . مراقبة أو تقييد

فى القطر المصرى الآن سلطة قوية قادرة هى الصحافة الوطنية لا أدعي لها الكمال ولكني أقول ولا أخشى لومة لائم انها قوة قادرة وكلمة نافذة وصوت يخترق الاسماع ويؤثر على القلوب قد تخطيء أحيانا ولكنها تصيب غالباً وللامة تعلق بها وميل اليها وثقة بآرائها واعتمادا على صحة وطنيتها . وخلاصة مايقال عن أهمية الصحافة الوطنية فى مصر انها ــ على علاتها ــ هى السلاح الوحيد الذى أباه الاحتلال أو أوجده فى يد الوطنى لدفع المكروه باعلان استيائه فأنت تعلم ان الاحتلال استولى على كل نفوذ في كل دائرة من دوائر الاحكام بواسطة المستشارين ولم يبق حرا فى مصر غير الصحافة فهى موضع أمل المصرى فى شدته وكربه ينقل بواسطتها شكواه أو يعلن رضاه

قد علم جناب اللورد كرومر كل ذلك وجاهر بعلمه هذا فقال فى تقريره ان الجرائد المصرية هى الرقيب على أعماله

على انه لما حدثت حادثة دنشواى والعقبة من قبلها رأى جناب اللورد أن تلك القوة الصحافية قد عظمت وتفاقم أمرها فأراد أن يسكتها واتهمها أولا انها كاذبة وأنها أبرع جرائد العالم فى اختراع الاراجيف ثم اتهمها وكله بأنها انما صاحت صيحتها التى أزعجت

كل موظف انكليزي في مصر بعامل الرشوة ثم قام اللورد يتهدد حرية الصحافة المصرية من طرف خفي

لذلك خيل لبعض الناس أن جناب اللورد كرومر ربما اهتم بامر الصحافة الوطنية عند رجوعه وذهبوا مذاهب كثيرة فيما عسى أن يفعله اذا أراد أن يفعل شيئاً

هل يبقى لها حريتها الحالية ؟

هل يهتدى الى طريقة لمراقبتها ؟

هل يقيدها ؟

فالذى نراه بما نعتقده فى حكمة جناب المعتمد البريطاني ورسوخ المبادئ الانكليزية الاصلية فيه انه لايمس حرية الجرائد فلا هو يراقبها ولا هو يقيدها

ولنا على هــذا الاعتقاد شاهد تاريخي قديم . ذلك ان كل من كانوا يحيطون بالوكالة البريطانية من موظفين وغير موظفين انـكليز أوغير انـكليز قبـل بضع سـنوات رأوا في وجود المؤيد مايحرج صدورهم فخاطب بعضهم اللورد في اسقاطه بأى وسيلة من الوسائل فأجابهم يومئذ «ان اسقاطه لايكون الا باحد أمرين . ايقاع صاحب المؤيد في مكيدة يكون بها القضاء على جريدته . أو الغائها بطريقة استبدادية . والاول لاترضاه ذمتي . والثانى لايرضاه البرلمان »

فيفهم من هذا الشاهد التاريخى الخاص بالصحافة الوطنية المصرية وهو الشاهد الذى كان به تأسيس وجودها الحقيق أن جناب اللورد يحترم مبادئ الحرية الشريفة في الصحافة بعاملين . عامل ذاتي فيه وعامل تربى على قواعده

وهذا ماننتظر أن تكون خطة اللورد عليه في خاتمة أعماله في مصر فلا يحمله الغضب الوقتي من هــذه الصحافة على أن يحطم بيديه أعز بناء قام على يديه وكانت فيه التعزية الوحيدة للمصريين

بل هكذا نرجو وهذا الذى نأمله ولـكن الليالى حبالى يلدن كل عجيبة

ولـكي نحيط بالموضوع من جميع أطرافه نقول ان جناب اللورد قد رأى كما رأى كل من راقب الصحافة المصرية أخيرا ان منها الشاذ الذي لاأهمية له ولاانتشار ومنها الجرائد

المتطرفة التى لاترى فى الانكليز والاحتلال خيرا على الاطلاق ثم هى أحيانا تتجاوز الحد فى غيرتها الوطنية ومنها الجرائد المعتدلة التى تحترم الحقيقة وتريد أن تكون المرآة النافعة للوطن وأهله فى كل حادث ومنها الجرائد المتطرفة من جانب آخر فلا ترى في الانكليز والاحتلال سوأ أو خطأ على الاطلاق ثم هى تتجاوز الحد فى ميلها الى الانكليز وأكثر الاحيان فى نكاية المصريين وايلامهم

هذه جرائدنا وأقسامها فاذا كان الانكليز قد ساءهم منها رأى أو لهجة فلا يعقل انهم يستاؤن من الجرائد المعتدلة فاستياؤهم اذن حاصل من لهجة الجرائد الوطنية المتطرفة واذا أراد جناب اللورد كرومر ان يراقب الصحافة أو ان يقيد حريتها فلانه مستاء من المتطرفة فى وطنيتها

ليسمح لنا جنابه ان نخاطبه بحرية معتدلة

اولا . لايجوز معاقبة الصحافة المصرية عموما بجريرة صحيفة واحدة

ثانيا . اذا كانت جريدة مصرية قد تطرفت فى حدتها لوطنها ومصلحته ورأى جنابه أنها تستحق العقاب فما حال جريدة تطرفت أيضا في حدتها ضد مصلحة مصر والمصريين

اذا رأى جناب اللورد أن يراقب الجرائد واقتضى ذلك منع الجرائد الوطنية عن التطرف في تنفير الامة من الاحتلال ونتج عن هذا الظلم مراقبة الجريدة التى تغتنم كل فرصة لتجريح العواطف الوطنية ومنع سهامها المؤذية الجارحة فلا بأس من ذلك لان مصر اذا خسرت حرية جرائدها المطلقة تربح على الاقل خلاصها من لهجة مؤلمة لعواطف الامة وسهام مؤذية توجهها اليها كل يوم جرائد الاحتلال أو بعضها ولكن الحكمة تقضى بغير هذه الخطة أيضا

تقضى الحكمة على من يريد أن يكسب قلوب مصر لا طوبها فقط أن يخفف من عنف سلطته القاهرة وأن يوصى عماله الذين يديرون دولاب الاعمال والوظائف ان يحسنوا معاملة الاهالى وان يجيب الامة الى مطالبها العادلة وأن يمنع عنها اساءة اعدائها الذين مابرحوا منذ سنوات كثيرة يسيئون اليها ويصورون تلك الاساءة وتلك الجراح كأنها شبيهة بالرسمية موحى بها من الوكالة الانكليزية والناس في حيرة لايعلمون ماذا يفتكرون

ليفعل جناب اللورد كل هذا وهو سهل يسير عليه ومنطبق على المبادئ الانكليزية

الشريفة بدلا من ان يفعل الصعب العسير وهو غير منطبق على تلك المبادىء . انا نضمن له اذا فعل وابقى للامة المصرية حرية الصحافة تعزية لها عل مصابها باحتلال اجنبي ان لا يرى في الصحافة المصرية مايراه الآن ويومئذ يكون التطرف فى بعض الجرائد الوطنيه مؤذيا لها لامروجا

وأما اذا راقب جناب اللورد الجرائد أوقيدها فانه لاينال الغاية التى يرمى اليها . لان الامتيازات الاجنبية تساعدمن أراد على الاحتماء بأجنبي لابراز آرائه واذا احتاط جنابه لذلك من باب فغدت لايمكنه سدأبواب كثيرة من هذا القبيل

ثم لا يجهل جناب اللورد ان « أحب شيء الى الانسان مامنعا » وان حجز حرية الجرائد يزيد الاهالى تعلقا بالمتطرفة منها وينشىء في النفوس ريباوفى الناشئة نزوعا الى أعمال منكرة قد لاتخطرله الآن على بال

فلذى نراه بعد هذا وذاك ان جناب اللورد لايراقب ولا يقيد ولكن من الحكمة أن يسهل للجرائد على الاطلاق الاعتدال في كتابتها وذلك انما يكون لواهتم وعنى بمطالبها وأنفذ الحق والعادل منها . ومتى رأت الامة استثمار شجرة الحرية من هذه الطريقة ألفتها وقضت على الشذوذ فيها القضاء الذى يحاول بعضهم الوصول اليه من غير طريقه الحقيقية

(المؤيد في ٢٧ شعبان سنة ١٣٢٤ ـ ١٥ اكتوبر سنة ١٩٠٦ عدد ٤٩٩٣)

٣
حكومة نيابية

ان الصوت الذى يسمعه جناب اللورد كرومر بعد رجوعه من مصيفه صوت مصر تنشد لنفسها حكومة دستورية نيابية ـ ليس صوتا جديدا لم يسمعه اللورد من قبل . وليس هو بخاطر طاف الآن فقط على نفوس المصريين . ولا هو مطلب تنزع اليه مصر محاكاة للفرس أو الروس والترنسفاليين الآن ولا تشبها بالانكليز والفرنسيس والالمان وغيرهم من قبل

بل هو ميل قديم في المسلمين فطروا عليه منذ نشأتهم لان الشورى من قواعد أحكام الشريعة الاسلامية فى ادارة شؤون الامة . تلك الشورى التى وجدت فى الاسلام قبل أن توجد في

انكلترا الدستورية المنظمة . غرسها الايمان في قلوبهم وأذهانهم اذ جاء فى القرآن الكريم آمراً النبي صلى الله عليه وسلم « وشاورهم في الامر » أي فى كل ماهو خاص بحكم الامة وجاء فيه وصفاً لاصحابه « وأمرهم شورى بينهم » . وناهيك بنظام لا يعين فيه الخليفة العام الا بالبيعة العامة . وكان أصحاب النفوذ فى صدر الاسلام هم أصحاب الرأى والعقل يراجعون رسول الله عليه الصلاة والسلام فيما يقول من نفسه فيقول لهم انما أنا بشر مثلكم أخطئ وأصيب . ولو كانت العرب يومئذ مترقية فى العلوم والمعارف لوجد فى دول الاسلام الاولى للحكومة النيابية نظام شامل كامل مثل الذى وجد في الامم الغربية المتمدنة بعد لان روح نظامنا لا تخالف المبادئ الاسلامية في كل ماهو صالح للبشر

اذن فمصر تطلب فى سنة ١٣٢٤ هجرية ماوضع أساسه الاسلام قبل وجود التاريخ الهجرى في حساب العالم

وفضلا عن ذلك ان مصر لا تكاف معتمد الدولة البريطانية عملا مستحيلا . فنحن نعتقد ان مصر أهل للدستور النيابي كما انها فى حاجة شديدة اليه .

أما كونها أهلا للدستور فلانها منحته قبل الاحتلال ولم يكن هو ينبوع الثورة حتى يقال انه أضر وما نفع . بل كان ينبوع الثورة ومنشؤها قبول الحكومة الادارية من رجال العسكرية التداخل في شؤن ادارتها وعدم الاخلاص فى صدهم عن هذا التداخل من القادرين عليه ــ وأيضا لان الامة العثمانية نالت حكومة نيابية يوماما وكانت أهلا لها ولو أنها بقيت فيها لكانت تركيا اليوم فى نظر العارفين أرقى منها أمس بكثير . وانما جاء تعطيل مجلس المبعوثان لاسباب لا علاقة لها بكفاءة الامة

ثم ان العجم والترنسفال قد نالتا في هذه الايام حكومة نيابية كما نالت اليونان وبلغاريا مثل ذلك قبل الآن

فاما أن تعطى مصر مامنحته أمثالها واما أن تكون السياسة القاضية بحرمانها منه سياسة ظالمة عاتية . وأما كون الامة الفارسية الآن أرقى من الامه المصرية واقبل للحكم النيابى فذلك مايأباه العقل والعدل والشرف

مصر فيها الرجال الاكفاء ولكن الاحتلال لا يعترف بوجودهم الا اذا كانت له مصلحه

في هذا الاعتراف . فالرجال الوطنيون الذين جاء ذكرهم فى قضية دنشواى كانوا فى مذهب اللورد كرومر من اعظم الاكفاء الجديرين باعظام الحكومة الانكليزية واجلالها والخليقين بأن تثق الامة البريطانية بعدلهم فلا تبحث وراءهم فى حكم دنشواى . ففتحي بك زغلول من افضل القضاة واعرفهم بطرق العدالة . وهلباوى بك المدعى العمومى من أكبر الوطنيين استقلالا في الرأى . وأحمد لطفي أفندى السيد ومحمد يوسف بك واسماعيل عاصم أفندى من أفضل المحامين الجديرين بالتقدير والاحترام

فان كانوا كذلك كما وصفهم اللورد ونائبه في الكتب الرسمية . أفلا يوجد المئات أمثالهم من خيرة الوطنيين ونوابغهم استقلالا فى الرأى وعلما وفضلا . هل يوجد شئ أعز من النفس والدم . فلماذا يكون أمثال هؤلاء اكفاء لان تزهق الارواح على أيديهم في نظر اللورد ولا يكونون اكفاء لان يؤخذ رأيهم فيما هو دون النفس والدم مساسا بالهيئة الاجتماعية على أن اللورد كرومر لاينكر أنه يعرف رجالا كثيرين في مصر أرقى من أولئك الذين شهد لهم بالاهلية والكفاءة ويثق بهم أكثر من ثقته بهؤلاء الذين لم يكن يعرف اسم بعضهم قبل حادثة دنشواى

ثم ان اللورد يعرف قبل كل انسان ان الحكومة الانكليزيه كانت وعدت مصر بالدستور النيابي في سنة ١٨٨٢ يوم أشارت على المغفور له الخديو السابق بالغاء مجلس النواب المصرى الذى كان وقتئذ . فاذا كان بعد ربع قرن لايتحقق هذا الوعد فمتى يتحقق ؟ ؟

وبعد كل ماتقدم نقول

ماهو الضرر الذى يخشاه الاحتلال من منح مصر حكومة نيابية وقد منحت انكلترا هذا النظام للترنسفاليين الذين أثخنوها بالامس جراحا وازهقوا أرواح الالوف المؤلفة من أبنائها حتى ملئت بدمائهم السهول وحتى افرغوا خزائن انكلترا من المال

أفلا يخشى الانكليز من هؤلاء أكثر مما يخافون المصريين الذين برهنوا كل مدة الاحتلال على لين وسلامة نية وقبول للنصائح بل وصبر عظيم على مايضر ويغيظ

يعلم جناب اللورد أن الامة المصرية فى حاجة شديدة الى اصلاحات جمة حتى ان المستشارين أنفسهم في حيرة دون معرفة ماهو الصالح والطالح . ونحن نعلم ان جنابه لايريد

الا الاصلاح كما يريد أن يصل اليه من أقرب ذرائعه

أليس من الحكمة والحالة هذه أن يسهل للامة المصرية احراز حكومة نيابية فاما أن تفلح فتحمل عنه بعض الاثقال والمسؤلية واما أن تفشل فيكون فشلها حجة عليها فى مطالبها المستقبلة . الا اذا كان الرأى فى قصر الدوبارة أن تبقى مصر محكومة بأربعة أوخمسة من الشبان فى وظائف المستشارين

أما الادعاء بأن مصر اذا نالت حكومة نيابية تلقي بنفسها في أحضان الدولة العلية فهو ادعاء يقصد به ذر الرماد فى العيون ليس الا . لانه لا يوجد مصرى واحد يفكر في مثل هذه النتيجة التي بسط تاريخ وادى النيل مضارها ونقشه على كل حجر من آثارها. كذلك لا تطلب مصر حكومة نيابية الا لتسير فى طريق الترقى بلا تخبط كما يحصل الآن لقلة خبرة القابضين على أزمتها وربما كان ما يأتى غدا شرا مما هو الآن

*
* *

لقد كانت ثقة جناب اللورد بعدل ونزاهة الوظفين الانكليز قبل الآن كافية لان يحدث النظام ناقصا فيكمله عملهم وقاسيا فتلطفه رحمتهم ومتفرضا فتعدل به الى المحجة الوسطي نزاهتهم . ولكن اللورد نفسه رأى بعد حادثة دنشواي ان ذلك العدل وتلك النزاهة غير كافيتين في بعض الاحيان ولذلك وعد بتعديل نظام المحكمة المخصوصة وتقييد هوى القضاة فى المستقبل

وهذا وحده مثال يبين ان الاحتياط يجب ان يكون في النظام قبل الاشخاص حتى اذا غضب الشخص واشمأزت نفسه من حادث كان النظام واقفا بجموده الذى لا يتأثر دون ابراز الانفعال الشخصي في قضائه وعمله

ان حادث دنشواى ياجناب اللورد قد أرى كل مصرى ماذا تفعل القوة القاهرة من تعدى الحدود فى عقوبة الوطنى عند عثاره . ومن تهديده بنزع الروح عند أنينه . ولو أن المسيطرين تجاوزوا الحد الذي وقفوا عنده ماصدهم صاد ولا وجدوا من غيرهم معارضا. وكل هذا لان الشخص الذى غضب مالك أن يضرب أشد الضربات ولا رادع له من القوانين التى تردع نفوس الغاضبين

كل واحد في الوجود يغضب . وقد يغضب على من دونه من خادم وتابع ومرؤس . وقد يغضب على مزاحم له في الطريق . أو منافس له في عمل . وكل نفس نزاعة بحب الذات الى التفوق والظهور على الغير فلا يوقفها عن نزعها الا القوة التي تتخيلها باسرع من لمح البصر فتصدها اذ ذاك عن نزوعها للبطش بالغير . تلك القوة التي كانت قديما في الذات وفي التناصر بالقبيلة وتحولت الآن الى القوانين التي يتقاضى بها الناس امام القضاء (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض). تلك القوة التي لم تكن تخطر على بال أحد من قضاة دنشواي ولا من منفذي أحكامها لان كل القوة فيما يفعلون وليس وراءهم من قوة تراقب عليهم

وماجرى في دنشواي يصح ان يجري في كل حادث يغضب له القوي وينفعل بل مثل هذا الاطلاق في العنان يجري دائما في الاعمال التي لا تظهر نتائجها في الحال للعيان لان القابضين على أزمة الادارة المصرية عندنا قادرون على تغيير كل مادة قانونية لا تروق هواهم وهم يفعلون ذلك كلما أرادوا . فالقوة المراقبة من النظام في مصر مفقودة عند الانكليز لذلك كان كل موظف كبير منهم في حكم ملك مستبد يتصرف في الاعمال كما يشاء ويهوى

فهل يريد اللورد أن يحكم مصر بهذه الفوضى الى الابد . انه رجل شريف نزيه يقدر أن يلطف مضار الفوضى في ادارة البلاد بقدر مايستطيع ولكن ضمانة الامم ليست في الاشخاص فان الملك المستبد العادل قد يذهب دوره ويأتي ملك مستبد ظالم . وأن العمال الذين ينالون الزلفى من حضرته قد يختلفون اميالا كذلك فتختلف نتائج أعمالهم الى حد يعلي الامم الى السماك أو ينزلها الى الحضيض

فاذا شاء المصلح أن يكون مصلحا الى الابد فليترك وراءه نظاما صالحا لا يقدر المفسدون بعده أن يهدموه وهذا ما نريد أن يتركه اللورد كرومر في مصر ليذكر في أعقابها من أفضل المصلحين

(المؤيد في ٢٨ شعبان سنة ١٣٢٤ ــ ١٦ اكتوبر سنة ١٩٠٦ عدد ٤٩٩٤)



استقبال اللورد كرومر

في وادى النيل شعراء كثيرون ولكن الذين يذكروننا منهم بفحول شعراء العرب اجادة في الاسـلوب واحسانا في اختيار المعانى ومهارة في التلاعب بألباب السامعين قليلون . ومن هؤلاء بل من أفضلهم بلاغة في النظم وبراعة في الاسلوب وأجودهم اختيارا للمعاني الجزلة فى الالفاظ السهلة حضرة الشاعر الكبير حافظ أفندى ابراهيم

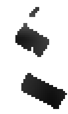
وقد نظم قصيدة غراء على لسان مصر تستقبل بها اليوم جناب اللورد كرومر لدى عودته اليها من مصيفه بعد حادثة دنشواى تحية وعتابا واستعطافا فلعله معتب وعاطف . وهاهى القصيدة الجديرة بان تسمى (قصيدة القرن العشرين) لانها أسمى مانظم فيه حتى الآن وربما لاينظم أسمى منها فى بابها شعراء هذا العصر

قصر الدوبارة هل أتاك حديثنا — فالشرق ربع له وضج المغرب
أهلا بسا كنك الكريم ومرحبا — بعد التحية اننى أتعتب
نقلت لنا الاسلاك عنك رسالة — باتت لها أحشاؤنا تتلهب
ماذا أقول وأنت أصدق ناقل — عنا ولكن السياسة تكذب
علمتنا معنى الحياة فمالنا — لانشرئب لها ومالك تغضب
أنقمت منا أن نحس وانما — هذا الذى تدعو اليه وتندب
أنت الذى يعزى اليه صلاحنا — فيما تقرره لديك وتكتب
ان ضاق صدر النيل عما هاله — يوم الحمام فان صدرك أرحب
أو كلما باح الحزين بأنة — أمست الى معنى التعصب تنسب
رفقا عميد الدولتين بأمة — ضاق الرجاء بها وضاق المذهب
رفقا عميد الدولتين بأمة — ليست بغير ولائها تتعذب
ان أرهقوا صيادكم فلعلهم — للقوت لا للمسلمين تعصبوا
ولربما ضن الفقير بقوته — وسخا بمهجته على من يغصب

* * *

في دنشواي وأنت عنا غائب | لعب (القضاء) بنا وعز المهرب
حسبوا النفوس من الحمام بديلة | فتسابقوا فى صيدهن وصوبوا
نكبوا وأقفرت المنازل بعدهم | لو كنت حاضر أمرهم لم ينكبوا
خليتهم والقاسطون بمرصد | وسياطهم وحبالهم تتأهب
جلدوا ولو منيتهم لتعلقوا | بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا
شنقوا ولو منحوا الخيار لاهلوا | بلظى سياط الجالدين ورحبوا
يتحاسدون على الممات وكأسه | بين الشفاه وطعمه لا يعذب
موتان هذا عاجل متنمر | يرنو وهذا آجل يترقب
والمستشار مكاثر برجاله | ومعاجز ومناجز ومحزب
يختال فى أنحائها متبسما | والدمع حول ركابه يتصبب
طاحوا بأربعة فأردوا خامسا | هو خير ما يرجو العميد ويطلب
حب يحاول غرسه فى أنفس | يجنى بغرسها الثناء الطيب
كن كيف شئت ولا تكل أرواحنا | للمستشار فان عدلك أخصب
وأفض على بوند اذا ولى القضا | رفقا يهش له القضاء ويطرب
قد كان حولك من رجالك نخبة | ساسوا الامور فدربوا وتدربوا
أقصيتهم عنا وجئت بفتية | طاش الشباب بهم وطار المنصب
فاجعل شعارك رحمة ومودة | ان القلوب مع المودة تكسب
واذا سئلت عن (الكنانة) قل لهم | هى أمة تلهو وشعب يلعب
فاستبق غفلتها ونم عنها تنم | فالناس أمثال الحوادث قلب

(المؤيد في ٢٩ شعبان سنة ١٣٢٤ ــ ١٧ اكتوبر سنة ١٩٠٦ عدد ٤٩٩٥)



تعديل ديكريتو سنة ١٨٩٥

قد تمر الايام على النظامات الناقصة ولا يظهر تمام نقصها الا بالحوادث الكبر

كذلك كان شأن ديكريتو سنة ١٨٩٥ الذي كان معلوما عند العموم نقصه بعد خلوه من قيود النظامات القانونيــة التى تصـد الانفس عن هواها . ولكن واضعيه يعتقدون أن هناك ضمانةأخرى من الاشخاص . ولهذا لم يظهر نقصه تمــاما الا بعد احد عشرة سنة من وجوده . أى بعد أن وجد حادث غضبت لهنفوس القابضين على سلطة

فلما غضــبوا ظهرت تلك القضية العامة فى الانسان « الظلم كمين في النفس القوة تظ والضعف يخفيه »

فى حادثة دنشواى تجلت قوة الانسان وضعف النظام با كمل وجوههــا . فظ صورة القوى مطلقا لنفسه العنان فى الانتقام وظهرت صورة الضعف شوهاء مظلمة متلاش

ظهرت القسوة قادرة جبارة من اعماق نفس الانسان فغاضت الرحمــة في أعماق أو ولت هاربة مذعورة

تلك كانت وظيفة المحكمة المخصوصة ومنفذى حكمها بمقتضى ديكريتو سنة ١٨٩٥،

وقد قلنا في المقالة الاولى التى وجهنا وجهها شطر قصر الدوبارة انتظارا لما يكون فيه يوم الاربعاء ان خير ماتفعله انكلترا بواسطة معتمدها أن تسعى للاستيلاء على قلوب أه بدلا من طوبها . وان هذا هو مانعتقده في حكمته ونعتقد أنه يريده ولــكن بقاء ديكر سنة ١٨٩٥ . ذلك النظام الابتر الضعيف الذى لا يصد قويا عن اتباع هوى النفس لا ي ذلك المقصـد الشريف . اذ لا يمكن أن يوفق بين استمالة قلوب المصريين وبين و المحكمة المخصوصة التى هى عبارة عن انذار دائم لهم بأن الجندى الانكليزى مقدس ولو معتديا وان الدفاع في وجهه عن النفس والقوت من أكبر الجرائم التى يعاقب عليها با والشنق والتمثيل الفظيع

انه لا تكون الفة حيث لا تفيض الرحمة من القلوب على الاعطاف ولا يكون وفاق الا ح توجـد المساواة . ولا رحمة ولا مساواة فلا عدل حيث توجد المحكمة المخصوصة التى ليد جديرة بهـذا الاسم بل أجدر بهــا أن تسمي « الدائرة المخصوصة » لانها دائرة الد التى تدور على المصرى بعقاب خاص لا يشترك فيه معه خصمه ان كان العدل يقتضى عقابهما

فعلى م توجد هــذه الدائرة الشاذة وفى البــلاد محاكم منظمة يحاكم فيها كل وا

عتدى على احد حتى على مقام ولى الامر هذه المحاكم التى باشر تنظيمها وتقويمها رجال الاحتلال
حت مراقبة المعتمد البريطاني منذ عشرين سنة . وجنابه يقول عنها فى تقريره العام كل عام
نها سائرة في سبيل التقدم والارتقاء . وقد بلغ به اعتقاده فى صلاح نظامها ان اقترح الغاء
لمحاكم المختلطة والقنصلية اكتفاء بالمحاكم المصرية مضافا اليها شئ من النفوذ الاجنبى فى
تشريع تعويضا لما يفقده الاوربيون من سلطة الامتيازات الاجنبية

فان كان الامر كذلك. وكانت المحاكم المصرية الحالية مما يؤتمن على ارواح واعراض
واموال امة بأسرها من صاحب التاج الى الصعلوك فهى كافية ان تحافظ على كرامة الجندى
لانكليزى فى البلاد . ولا يعوز الانكليز بعد ذلك الا أن يكون ذلك الجندى غير معتد
المصرى غير مدافع كما يقتضى العدل

على أن بقاء المحكمة المخصوصة يصادر ذلك الاقتراح من جهة أخرى . فان اللورد
يحاول به أن يوحد القضاء ليكون النظام المحترم فى البلاد أكفل للعدل

فهل يريد جنابه عند الغاء المحاكم المختلطة والقنصلية أن يلغى المحكمة المخصوصة أيضاً .
م تلغى الامتيازات الاجنبية ويصير كل الاجانب سواء مع الوطنيين بين يدى النظام
لشامل للجميع ماعدا الوطنى بازاء الجندى الانكليزي

ذلك مانستبعد تصوره عند رجل كبير العقل مثل اللورد كرومر الذى ينبغي له أن
يبدأ بالميسور من اقتراحه . ولا شك أن الغاء المحكمة المخصوصة (وهى فرع من الامتيازات
يضاً) ميسور أكثر من الغاء الامتيازات الاجنبية . لان الغاء ديكريتو سنة ١٨٩٥ يتوقف
على كلمة واحدة منه وأما الغاء الامتيازات الاجنبية فيتوقف على رضى الدول بعد مخابرات
طويلة جدا . فاذا فعل هذا يكون قد قدم لاوروبا أعظم برهان على صحة رأيه . والافان
لدول تعتبر رعاياها أقدس حقاً من جنود انكلترا ثم يحق لها أن تدعي أن المحاكم التى
لايراها اللورد حتى الآن صالحة للنظر فى قضايا الاعتداء على العساكر الانكليزية ليست
صالحة أيضاً للنظر في قضايا الاجانب

****

فما تقدم يرى كل منصف ان للمصريين ألحق في أن يألموا من وجود دكريتو سنة

١٨٩٥ . أولا لان وجود المحكمة المخصوصة حجة دائمة على نقص محاكم مصر . ثانياً لا
حجة دائمة على خوف انكلترا من المصريين . ثالثاً وهو الاهم . أن وجودها والعد
ضدان لايجتمعان

لان عنوان العدل « تكافؤ القوى » والمحكمة المخصوصة عبارة عن سوط عذاب فظ
فى يد القوى للضعيف أعده للانتقام لاللجزاء كما ظهر هذا الانتقام بأشد حالاته فى حاد
دنشواى

ثم بعد ذلك نقول ان جناب اللورد قد صرح بضرورة تعديل ديكريتو سنة ١٨٩٥
بتقييد أحكامها بالقانون وجعلها موقوفة على تصديق سلطة أعلى منها . فماذا يريد ج
بالتعديل على هذه الصورة ؟

أيريد أن يصدق مجلس النظار على حكمها . أو يريد أن يصدر أمر خديوى كر
بالتنفيذ ؟

ان كان الاول فما هى مزية تصديق مجلس النظار والنظار أنفسهم يتلقون الاوامر
قصر الدوبارة بلا مراجعة

وأما الثانى فلا ينبغى أن نتخيل وقوعه وكيف نتخيل ان جناب اللورد وهو أ
الناس أدبا مع خديو مصر أن يفكر فى أن يصيره جلادا

والا فأى سلطة يعنى اللورد أن تصدق على أحكام المحكمة المخصوصة بعد

على انه بما جهر به الآن يخالف نفسه في سنة ١٨٩٥ . ولا ريب ان ذلك لما
له من عظيم الخطأ في اطلاق المحكمة المخصوصة من القيود القانونية

فهل يريد أن تمضى عشر سنوات أخرى ليظهر له خطأ التعديل الذى يراه الآن ثم يصا

اننا من المصريين الذين يريدون الحق لنا أوعلينا ونريد أن نخاطب جناب اللو
بالروية والتعقل كما نريد أن يفهم كلامنا بالعدل والانصاف فنرفع الى مقامه السؤال الآ

هل مشى جناب اللورد ذات ليلة في شوارع القاهرة مثلا ورأى حالة الجند الانك
بعد مايثملون أوعلى العموم بعد الساعة الحادية عشرة ليلا . هل رآهم كيف ينطلقون في الشو
عدوا وكيف يقفزون على مركبات الناس وهى سائرة وكيف يتحككون في المارة وك

يشوه المفرطون فى السكر منهم محاسن المدنية بعربدتهم ؟؟

فاذا عرض خلاف بين هؤلاء الجنود وهم على ماوصفنا وبين أحد الاهالى أيكون من العدل أن يحاكم الوطنى الصاحي المعتدى عليه اذا دافع عن نفسه حيث يطلق سراح الجندى السكران المعتدى . ثم هل يكون العدل بعد ذلك ان تكون محاكمة الوطنى امام محكمة مخصوصة ؟

ان هذا ليس هو العدل الانكليزى الذى تريد انكلترا أن توجد تأثيره وتسير على نظامه فى مصر . وليست هذه الطريقة مما تملك به قلوب الامم

واذا كان مانعتقده حقا فاننا نؤمل ان يكون زمن العنف قد فات وأن اللورد يأخذ الامة بالحسنى رويدا رويدا . ونؤمل ان يكون أول حجر يضعه فى اساس بناء السلام الجديد الغاء دكريتو سنة ١٨٩٥

(المؤيدفى ٢٩ شعبان سنة ١٣٢٤ ـ ١٧ اكتوبر ١٩٠٦عدد٤٩٩٥)



احوال المستشارين

فى ادارة الحكومة الخديوية

قبل أن نتكلم عن المستشارين نذكر كلمة عن حضرات النظار المصريين لأنهم عند ذكر اولئك اقرب الناس خطورا بالبال

ومعلوم ان مركز النظار فى حكومة غير نيابية يختلف كثيرا عنه فيها . فهم فى الاولى وكلاء الحاكم المطلق يديرون باسمه شؤون الرعية ويضعون بامره القوانين التى يتقاضى بها الناس بعضهم بعضا . وفي الثانية وكلاء الامة وسطاء بينها وبين الملك . وفى كلتا الحالتين لهم اختصاص الآمر الثانى والمنفذ الاول

لكنهم في مصر على غير هذا الحال. كل مافي ايديهم مطابع صغيرة يطبعون بها الاوراق التى تعرض عليهم من قبل المستشارين او رؤساء الاقلام الخاضعين للمستشارين مباشرة. وقد لايجسر الواحد منهم على قراءتها حتى لايناجي نفسه برأى في موضوع

هذا شأنهم في دواوينهم وأما هم في الوكالة الانكليزية فزائرون مستمعون لـكل مايقال لهم . وفي سراي عابدين مبلغون لما يسمعون ان كلفوا بذلك وأما هم في مجلس النظار فكما وصفهم المغفور له الشيخ محمد مفتي الديار المصرية سابقا

والذي يجبر خواطر الامة من قبلهم أنهم في مرتباتهم غير مغبونين ولا مضغوط عليهم فيها كما هم في الاعمال والآراء . وأكبر فضل لهم أنهم صابرون على حال واحدة من سنة ١٨٩٥ الى هذا اليوم ليس بينهم من ضج أو اشتكى مراعاة لظروف الاحوال التي قضت بها سلطة الاحتلال

ولا نبحث في هل هم مصيبون أو مخطئون الآن ولكن نقول ان تصويرهم للفقراء بالحقيقة التي تمثلهم تماماً تبين لهم ماهي وظائف واحوال المستشارين في دواوين الحكومة المصرية

فالمستشارون هم اقطاب الحكومة التي تدور رحى العمل في كل ديوان على قطب منهم امرا ونهياً . اشارة وعبارة . محوا واثباتاً . ولو أنهم كانوا يعملون في الخفاء كما كانوا قبل بضع سنوات لـكانوا اشبه بأولئك الاقطاب الذين هم في اصطلاح الصوفية يتصرفون في الكون من وراء حجب الغيب وهم مكرمون .

هؤلاء المستشارون يختلفون على جناب اللورد كرومر غدوا ورواحا ثم يجلسون على كراسيهم في الدواوين آمرين ناهين منفذين . ولو أنهم كانوا متضامنين في المسؤلية لـكانوا النظار من كل وجه في القاب مستشارين

نعم ان اللورد كرومر يفيض على هؤلاء المستشارين بارائه العالية وخبرته الواسعة ومقاصده الشريفـة . ولنفرض بعد ذلك انه يراقبهم في التنفيذ ويتعهدهم بالمؤاخذة اذا أخطوا فرجع الفضل في عملهم لجنابه ولكن هل يكفي ذلك مسوغا لان يكون كل أمر الحـكومة المصرية في أيدي خمسة من الانكليز ان كانوا يوما شيوخا رأيتهم بعد ذلك شبانا أولى لهم ان يترقوا في الاعمال رويدا رويدا . ثم لما يكونون من لندن ولا يكونون أو بعضهم على الاقل من مصر

هل يعجز جناب اللورد كرومر أن يجد من رجال مصر شيوخا أو من نابغيها شبانا خمسة أو بعض خمسة أهلا لان يوليهم ثقته ويمنحهم عنايته فيعمل بهم في حكومة مصر مايعمل بالانكليز ألا يظن جنابه ان مراقبته التي هي القوة النافعـة في نفوس أولئك المستشارين من الانكليز

تكون نافعة كذلك لو جعلتهم او بعضهم من المصريين

أننا نفرض هذه الفروض نظريا فلايتوهمن قارئ خصوصاً من الانكليز أننا نحاول أن نغتصب منهم وظائف خلقت لهم خلقا وأن نحظى بثقة من جناب اللورد دونها خرط عنقود الثريا خرطا . لا يظنن ظان أننا نكتب كمن يسبح فى خيال واسع فوق السموات السبع فلا ينظر فى شيء مما يجرى حوله في هذا العالم . ولكن الغرض من هذه المقدمة الطويلة العريضة أن نقول . اذا كان ولا بد من وجود المستشارين الانكليز فلماذا لا يكونون ممن يأخذون وظائفهم باليمين . ممن تدرجوا فيها سلما سلما حتى رقوا هذه الذروة التى يتسنموها الآن أو كما يقول العرب فى أمثالهم ممن حنكتهم التجارب

ان الامة لتألم أشد الآلام من تغيير أحوال الرجال الذين يتقلدون أعلى المناصب في حكومة مصر حتى جرت الشكوى على ألسنة شعرائهم فقال حافظهم

قد كان حولك من رجالك نخبة ساسوا الامور فدربوا وتدربوا
أقصيتهم عنا وجئت بفتية طاش الشباب بهم وطار المنصب

بل اذا كان ولا بد من وجود المستشارين فلماذا يكون لقب الموظف مشيرا الى حقيقة منصبه . فاذا قلنا محرر جريدة لانفهم أنه مديرها أو قلنا ناظر خارجية لانفهم أنه رئيس النظار . أوقلنا (مستشار) فلا يكون هو الآمر والمنفذ معا

فلماذا أصبح هذا اللقب علما على كل القوة الفعالة فى الحكومة المصرية حتى غرس في عقول الامة من كبير وصغير وقارئ وأمى أن الامور مرهونة بارادته . فالعرائض لا تقدم الا اليه ـ وان رفعت الى النظار كانت من قبيل الاستشهاد كما ترسل صورها الى الجرائد . فالناظر مع المستشار الآن كالصفر على يسار الرقم

أترى أن هذا الفرق العظيم بين الناظر والمستشار الآن هو مقياس الفرق بين كفاءة هذا وذاك ؟ . ان هذا لا يقول به أحد ولكن جناب اللورد قضى من قبل وصرح في تقريره العام لسنة ١٩٠٤ أن الانكليزي ولو مرؤوسا يجب أن يكون آمرا مطاعا عند من فوقه ومن دونه فما بالك بالمستشار الذى جيء به كالوصي على كل من فى ديوانه من الناظر الى الحاجب

استقبال اللورد كرومر

في وادى النيل شعراء كثيرون ولكن الذين يذكروننا منهم بفحول شعراء العرب اجادة في الاسلوب واحسانا في اختيار المعانى ومهارة في التلاعب بألباب السامعين قليلون . ومن هؤلاء بل من أفضلهم بلاغة في النظم و براعة في الاسلوب وأجودهم اختيارا للمعاني الجزلة فى الالفاظ السهلة حضرة الشاعر الكبير حافظ أفندى ابراهيم

وقد نظم قصيدة غراء علي لسان مصر تستقبل بها اليوم جناب اللورد كرومر لدى عودته اليها من مصيفه بعد حادثة دنشواى تحية وعتابا واستعطافا فلعله معتب وعاطف . وهاهي القصيدة الجديرة بان تسمى (قصيدة القرن العشرين) لانها أسمى مانظم فيه حتى الآن وربما لاينظم أسمى منها فى بابها شعراء هذا العصر

قصر الدوبارة هل أتاك حديثنا ... فلشرق ريع له وضج المغرب
أهلا بنا كنك الكريم ومرحبا ... بعد التحية انني أتعتب
نقلت لنا الاسلاك عنك رسالة ... باتت لها أحشاؤنا تتلهب
ماذا أقول وأنت أصدق ناقل ... عنا ولكن السياسة تكذب
علمتنا معنى الحياة فمالنا ... لانشرئب لها ومالك تغضب
أنقمت منا أن نحس وانما ... هذا الذى تدعو اليه وتندب
أنت الذى يعزى اليه صلاحنا ... فيما تقرره لديك وتكتب
ان ضاق صدر النيل عما هاله ... يوم الحمام فان صدرك أرحب
أو كلما باح الحزين بأنة ... أمست الى معنى التعصب تنسب
رفقا عميد الدولتين بأمة ... ضاق الرجاء بها وضاق المذهب
رفقا عميد الدولتين بأمة ... ليست بغير ولائها تتعذب
ان أرهقوا صيادكم فلعلهم ... للقوت لا للمسلمين تعصبوا
ولربما ضن الفقير بقوته ... وسخا بمهجته علي من يغصب

* * *

في دنشواي وأنت عنا غائب ... لعب (القضاء) بنا وعز المهرب
حسبوا النفوس من الحمام بديلة ... فتسابقوا في صيدهن وصوبوا
نكبوا وأقفرت المنازل بعدهم ... لو كنت حاضر أمرهم لم ينكبوا
خليتهم والقاسطون بمرصد ... وسياطهم وحبالهم تتأهب
جلدوا ولو منيتهم لتعلقوا ... بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا
شنقوا ولو منحوا الخيار لاهلوا ... بلظى سياط الجالدين ورحبوا
يتحاسدون علي الممات وكأسه ... بين الشفاه وطعمه لا يعذب
موتان هذا عاجل متنمر ... يرنو وهذا آجل يترقب
والمستشار مكاثر برجاله ... ومعاجز ومناجز ومحزب
يختال في أنحائها متبسما ... والدمع حول ركابه يتصبب
طاحوا بأربعة فأردوا خامسا ... هو خير مايرجو العميد ويطلب
حب يحاول غرسه في أنفس ... يجني بغرسها الثناء الطيب
كن كيف شئت ولا تكل أرواحنا ... للمستشار فان عدلك أخصب
وأفض على بوند اذا ولي القضا ... رفقا يهش له القضاء ويطرب
قد كان حولك من رجالك نخبة ... ساسوا الامور فدربوا وتدربوا
أقصيتهم عنا وجئت بفتية ... طاش الشباب بهم وطار المنصب
فاجعل شعارك رحمة ومودة ... ان القلوب مع المودة تكسب
واذا سئلت عن (الكنانة) قل لهم ... هي أمة تلهو وشعب يلعب
فاستبق غفلتها ونم عنها تنم ... فالناس أمثال الحوادث قلب

(المؤيد في ٢٩ شعبان سنة ١٣٢٤ ــ ١٧ اكتوبر سنة ١٩٠٦ عدد ٤٩٩٥)

تعديل ديكريتو سنة ١٨٩٥

قد تمر الايام على النظامات الناقصة ولا يظهر تمام نقصها الا بالحوادث الكبر

كذلك كان شأن ديكريتو سنة ١٨٩٥ الذي كان معلوما عند العموم نقصه بعد ا
لخلوه من قيود النظامات القانونيـة التى تصـد الانفس عن هواها . ولكن واضعيه ك
يعتقدون أن هناك ضمانة أخرى من الاشخاص . ولهذا لم يظهر نقصه تمـاما الا بعد احد
عشرة سنة من وجوده . أى بعد أن وجد حادث غضبت له نفوس القابضين على سلطته

فلما غضـبوا ظهرت تلك القضية العامة فى الانسان « الظلم كمين في النفس القوة تظ
والضعف يخفيه »

فى حادثة دنشواى تجلت قوة الانسان وضعف النظام با كمل وجوههـا . فظهر
صورة القوى مطلقا لنفسه العنان فى الانتقام وظهرت صورة الضعف شوهاء مظلمة متلاش
ظهرت القسوة قادرة جبـارة من اعماق نفس الانسان فغاضت الرحمـة في أعماق ا
أو ولت هاربة مذعورة

تلك كانت وظيفة المحكمة المخصوصة ومنفذى حكمها بمقتضى ديكريتو سنة ١٨٩٥

وقد قلنا في المقالة الاولى التى وجهنا وجهها شطر قصر الدوبارة انتظارا لما يكون فيه .
يوم الاربعاء ان خير ماتفعله انكلترا بواسطة معتمدها أن تسعى للاستيلاء على قلوب أه
بدلا من طوبها . وان هذا هو مانعتقده في حكمته ونعتقد أنه يريده ولـكن بقاء ديكر
سنة ١٨٩٥ . ذلك النظام الابتر الضعيف الذى لا يصد قويا عن اتباع هوى النفس لا يلا
ذلك المقصـد الشريف . اذ لا يمكن أن يوفق بين استمالة قلوب المصريين و بين وج
المحكمة المخصوصة التى هى عبارة عن انذار دائم لهم بأن الجندى الانكليزى مقدس ولو
معتديا وان الدفاع في وجهه عن النفس والقوت من أكبر الجرائم التى يعاقب عليها با
والشنق والتمثيل الفظيع

انه لا تكون الفة حيث لا تفيض الرحمة من القلوب على الاعطاف ولا يكون وفاق الا حي
توجـد المساواة . ولا رحمة ولا مساواة فلا عدل حيث توجد المحكمة المخصوصة التى ليس
جديرة بهـذا الاسم بل أجدر بهـا أن تسمي « الدائرة المخصوصة » لأنها دائرة الدو
التى تدور على المصرى بعقاب خاص لا يشترك فيه معه خصمه ان كان العدل يقتضى عقابهما

فعلى م توجد هـذه الدائرة الشاذة وفى البـلاد محاكم منظمة يحاكم فيها كل وط

اعتدى على احد حتى على مقام ولى الامر هذه المحاكم التى باشر تنظيمها وتقويمها رجال الاحتلال تحت مراقبة المعتمد البريطاني منذ عشرين سنة . وجنابه يقول عنها فى تقريره العام كل عام انها سائرة في سبيل التقدم والارتقاء . وقد بلغ به اعتقاده فى صلاح نظامها ان اقترح الغاء المحاكم المختلطة والقنصلية اكتفاء بالمحاكم المصرية مضافا اليها شئ من النفوذ الاجنبى فى التشريع تعويضا لما يفقده الاوربيون من سلطة الامتيازات الاجنبية

فان كان الامر كذلك. وكانت المحاكم المصرية الحالية مما يؤتمن على ارواح واعراض واموال امة بأسرها من صاحب التاج الى الصعلوك فهى كافية ان تحافظ على كرامة الجندى الانكليزى فى البلاد . ولا يعوز الانكليز بعد ذلك الا أن يكون ذلك الجندى غير معتد على المصرى غير مدافع كما يقتضى العدل

على أن بقاء المحكمة المخصوصة يصادر ذلك الاقتراح من جهة أخرى . فان اللورد يحاول به أن يوحد القضاء ليكون النظام المحترم فى البلاد أكفل للعدل

فهل يريد جنابه عند الغاء المحاكم المختلطة والقنصلية أن يلغى المحكمة المخصوصة أيضاً . أم تلغى الامتيازات الاجنبية ويصير كل الاجانب سواء مع الوطنيين بين يدى النظام الشامل للجميع ماعدا الوطنى بازاء الجندى الانكليزي

ذلك مانستبعد تصوره عند رجل كبير العقل مثل اللورد كرومر الذى ينبغي له أن يبدأ بالميسور من اقتراحه . ولا شك أن الغاء المحكمة المخصوصة (وهى فرع من الامتيازات أيضاً) ميسور أكثر من الغاء الامتيازات الاجنبية . لان الغاء ديكريتو سنة ١٨٩٥ يتوقف على كلمة واحدة منه وأما الغاء الامتيازات الاجنبية فيتوقف على رضى الدول بعد مخابرات طويلة جدا . فاذا فعل هذا يكون قد قدم لاوروبا أعظم برهان على صحة رأيه . والا فان الدول تعتبر رعاياها أقدس حقاً من جنود انكلترا ثم يحق لها أن تدعي أن المحاكم التى لايراها اللورد حتى الآن صالحة للنظر فى قضايا الاعتداء على العساكر الانكليزية ليست صالحة أيضاً للنظر في قضايا الاجانب

***

فمما تقدم يرى كل منصف ان للمصريين ألحق في أن يألموا من وجود دكريتو سنة

١٨٩٥ . أولا لان وجود المحكمة المخصوصة حجة دائمة على نقص محاكم مصر . ثانيا لانها حجة دائمة على خوف انكلترا من المصريين . ثالثا وهو الاهم . أن وجودها والعدل ضدان لايجتمعان

لان عنوان العدل « تكافؤ القوى » والمحكمة المخصوصة عبارة عن سوط عذاب فظيع في يد القوى للضعيف أعده للانتقام لاللجزاء كما ظهر هذا الانتقام بأشد حالاته في حادثة دنشواى

ثم بعد ذلك نقول ان جناب اللورد قد صرح بضرورة تعديل ديكريتو سنة ١٨٩٥ بتقييد أحكامها بالقانون وجعلها موقوفة على تصديق سلطة أعلى منها . فماذا يريد جنابه بالتعديل على هذه الصورة ؟

أيريد أن يصدق مجلس النظار على حكمها . أويريد أن يصدر أمر خديوى كريم بالتنفيذ ؟

ان كان الاول فماهى مزية تصديق مجلس النظار والنظار أنفسهم يتلقون الاوامر من قصر الدوبارة بلا مراجعة

وأما الثانى فلا ينبغى أن نتخيل وقوعه وكيف نتخيل ان جناب اللورد وهو أكثر الناس أدبا مع خديو مصر أن يفكر فى أن يصيره جلادا

والا فأى سلطة يعنى اللورد أن تصدق على أحكام المحكمة المخصوصة بعد

على انه بما جهر به الآن يخالف نفسه في سنة ١٨٩٥ . ولا ريب ان ذلك لما ظهر له من عظيم الخطأ في اطلاق المحكمة المخصوصة من القيود القانونية

فهل يريد أن تمضى عشر سنوات أخرى ليظهر له خطأ التعديل الذى يراه الآن ثم يصلح

اننا من المصريين الذين يريدون الحق لنا أوعلينا ونريد أن نخاطب جناب اللورد بالروية والتعقل كما نريد أن يفهم كلامنا بالعدل والانصاف فترفع الى مقامه السؤال الآتى

هل مشى جناب اللورد ذات ليلة في شوارع القاهرة مثلا ورأى حالة الجند الانكليز بعد مايثملون أوعلى العموم بعد الساعة الحادية عشرة ليلا . هل رآهم كيف ينطلقون في الشوارع عدوا وكيف يقفزون على مركبات الناس وهى سائرة وكيف يتحككون في المارة وكيف

يشوه المفرطون فى السكر منهم محاسن المدنية بعربدتهم ؟؟

فاذا عرض خلاف بين هؤلاء الجنود وهم على ماوصفنا وبين أحد الاهالى أيكون من العدل أن يحاكم الوطنى الصاحي المعتدى عليه اذا دافع عن نفسه حيث يطلق سراح الجندى السكران المعتدى . ثم هل يكون العدل بعد ذلك ان تكون محاكمة الوطنى امام محكمة مخصوصة ؟

ان هذا ليس هو العدل الانكليزى الذى تريد انكلترا أن توجد تأثيره وتسير على نظامه فى مصر . وليست هذه الطريقة مما تملك به قلوب الامم

واذا كان مانعتقده حقا فاننا نؤمل ان يكون زمن العنف قد فات وأن اللورد يأخذ الامة بالحسنى رويدا رويدا . ونؤمل ان يكون أول حجر يضعه فى اساس بناء السلام الجديد الغاء دكريتو سنة ١٨٩٥

(المؤيد فى ٢٩ شعبان سنة ١٣٢٤ ـ ١٧ اكتوبر ١٩٠٦ عدد ٤٩٩٥)



احوال المستشارين

فى ادارة الحكومة الخديوية

قبل أن نتكلم عن المستشارين نذكر كلمة عن حضرات النظار المصريين لأنهم عند ذكر اولئك اقرب الناس خطورا بالبال

ومعلوم ان مركز النظار فى حكومة غير نيابية يختلف كثيرا عنه فيها . فهم فى الاولى وكلاء الحاكم المطلق يديرون باسمه شؤون الرعية ويضعون بامره القوانين التى يتقاضى بها الناس بعضهم بعضا . وفي الثانية وكلاء الامة وسطاء بينها وبين الملك . وفى كلتا الحالتين لهم اختصاص الآمر الثانى والمنفذ الاول

لكنهم في مصر على غير هذا الحال. كل مافي ايديهم مطابع صغيرة يطبعون بها الاوراق التى تعرض عليهم من قبل المستشارين او رؤساء الاقلام الخاضعين للمستشارين مباشرة. وقد لايجسر الواحد منهم على قراءتها حتى لايناجي نفسه برأى في موضوع

هذا شأنهم في دواوينهم وأما هم في الوكالة الانكليزية فزائرون مستمعون لكل مايقال لهم . وفى سراى عابدين مبلغون لما يسمعون ان كلفوا بذلك وأما هم في مجلس النظار فكما وصفهم المغفور له الشيخ محمد مفتى الديار المصرية سابقا

والذى يجبر خواطر الامة من قبلهم أنهم فى مرتباتهم غير مغبونين ولا مضغوط عليهم فيها كما هم في الاعمال والآراء . وأكبر فضل لهم أنهم صابرون على حال واحدة من سنة ١٨٩٥ الى هذا اليوم ليس بينهم من ضج أو اشتكى مراعاة لظروف الاحوال التى قضت بها سلطة الاحتلال

ولا نبحث في هل هم مصيبون أو مخطئون الآن ولكن نقول ان تصويرهم للفقراء بالحقيقة التى تمثلهم تماماً تبين لهم ماهى وظائف واحوال المستشارين فى دواوين الحكومة المصرية

فالمستشارون هم اقطاب الحكومة التى تدور رحى العمل فى كل ديوان على قطب منهم امرا ونهياً . اشارة وعبارة . محوا واثباتاً . ولوأنهم كانوا يعملون في الخفاء كما كانوا قبل بضع سنوات لكانوا اشبه بأولئك الاقطاب الذين هم في اصطلاح الصوفية يتصرفون في الكون من وراء حجب الغيب وهم مكرمون .

هؤلاء المستشارون يختلفون على جناب اللورد كرومر غدوا ورواحا ثم يجلسون على كراسيهم في الدواوين آمرين ناهين منفذين . ولوأنهم كانوا متضامنين في المسؤلية لكانوا النظار من كل وجه في القاب مستشارين

نعم ان اللورد كرومر يفيض على هؤلاء المستشارين بارائه العالية وخبرته الواسعة ومقاصده الشريفة . ولنفرض بعد ذلك انه يراقبهم في التنفيذ و ينعهدهم بالمؤاخذة اذا أخطوا فرجع الفضل فى عملهم لجنابه ولكن هل يكفى ذلك مسوغا لان يكون كل أمر الحكومة المصرية في أيدى خمسة من الانكليز ان كانوا يوما شيوخا رأيتهم بعد ذلك شبانا أولى لهم ان يترقوا في الاعمال رويدا رويدا . ثم لما يكونون من لندن ولا يكونون أو بعضهم على الاقل من مصر

هل يعجز جناب اللورد كرومر أن يجد من رجال مصر شيوخا أومن نابغيها شبانا خمسة أو بعض خمسة أهلا لان يوليهم ثقته و يمنحهم عنايته فيعمل بهم فى حكومة مصر مايعمل بالانكليز ألا يظن جنابه ان مراقبته التى هى القوة النافعة في نفوس أولئك المستشارين من الانكليز

تكون نافعة كذلك لو جعلتهم او بعضهم من المصريين

أننا نفرض هذه الفروض نظريا فلايتوهمن قارئ خصوصاً من الانكليز أننا نحاول أن نغتصب منهم وظائف خلقت لهم خلقا وأن نحظى بثقة من جناب اللورد دونها خرط عنقود الثريا خرطا . لايظنن ظان أننا نكتب كمن يسبح فى خيال واسع فوق السموات السبع فلا ينظر فى شيء مما يجرى حوله في هذا العالم . ولكن الغرض من هذه المقدمة الطويلة العريضة أن نقول . اذا كان ولا بد من وجود المستشارين الانكليز فلماذا لايكونون ممن يأخذون وظائفهم باليمين . ممن تدرجوا فيها سلما سلما حتى رقوا هذه الذروة التى يتسنموها الآن أوكما يقول العرب فى أمثالهم ممن حنكتهم التجارب

ان الامة لتألم أشد الآلام من تغيير أحوال الرجال الذين يتقلدون أعلى المناصب في حكومة مصر حتى جرت الشكوى على ألسنة شعرائهم فقال حافظهم

قد كان حولك من رجالك نخبة ساسوا الامور فدربوا وتدربوا
أقصيتهم عنا وجئت بفتية طاش الشباب بهم وطار المنصب

بل اذا كان ولابد من وجود المستشارين فلماذا يكون لقب الموظف مشيرا الى حقيقة منصبه . فاذا قلنا محرر جريدة لانفهم أنه مديرها أو قلنا ناظر خارجية لانفهم أنه رئيس النظار . أوقلنا (مستشار) فلا يكون هو الآمر والمنفذ معا

فلماذا أصبح هذا اللقب علما على كل القوة الفعالة فى الحكومة المصرية حتى غرس في عقول الامة من كبير وصغير وقارئ وأمى أن الامور مرهونة بارادته . فالعرائض لاتقدم الا اليه ــ وان رفعت الى النظار كانت من قبيل الاستشهاد كما ترسل صورها الى الجرائد . فالناظر مع المستشار الآن كالصفر على يسار الرقم

أترى أن هذا الفرق العظيم بين الناظر والمستشار الآن هو مقياس الفرق بين كفاءة هذا وذاك ؟ . ان هذا لايقول به أحد ولكن جناب اللورد قضى من قبل وصرح في تقريره العام لسنة ١٩٠٤ أن الانكليزي ولو مرؤوسا يجب أن يكون آمرا مطاعا عند من فوقه ومن دونه فما بالك بالمستشار الذى جيء به كالوصي على كل من فى ديوانه من الناظر الى الحاجب

ثم اذا كان ولا بد من أن يكون المستشار انـكليزيا شيخا كان أوشابا مجربا أوغير مجرب . فلماذا هو متأله في منصبه ،متأله في معاشرته . فلا يوجد بينه و بين أعيان الامـة أقل صلة . وقد يقضي في مصر عشرة أعوام فلا يعرف من أحوالها مايعرف السائح في فصل الشتاء ، لان المستشار يترفع عن أن يخالط كبار أعيان الامـة ولو ليعرف من أحوالهم شيئا بينما السائح يستفسر عن كل شيء أبهم عليه ولو من ترجمان أوخادم فندق

ثم يرى أولئك المستشارون أن من حقهم أن يستأثروا بسـلطة التشريع والتقنـين و بسلطة العزل والتعيين لا بين الموظفين الذين يشتغلون معهم و يعرفون بعضهم شخصيا فقط بل حتي بين صغار العمال الى حد عمد البلاد ومشايخها وخفرائها

وهذا التخبط والفوضى في ادارة البلاد اللذان لم يعرف لهما مثيل في تاريخ ادارة مصر قبل الآن . بل هذا اختلال نظام الامن العام الذي ضج منه واشتكى جناب المستر متشل مستشار الداخلية فيما كتبه ملحقا لتقرير جناب اللورد كرومر العام الماضي مرجع البلوى فيه لتلك الارجوحة الصبيانية التي يركبون عليها العمد و ينزلونهم عنها كل يوم نصبا وعزلا حتى كرهت الاسر الطيبة هذا المنصب واسترذلته وحتى صار أكثر صعاليك البـلاد عمدا فأصاب حلوق خيار الناس شجاها واستفز سخيمة الانفس اللئيمة هواها وكان من وراء هذا التنازع المستمر بين السري والوضيع ومن نمو الاحقاد النفسية التي تشعبت في طبقات الاهالي المختلفة مانراه اليوم من الفوضى العامة في البلاد . ولا يزال ضرعها يدر بالفساد بعمل أولئك الصنائع الذين هم أقرب لحظيرة المستشار من كل أحد

أصبح من القضايا البديهية عند الانـكليز ان كل عيب أوضعف في الادارة المصرية منشؤه صفات في العاملين من المصريين أوفي طبيعة الامة . فهم يشخصون كل علة تعرض عليهم بهذا المنظار و يصفون الدواء بقدر مايصل اليه حذقهم بعد ذلك التشخيص . ولا حاجة لان نقول ان الطبيب يصيب في العلاج بقدر مايصيب في التشخيص . فان أخطأ فيه كان علاجه علة أخرى وكلما توالى الخطأ أعضلت العلل فاما أن يفطن أهل المريض لخطل الطبيب فيدركون مريضهم بطبيب أمهر أو بجماعة أطباء يشخصون الداء بروية أعلى وبحث أدق ليكون العلاج مطابقا ـ أولا فيهلك المريض ويكون الطبيب القاتل له غيرمسؤل فيه

أما في مصر فطبيب الادارة العمومية فيها ليس خبيرا بها حتى أنه لم يسبق له أن يكون بمثابة التومرجي بجانب الطبيب . وقد عهد له من أول الامر أن يكون طبيبا بكل معاني الكلمة طبيبا شرعيا . طبيبا للامراض الباطنية . طبيبا للامراض الجلدية . طبيب أسنان . جراحا . الخ الخ وهو يشخص كل علة و يصف لها الدواء . الرأى كله له . والامر كله منه واليه . وان استمد من قصر الدوبارة رأيا فانما يكون الجواب بقدر السؤال . وكم فتوى يصدرها المفتي خطأ بناء على استفتاء خطأ

ألم يأن للذين في قبضتهم روح حياة البلاد وهم يتصرفون فيها تصرف السيد في ملكه أن يتدبروا في سلسلة تشخيص علل الفساد فى ادارة مصر ليروا ان كان الداء العضال الذى يتأصل الآن في مفاصل الامة و يدب فى الجسم دبيب السل فى الرئة هو من الامراض الذاتية فى الامة أو من أغلاط الطبيب المتكررة ؟ ؟

ألم يأن لاهل المريض أن يرفعوا صوتهم في وجه الطبيب قائلين له كف قليلا عن العبث بالمريض بلا روية ليدعوا ساعة من الزمان جماعة من مهرة الاطباء يشخصون علل مريضهم التى تراكمت عليه فيوقفون الجاهل المتطبب عند حده

ألم يأن لجناب اللورد كرومر أن يطيل نظره في حالة هذه الامة التعيسة و يسترجع ساعة من شبابه المجيد فيعمل بعزيمة حازمة وحكمة حاسمة عمل الطبيب الماهر الذى ندب نفسه لتشخيص العلة الحقيقية التى أصابت جسم الامة المصرية وكادت تودى بحياتها بين غرور الطبيب وجهله . انه لو يفعل ذلك مرة فقد لا يرى مخلصا للامة من ورطة الاحتلال الادارى التى سقطت في مهواتها سوى ان يهبها دستورا نيابيا صالحا يوضع بعده بناء كل عمل ادارى أوقضائى على اساس متين واذا لم يفعل ذلك كان أكبر مسئول عن مصائب مصر الآن وعن أضعافها في المستقبل والتاريخ أعدل حاكم

(المؤيد في ٣٠ شعبان سنة ١٣٢٤ ــ ١٨ اكتوبر سنة ١٩٠٦ عدد ٤٩٩٦)

٦

التعليم ونظارة المعارف

«ان التقدم فى المعارف والعلوم يتوقف على كون نظ
التعليم وافيا بحاجات الامة علي اختلاف طبقاتها»
«تقرير اللورد كرومر سنة ١٩٠٣»

ان سياسة التعليم التى جرت عليها نظارة المعارف المصرية وينفذها المستر دانلو بغلظة وصلابة . هى أن تكون المكاتب الابتدائيـة رافعة لامية الذين يتعلمون فيها القرا والكتابة بقدر الامكان . وان توهم الحكومة بأنها راغبة في نشر التعليم الصناعى وهمتها ذلك واهنة . وان يكون التعليم الثانوى والعالى لغاية واحدة هي أعداد الفئة اللازمة لخد الحكومة من الشبان ليس الا

فالتعليم الرسمي هنا يقتصر على حاجـة الامة من بعض وجوهها لا كلها ويقصر نف علي فريق قليل منها فلا يشمل كل الطبقات . ولقد نادى مجلس شورى القوانين حتى صوته في سنين كثيرة يطلب من الحكومة عـرض لوائح التعليم العامة عليه ليبد رأيه فيهـا فتقتصر الحكومة فى الجواب على أنه ليس من اختصاص مجلس الشورى ء لوائح التعليم

وهب أن القانون الاساسى لهذا المجلس لايمنحه هـذا الحق وان كان هذا غير صحيـ أفليس الابناء الذين يتعلمون في مـدارس الحكومة أبناء أعضاء الشورى وأبناء أقاربه وأبناء منتخبيهم الذين ينوبون عنهم فى نظر القوانين التى تحكم بها البلاد . اليس لهؤلاء أن ينظروا فى القوانين التى يعلم بمقتضاها أبناؤهم

ليس في البلاد مدارس أخري يمكنها أن تعطى الشهادات الرسمية التى يوظف بمقتضا المتخرجون أو يدخلون بها المدارس العليا حتى يقال لاعيان البلاد انكم أحرار فى أن ترس أبناءكم لمدارس الحكومة أولا ترسلوا مادامت هى لاتريد تطبيق نظام التعليم على رغباتكم انها فظاظة لامعنى لها . فالاموال التى تنفق على التعليم من خزينة الحكومة هى أمو

الامة . والاموال التى تؤخـذ اجرة للتعليم من آباء التلامذة هى أموال الامة . والموظفون الذين يقبضون على زمام ادارة التعليم في نظارة المعارف انما يأخذون مرتباتهم من أموال الامة وميزانية الحكومة التى تقرر نفقاتها كلها انما تقدم للمجلس ليعطي رأيه فيها فاذا جاء الى باب (نظارة المعارف) وقال أعضاء المجلس اننا نريد أن نعرف الخطة التى تجرى عليها هذه النظارة فى تعليم أبنائنا لندل الحكومة على قصـدنا من تعليمهم ولنوفق بين خطتها وهـذا القصـد بخبرة رجالها الفنيـين ــ قالت لهم بلسان دانلوب المتأله في تلك النظارة ويريد أن يعبد فيها من موظفيها ــ اننا لانراكم أهـلا لان تنظروا فى نظام تعليم أنتم جهـلاء به فلا تطلبوا مالستم أهلا له

يتلخص من كل هذه الفظاظـة أن الحكومـة لاتريد الا مايريده قصر الدوبارة من سياسة التعليم . وقصر الدوبارة بمثابة وصى على قصر أغنياء ليس لهم مجلس حسبي يراقب أعمال الوصى ويجعل حدا لرشـدهم . فلا الوصى يحب أن يخرجهم من هـذه الوصاية ولا القصر قادرون بذاتهـم على الخـروج ولا رقيب فوق الوصى يحسب له الوصي حسابا . والسر كله في العلم والتعليم لانهما ينبوع رشد القاصرين

وكلما ارتفع صوت الامـة بالشكوى من نضوب هـذا الينبوع وصلاحيته أدير فانوس السياسة السحرى بلعبة من ألاعيب الماهرين محوا واثباتا فى بروجرام التعليم فمرة يجعلون مدة التعليم الثانوي ثلاث سنوات بدل خمس وأخرى يعدونه أربعا . وتارة يكتفون بالشهادة الابتدائية في الاستخدام وأخرى يخترعون شهادة أهليـة أرقى منها بقليل . وآنا يشـتغلون بتعديل درجات الشهادات للمرتبات وآخر يعدلون في المرتبات لتلك الدرجات . وهلم جرا . كل ذلك ليحصروا تيار التعليم ورغباته فى مجرى الاستخدام ليصـدوا النفوس عن تعلم العلم لذاته

فسياسة التعليم الحالية مقصورة على أمرين . أعداد الطلبة لخدمة الحكومة في الوظائف الصغيرة وتمرين النفوس علي تمكين هذه الرغبة فيها لايلازمها موت الارادة وفقدانها . أما التهذيب وتربية النفوس بمايعليها فمفقودان من مدارس الحكومة بالـكلية

وأكبر لعبة أظهرتها سياسة الاحتلال في التعليم لتبهر بها أنصار الوطنيين والاجانب لعبة

انشاء الكتاتيب فى البلاد لعبة لايستطيع انسان أن يقف فى طريقها لانها فى الجملة مظهر من مظاهر نشر العلوم الابتدائية في البلاد ولواقترنت بالاخلاص لكانت بمثابة وضع الحجر الاول فى بناء تعميم التعليم الاجباري فى الامة بأسرها. اذ لايمكن أن يوجد التعليم اجباريا عاما قبل أن توجد المكاتب المنتظمة منتشرة فى كل قرية وبلدة . ولا توجد هذه المكاتب حتى تؤسس دورها على نظام صالح لها . ثم يكون من مصلحة الامة أن ينتشر التعليم بين أكنافها فيعم شيأ فشيأ حتى يكون يوماما اجباريا عاما كما هو في كل أمة راقية الآن

ولكن المعيب فى هذه اللعبة أنها أقرب للرياء منها لشرف القصد أوعلى الاقل أنفذت بطريقة هى الرياء كله فترك لكل مدير أن يتنافس في حض الاعيان على انشاء المكاتب كما يشاء . وأكثر المديرين تزلفا لسلطة الاحتلال من نهض للعمل قبل جاره ومن أوجد من المكاتب أكثر فى برهة أقل غير مبال أن يدفع العمد الى أخذ المال من جيوب الناس بالرغم عنهم

أظهر اللورد كرومر رغبته في انشاء هذه الكتاتيب وأعلن هذه الرغبة بأجلى بيان فى الخطبة التى ألقاها على أعيان الفيوم في العام الماضى وفي محادثاته الكثيرة مع المديرين وهو يطوف في ارجاء القطر جنوبا وشمالا

ثم جاء صوت مستشار الداخلية بعد ذلك حاكيا لتلك النغمة مرددا ذلك اللحن المطرب على اسماع المديرين فى كل فرصة بعد ذلك

فخال بعض المديرين أن الفرصة سانحة لاظهار عواطف الولاء الصادق لجناب المستشار مباشرة وجناب اللورد بالواسطة . فهب هذا وذاك الى جمع الاكتتابات على طريقة جمعت بين التنافس والضغط فاضرت بالكثيرين ممن كانوا يتنافسون وبالاكثرين ممن أجبروا على دفع مافرض عليهم وهم غير قادرين . وكان الوقت الذى هبت فيه تلك النهضة غير مناسب لاستدرار المال فاضطر بعضهم أن يقترض المائة بربا عشرين وثلاثين وأربعين

وعادت للعمد سلطتهم الاولى في الضغط على الفقير لاستنزاف جلده قبل جيبه فتحول الخير للشر من وجهين . وجه الرياء من جهة ووجه الارغام من جهة أخرى

وبالجملة صارت النهضة التى كان يجب أن تكون شريفة من كل وجه لانشاء الكتاتيب

أشبه عند بعض الاهالى (وكثير ماهم) بحوادث الاوبية المضرة

ونحن نعلم ان كثيرا من مضار تلك الطرق التى استعملت في سبيل هذه النهضة قد عرض على قصر الدوبارة وتلافى شر بعضها بارشاد المستشار الى مايجب أن يعمل فيها حتى كان من مغبة ذلك ان أعيدت أموال أعيان مديرية الشرقية التى جمعت باسم انشاء الكتاتيب وحبست في خزينة البنك أشهرا معدودات الى أصحابها

ولكن الغريب في أمر الوكالة الانكليزية أنها لم ترد أن تضيع هذه الفرصة التى انتهزها بعض المديرين والاعيان رياء بلا استفادة مغزى سياسي لها منها . وسرعان ماوفقت بين زيارة صاحب السمو ولى عهد الدولة الانكليزية وبين حظوة هيئة مجلس شورى القوانين بمقابلة سموه ليقول سمو ولى العهد فى خطبته كلمة شكر لنواب الامة على نهوض أعيان البلاد بنشر التعليم الابتدائى وتعميمه في القطر . ثم أعطى رئيس المجلس خطبة يومئذ ليقولها بين يدى سموه وفيها الاقرار على هذا الشكر واعتراف بصواب سياسة التعليم الجارية فى البلاد . ولكن أعضاء المجلس لم يريدوا أن يكونوا بوق قصر الدوبارة فى هذه المرة كما كانوه في السودان فحوروا فى الخطبة التى أعطيت لهم وأشاروا من طرف خفي الى النقص العظيم الذى تشكو منه الامة في طرق التعليم . وانبنى على هذا التحوير أن خطبة رئيس المجلس لم تترجم بين يدى سمو البرنس من العربية الى الانكليزية كما ترجمت خطبته من هذه الى تلك حتى لا يسمع سموه تأنيب قصر الدوباره في وجهه

والخلاصة ان سياسة التعليم الجارية في البلاد الآن غير مفيدة لتكوينها أمة ينبغ منها العلماء في كل فن ولا هى سائرة للامام تقدما لان « التقدم في المعارف والتعليم يتوقف على كون نظام التعليم وافيا بحاجات الامة على اختلاف طبقاتها » كما قال اللورد كرومر

(المؤيد فى ٢ رمضان سنة ١٣٢٤ ــ ٢٠ اكتوبر ١٩٠٦ عدد ٤٩٩٧)

١٨٩٥ . أولا لان وجود المحكمة المخصوصة حجة دائمة على نقص محاكم مصر . ثانياً لا، حجة دائمة على خوف انكلترا من المصريين . ثالثاً وهو الاهم . أن وجودها والعد ضدان لايجتمعان

لان عنوان العدل « تكافؤ القوى » والمحكمة المخصوصة عبارة عن سوط عذاب فظيـ في يد القوى للضعيف أعده للانتقام لاللجزاء كما ظهر هذا الانتقام بأشد حالاته في حاد دنشواى

ثم بعد ذلك نقول ان جناب اللورد قد صرح بضرورة تعديل ديكريتو سنة ٨٩٥ بتقييد أحكامها بالقانون وجعلها موقوفة على تصديق سلطة أعلى منها . فماذا يريد جنـ بالتعديل على هذه الصورة ؟

أيريد أن يصدق مجلس النظار على حكمها . أويريد أن يصدر أمر خديوى كر بالتنفيذ ؟

ان كان الاول فماهى مزية تصديق مجلس النظار والنظار أنفسهم يتلقون الاوامر م قصر الدوبارة بلا مراجعة

وأما الثاني فلا ينبغى أن نتخيل وقوعه وكيف نتخيل ان جناب اللورد وهو أكـ الناس أدبا مع خديو مصر أن يفكر فى أن يصيره جلادا

والا فأى سلطة يعنى اللورد أن تصدق على أحكام المحكمة المخصوصة بعد على انه بما جهر به الآن يخالف نفسه في سنة ١٨٩٥ . ولا ريب ان ذلك لما ه له من عظيم الخطأ في اطلاق المحكمة المخصوصة من القيود القانونية

فهل يريدأن تمضى عشر سنوات أخرى ليظهر له خطأ التعديل الذى يراه الآن ثم يصلـ اننا من المصريين الذين يريدون الحق لنا أوعلينا ونريد أن نخاطب جناب اللو بالروية والتعقل كما نريد أن يفهم كلامنا بالعدل والانصاف فنرفع الى مقامه السؤال الآ

هل مشى جناب اللورد ذات ليلة في شوارع القاهرة مثلا ورأى حالة الجند الانكلـ بعد مايثملون أوعلى العموم بعدالساعة الحادية عشرة ليلا . هل رآهم كيف ينطلقون في الشوار عدوا وكيف يقفزون على مركبات الناس وهى سائرة وكيف يتحككون في المارة وكيـ

يشوه المفرطون فى السكر منهم محاسن المدنية بعربدتهم ؟؟

فاذا عرض خلاف بين هؤلاء الجنود وهم على ماوصفنا و بين أحد الاهالى أيكون من العدل أن يحاكم الوطنى الصاحي المعتدى عليه اذا دافع عن نفسه حيث يطلق سراح الجندى السكران المعتدى . ثم هل يكون العدل بعد ذلك ان تكون محاكمة الوطنى امام محكمة مخصوصة ؟

ان هذا ليس هو العدل الانكليزى الذى تريد انكلترا أن توجد تأثيره وتسير على نظامه فى مصر . وليست هذه الطريقة مما تملك به قلوب الامم

واذا كان مانعتقده حقا فاننا نؤمل ان يكون زمن العنف قد فات وأن اللورد يأخذ الامة بالحسنى رويدا رويدا . ونؤمل ان يكون أول حجر يضعه فى اساس بناء السلام الجديد الغاء دكريتو سنة ١٨٩٥

(المؤيد فى ٢٩ شعبان سنة ١٣٢٤ ـ ١٧ اكتوبر ١٩٠٦ عدد ٤٩٩٥)



احوال المستشارين

فى ادارة الحكومة الخديوية

قبل أن نتكلم عن المستشارين نذكر كلمة عن حضرات النظار المصريين لأنهم عند ذكر اولئك اقرب الناس خطورا بالبال

ومعلوم ان مركز النظار فى حكومة غير نيابية يختلف كثيرا عنه فيها . فهم في الاولى وكلاء الحاكم المطلق يديرون باسمه شؤون الرعية ويضعون بامره القوانين التى يتقاضى بها الناس بعضهم بعضا . وفي الثانية وكلاء الامة وسطاء بينها و بين الملك · وفى كلتا الحالتين لهم اختصاص الآمر الثانى والمنفذ الاول

لكنهم في مصر على غير هذا الحال. كل ما في ايديهم مطابع صغيرة يطبعون بها الاوراق التى تعرض عليهم من قبل المستشارين او رؤساء الاقلام الخاضعين للمستشارين مباشرة. وقد لا يجسر الواحد منهم على قراءتها حتى لا يناجي نفسه برأى في موضوع

هذا شأنهم في دواوينهم وأما هم في الوكالة الانكليزية فزائرون مستمعون لكل مايقال لهم . وفي سراي عابدين مبلغون لما يسمعون ان كلفوا بذلك وأما هم في مجلس النظار فكما وصفهم المغفور له الشيخ محمد مفتي الديار المصرية سابقا

والذي يجبر خواطر الامة من قبلهم أنهم في مرتباتهم غير مغبونين ولا مضغوط عليهم فيها كما هم في الاعمال والآراء . وأكبر فضل لهم أنهم صابرون على حال واحدة من سنة ١٨٩٥ الى هذا اليوم ليس بينهم من ضج أو اشتكى مراعاة لظروف الاحوال التي قضت بها سلطة الاحتلال

ولا نبحث في هل هم مصيبون أو مخطئون الآن ولكن نقول ان تصويرهم للفقراء بالحقيقة التي تمثلهم تماماً تبين لهم ماهي وظائف واحوال المستشارين في دواوين الحكومة المصرية

فالمستشارون هم اقطاب الحكومة التي تدور رحى العمل في كل ديوان على قطب منهم امرا ونهياً . اشارة وعبارة . محوا واثباتاً . ولوانهم كانوا يعملون في الخفاء كما كانوا قبل بضع سنوات لكانوا اشبه بأولئك الاقطاب الذين هم في اصطلاح الصوفية يتصرفون في الكون من وراء حجب الغيب وهم مكرمون .

هؤلاء المستشارون يختلفون على جناب اللورد كرومر غدوا ورواحا ثم يجلسون على كراسيهم في الدواوين آمرين ناهين منفذين . ولوانهم كانوا متضامنين في المسؤلية لكانوا النظار من كل وجه في القاب مستشارين

نعم ان اللورد كرومر يفيض على هؤلاء المستشارين بارائه العالية وخبرته الواسعة ومقاصده الشريفة . ولنفرض بعد ذلك انه يراقبهم في التنفيذ ويتعهدهم بالمؤاخذة اذا أخطوا فرجع الفضل في عملهم لجنابه ولكن هل يكفي ذلك مسوغا لان يكون كل أمر الحكومة المصرية في أيدي خمسة من الانكليز ان كانوا يوما شيوخا رأيتهم بعد ذلك شبانا أولى لهم ان يترقوا في الاعمال رويدا رويدا . ثم لما يكونون من لندن ولا يكونون أو بعضهم على الاقل من مصر

هل يعجز جناب اللورد كرومر أن يجد من رجال مصر شيوخا أومن نابغيها شبانا خمسة أو بعض خمسة أهلا لان يوليهم ثقته ويمنحهم عنايته فيعمل بهم في حكومة مصر مايعمل بالانكليز ألا يظن جنابه ان مراقبته التي هي القوة النافعة في نفوس أولئك المستشارين من الانكليز

تـكون نافعة كذلك لو جعلتهم او بعضهم من المصريين

أننا نفرض هذه الفروض نظريا فلايتوهمن قارئ خصوصاً من الانـكليز أننا نحاول أن نغتصب منهـم وظائف خلقت لهم خلقا وأن نحظى بثقة من جناب اللورد دونهـا خرط عنقود الثريا خرطا . لا يظنن ظان أننا نكتب كمن يسبح فى خيـال واسع فوق السموات السبع فلا ينظر فى شيء مما يجرى حوله في هـذا العالم . ولكن الغرض من هـذه المقدمة الطويلة العريضـة أن نقول . اذا كان ولا بد من وجود المسـتشارين الانـكليز فلماذا لا يكونون ممن يأخذون وظائفهم باليمين . ممن تدرجوا فيها سلما سلما حتى رقوا هذه الذروة التى يتسنموها الآن أوكما يقول العرب فى أمثالهم ممن حنكتهم التجارب

ان الامة لتألم أشد الآلام من تغيير أحوال الرجال الذين يتقلدون أعلى المناصب في حكومة مصر حتى جرت الشكوى على ألسنة شعرائهم فقال حافظهم

قد كان حولك من رجالك نخبة ساسوا الامور فدربوا وتدربوا
أقصيتهـم عنـا وجئت بفتيـة طاش الشباب بهم وطار المنصب

بل اذا كان ولابد من وجود المستشارين فلماذا يكون لقب الموظف مشيرا الى حقيقة منصبه . فاذا قلنا محرر جريدة لانفهم أنه مديرها أو قلنا ناظر خارجية لانفهـم أنه رئيس النظار . أوقلنا (مستشار) فلا يكون هو الآمر والمنفذ معا

فلماذا أصبح هذا اللقب علما على كل القوة الفعالة فى الحكومة المصرية حتى غرس في عقول الامة من كبير وصغير وقارئ وأمى أن الامور مرهونة بارادته . فالعرائض لا تقدم الا اليه ـــ وان رفعت الى النظار كانت من قبيل الاستشهاد كما ترسل صورها الى الجرائد . فالناظر مع المستشار الآن كالصفر على يسار الرقم

أترى أن هذا الفرق العظيم بين الناظر والمستشار الآن هو مقياس الفرق بين كفاءة هذا وذاك ؟ . ان هذا لا يقول به أحد ولكن جناب اللورد قضى من قبل وصرح في تقريره العام لسنة ١٩٠٤ أن الانـكليزي ولو مرؤوسا يجب أن يكون آمرا مطاعا عنـد من فوقه ومن دونه فما بالك بالمسـتشار الذى جيء به كالوصي على كل من فى ديوانه من الناظر الى الحاجب

ثم اذا كان ولا بد من أن يكون المستشار انكليزيا شيخا كان أوشابا مجربا أوغير مجرب . فلماذا هو متأله في منصبه ، متأله في معاشرته . فلا يوجد بينه و بين أعيان الامة أقل صلة . وقد يقضي في مصر عشرة أعوام فلا يعرف من أحوالها مايعرف السائح في فصل الشتاء . لان المستشار يترفع عن أن يخالط كبار أعيان الامة ولو ليعرف من أحوالهم شيئ بينما السائح يستفسر عن كل شيء أبهم عليه ولو من ترجمان أوخادم فندق

ثم يرى أولئك المستشارون أن من حقهم أن يستأثروا بسلطة التشريع والتقنين و بسلطة العزل والتعيين لا بين الموظفين الذين يشتغلون معهم و يعرفون بعضهم شخصيا فقط بل حتي بين صغار العمال الى حد عمد البلاد ومشايخها وخفرائها

وهذا التخبط والفوضى في ادارة البلاد اللذان لم يعرف لهما مثيل في تاريخ ادارة مصر قبل الآن . بل هذا اختلال نظام الامن العام الذى ضج منه واشتكى جناب المستر متشل مستشار الداخلية فيما كتبه ملحقا لتقرير جناب اللورد كرومر العام الماضي مرجع البلوى فيه لتلك الارجوحة الصبيانية التى يركبون عليها العمد و ينزلونهم عنها كل يوم نصبا وعزلا حتى كرهت الاسر الطيبة هذا المنصب واسترذلته وحتى صار أكثر صعاليك البلاد عمدا فأصاب حلوق خيار الناس شجاها واستفز سخيمة الانفس اللئيمة هواها وكان من وراء هذا التنازع المستمر بين السرى والوضيع ومن نمو الاحقاد النفسية التى تشعبت في طبقات الاهالى المختلفة مانراه اليوم من الفوضى العامة في البلاد . ولا يزال ضرعها يدر بالفساد بعمل أولئك الصنائع الذين هم أقرب لحظيرة المستشار من كل أحد

أصبح من القضايا البديهية عند الانكليز ان كل عيب أوضعف فى الادارة المصرية منشؤه صفات فى العاملين من المصريين أوفي طبيعة الامة . فهم يشخصون كل علة تعرض عليهم بهذا المنظار و يصفون الداء بقدر مايصل اليه حذقهم بعد ذلك التشخيص . ولا حاجة لان نقول ان الطبيب يصيب فى العلاج بقدر مايصيب فى التشخيص . فان أخطأ فيه كان علاجه علة أخرى وكلما توالى الخطأ أعضلت العلل فاما أن يفطن أهل المريض لخطل الطبيب فيدركون مريضهم بطبيب أمهر أوجماعة أطباء يشخصون الداء بروية أعلى وبحث أدق ليكون العلاج مطابقا ــ أولا فيهلك المريض ويكون الطبيب القاتل له غيرمسؤل فيه

أما في مصر فطبيب الادارة العمومية فيها ليس خبيرا بها حتى أنه لم يسبق له أن يكون بمثابة التومرجي بجانب الطبيب . وقد عهد له من أول الامر أن يكون طبيبا بكل معاني الكلمة طبيبا شرعيا . طبيبا للامراض الباطنية . طبيبا للامراض الجلدية . طبيب أسنان . جراحا . الخ الخ وهو يشخص كل علة و يصف لها الدواء . الرأى كله له . والامر كله منه واليه . وان استمد من قصر الدوبارة رأيا فانما يكون الجواب بقدر السؤال . وكم فتوى يصدرها المفتي خطأ بناء على استفتاء خطأ

ألم يأن للذين في قبضتهم روح حياة البلاد وهم يتصرفون فيها تصرف السيد في ملكه أن يتدبروا في سلسلة تشخيص علل الفساد فى ادارة مصر ليروا ان كان الداء العضال الذى يتأصل الآن في مفاصل الامة و يدب فى الجسم دبيب السل فى الرئة هو من الامراض الذاتية فى الامة أو من أغلاط الطبيب المتكررة ؟؟

ألم يأن لاهل المريض أن يرفعوا صوتهم في وجه الطبيب قائلين له كف قليلا عن العبث بالمريض بلا روية ليدعوا ساعة من الزمان جماعة من مهرة الاطباء يشخصون علل مريضهم التى تراكمت عليه فيوقفون الجاهل المتطبب عند حده

ألم يأن لجناب اللورد كرومر أن يطيل نظره في حالة هذه الامة التعيسة و يسترجع ساعة من شبابه المجيد فيعمل بعزيمة حازمة وحكمة حاسمة عمل الطبيب الماهر الذى ندب نفسه لتشخيص العلة الحقيقية التى أصابت جسم الامة المصرية وكادت تودى بحياتها بين غرور الطبيب و جهله . أنه لو يفعل ذلك مرة فقد لا يرى مخلصا للامة من ورطة الاحتلال الادارى التى سقطت في مهواتها سوى ان يهبها دستورا نيابيا صالحا يوضع بعده بناء كل عمل ادارى أو قضائى على اساس متين واذا لم يفعل ذلك كان أكبر مسئول عن مصائب مصر الآن وعن أضعافها في المستقبل والتاريخ أعدل حاكم

(المؤيد في ٣٠ شعبان سنة ١٣٢٤ ـ ١٨ اكتوبر سنة ١٩٠٦ عدد ٤٩٩٦)

٦
التعليم ونظارة المعارف

«ان التقدم فى المعارف والعلوم يتوقف على كون نظام
التعليم وافيا بحاجات الامة على اختلاف طبقاتها»
«تقرير اللورد كرومر سنة ١٩٠٣»

ان سياسة التعليم التى جرت عليها نظارة المعارف المصرية وينفذها المستر دانلوب بغلظة وصلابة . هى أن تكون المكاتب الابتدائية رافعة لامية الذين يتعلمون فيها القراءة والكتابة بقدر الامكان . وان توهم الحكومة بأنها راغبة في نشر التعليم الصناعى وهمتها فى ذلك واهنة . وان يكون التعليم الثانوى والعالى لغاية واحدة هي أعداد الفئة اللازمة لخدمة الحكومة من الشبان ليس الا

فالتعليم الرسمي هنا يقتصر على حاجة الامة من بعض وجوهها لا كلها ويقصر نفعه علي فريق قليل منها فلا يشمل كل الطبقات . ولقد نادى مجلس شورى القوانين حتى بح صوته في سنين كثيرة يطلب من الحكومة عرض لوائح التعليم العامة عليه ليبدي رأيه فيها فتقتصر الحكومة فى الجواب على أنه ليس من اختصاص مجلس الشورى نظر لوائح التعليم

وهب أن القانون الاساسى لهذا المجلس لايمنحه هذا الحق وان كان هذا غير صحيح أفليس الابناء الذين يتعلمون في مدارس الحكومة أبناء أعضاء الشورى وأبناء أقاربهم وأبناء منتخبيهم الذين ينوبون عنهم فى نظر القوانين التى تحكم بها البلاد . اليس لهؤلاء حق أن ينظروا فى القوانين التى يعلم بمقتضاها أبناؤهم

ليس في البلاد مدارس أخري يمكنها أن تعطى الشهادات الرسمية التى يوظف بمقتضاه المتخرجون أو يدخلون بها المدارس العليا حتى يقال لاعيان البلاد انكم أحرار فى أن ترسلو أبناءكم لمدارس الحكومة أولا ترسلوا مادامت هى لاتريد تطبيق نظام التعليم على رغباتكم انها فظاظة لامعنى لها . فالاموال التى تنفق على التعليم من خزينة الحكومة هى أموال

الامة . والاموال التى تؤخـذ اجرة للتعليم من آباء التلامذة هى أموال الامة . والموظفون الذين يقبضون على زمام ادارة التعليم في نظارة المعارف انما يأخذون مرتباتهم من أموال الامة وميزانية الحكومة التى تقرر نفقاتها كلها انما تقدم للمجلس ليعطي رأيه فيها فاذا جاء الى باب (نظارة المعارف) وقال أعضاء المجلس اننا نريد أن نعرف الخطة التى تجرى عليها هذه النظارة فى تعليم أبنائنا لندل الحكومة على قصدنا من تعليمهم ولنوفق بين خطتها وهـذا القصـد بخبرة رجالها الفنيـين ــ قالت لهم بلسان دانلوب المتأله في تلك النظارة ويريد أن يعبد فيها من موظفيها ــ اننا لانراكم أهـلا لان تنظروا فى نظام تعليم أنتم جهـلاء به فلا تطلبوا مالستم أهلا له

يتلخص من كل هذه الفظاظـة أن الحكومـة لاتريد الا مايريده قصر الدوبارة من سياسة التعليم . وقصر الدوبارة بمثابة وصى على قصر أغنياء ليس لهم مجلس حسبي يراقب أعمال الوصى ويجعل حدا لرشـدهم . فلا الوصى يحب أن يخرجهم من هـذه الوصاية ولا القصر قادرون بذاتهـم على الخـروج ولا رقيب فوق الوصى يحسب له الوصي حسابا . والسر كله في العلم والتعليم لأنهما ينبوع رشد القاصرين

وكلما ارتفع صوت الامـة بالشكوى من نضوب هـذا الينبوع وصلاحيته أدير فانوس السياسة السحرى بلعبة من ألاعيب الماهرين محوا واثباتا فى بر وجرام التعليم فمرة يجعلون مدة التعليم الثانوي ثلاث سنوات بدل خمس وأخرى يمدونه أربعا . وتارة يكتفون بالشهادة الابتدائية في الاستخدام وأخرى يخترعون شهادة أهليـة أرقى منها بقليل . وآنا يشـتغلون بتعديل درجات الشهادات للمرتبات وآخر يعدلون في المرتبات لتلك الدرجات . وهلم جرا . كل ذلك ليحصروا تيار التعليم ورغباته فى مجرى الاستخدام ليصـدوا النفوس عن تعلم العلم لذاته

فسياسة التعليم الحالية مقصورة على أمرين . أعداد الطلبة لخدمة الحكومة في الوظائف الصغيرة وتمرين النفوس على تمكين هذه الرغبة فيها لايلافها موت الارادة وفقدانها . أما التهذيب وتربية النفوس بمايعليها فمفقودان من مدارس الحكومة بالـكلية

وأكبر لعبة أظهرتها سياسة الاحتلال في التعليم لتبهر بها أنصار الوطنيين والاجانب لعبة

انشاء الكتاتيب فى البلاد لعبة لا يستطيع انسان أن يقف فى طريقها لانها فى الجملة مظهر من مظاهر نشر العلوم الابتدائية في البلاد ولواقترنت بالاخلاص لكانت بمثابة وضع الحجر الاول فى بناء تعميم التعليم الاجباري فى الامة بأسرها. اذ لا يمكن أن يوجد التعليم اجباريا عاما قبل أن توجد المكاتب المنتظمة منتشرة فى كل قرية و بلدة . ولا توجد هذه المكاتب حتى تؤسس دورها على نظام صالح لها . ثم يكون من مصلحة الامة أن ينتشر التعليم بين أكنافها فيعم شيأ فشيأ حتى يكون يوماما اجباريا عاما كما هو في كل أمة راقية الآن

ولكن المعيب فى هذه اللعبة أنها أقرب للرياء منها لشرف القصد أوعلى الاقل أنفذت بطريقة هي الرياء كله فترك لكل مدير أن يتنافس في حض الاعيان على انشاء المكاتب كما يشاء . وأكثر المديرين تزلفا لسلطة الاحتلال من نهض للعمل قبل جاره ومن أوجد من المكاتب أكثر فى برهة أقل غير مبال أن يدفع العمد الى أخذ المال من جيوب الناس بالرغم عنهم

أظهر اللورد كرومر رغبته في انشاء هذه الكتاتيب وأعلن هذه الرغبة بأجلى بيان فى الخطبة التى ألقاها على أعيان الفيوم في العام الماضى وفي محادثاته الكثيرة مع المديرين وهو يطوف في ارجاء القطر جنوبا وشمالا

ثم جاء صوت مستشار الداخلية بعد ذلك حاكيًا لتلك النغمة مرددا ذلك اللحن المطرب على اسماع المديرين فى كل فرصة بعد ذلك

فخال بعض المديرين أن الفرصة سانحة لاظهار عواطف الولاء الصادق لجناب المستشار مباشرة وجناب اللورد بالواسطة . فهب هذا وذاك الى جمع الاكتتابات على طريقة جمعت بين التنافس والضغط فاضرت بالكثيرين ممن كانوا يتنافسون وبالاكثرين ممن أجبروا على دفع مافرض عليهم وهم غير قادرين . وكان الوقت الذى هبت فيه تلك النهضة غير مناسب لاستدرار المال فضطر بعضهم أن يقترض المائة بربا عشرين وثلاثين وأربعين

وعادت للعمد سلطتهم الاولى في الضغط على الفقير لاستنزاف جلده قبل جيبه فتحول الخير للشر من وجهين . وجه الرياء من جهة ووجه الارغام من جهة أخرى

وبالجملة صارت النهضة التى كان يجب أن تكون شريفة من كل وجه لانشاء الكتاتيب

أشبه عند بعض الاهالى (وكثير ماهم) بحوادث الاوبيةالمضرة

ونحن نعلم ان كثيرا من مضار تلك الطرق التى استعملت في سبيل هذه النهضة قد عرض على قصر الدوبارة وتلافى شر بعضها بارشاد المستشار الى مايجب أن يعمل فيها حتى كان من مغبة ذلك ان أعيدت أموال أعيان مديرية الشرقية التى جمعت باسم انشاء الكتاتيب وحبست في خزينة البنك أشهرا معدودات الى أصحابها

ولكن الغريب في أمر الوكالة الانكليزية أنها لم ترد أن تضيع هذه الفرصة التى انتهزها بعض المديرين والاعيان رياء بلا استفادة مغزى سياسى لها منها . وسرعان ماوفقت بين زيارة صاحب السمو ولى عهد الدولة الانكليزية وبين حظوة هيئة مجلس شورى القوانين بمقابلة سموه ليقول سمو ولى العهد فى خطبته كلمة شكر لنواب الامة على نهوض أعيان البلاد بنشر التعليم الابتدائى وتعميمه في القطر . ثم أعطى رئيس المجلس خطبة يومئذ ليقولها بين يدى سموه وفيها الاقرار على هذا الشكر واعتراف بصواب سياسة التعليم الجارية فى البلاد . ولكن أعضاء المجلس لم يريدوا أن يكونوا بوق قصر الدوبارة فى هذه المرة كما كانوه في السودان فحوروا فى الخطبة التى أعطيت لهم وأشاروا من طرف خفي الى النقص العظيم الذى تشكو منه الامة في طرق التعليم . وانبنى على هذا التحوير أن خطبة رئيس المجلس لم تترجم بين يدى سمو البرنس من العربية الى الانكليزية كما ترجمت خطبته من هذه الى تلك حتى لايسمع سموه تأنيب قصر الدوباره في وجهه

والخلاصة ان سياسة التعليم الجارية في البلاد الآن غير مفيدة لتكوينها أمة ينبغ منها العلماء في كل فن ولا هى سائرة للامام تقدما لان « التقدم في المعارف والتعليم يتوقف على كون نظام التعليم وافيا بحاجات الامة على اختلاف طبقاتها » كما قال اللورد كرومر

(المؤيد فى ٢ رمضان سنة ١٣٢٤ ـ ٢٠ اكتوبر ١٩٠٦ عدد ٤٩٩٧)

قصر الدوباره ـ بعد يوم الاربعاء

سلسلة مقالات بمناسبة استقالة جناب اللورد كرومر

« ما احد بالغ في نصيحة الحكام الا استغشوه »
« لصرفه اياهم عما يحبون الي ما لعلهم يكرهون »
« يحيي بن اكثم »

فهرست المقالات

(١)

اللورد كرومر . ولماذا اختلفوا على اكرامه

لاجدال فى أن الامــة المصرية ممتازة باكرام ضيوفها الى حد تجاوز المعروف عنــد الشعوب الاخري . وبالانصاف الى حــد المغالاة فى تقدير قيم العامـلين لصالحها أيا كان جنسهم ونحلتهــم . وبالعطف على الاجنبي الى حــد الاسراف أو نسيان الذات في الجرى معه على رغباته . متساهلة حتى كأنها خادعة وليست كذلك . ولينة حتى يخيل للطامع فيها انه يكاد يلويه بيديه . وبعيدة عن التعصب بمعناه المعروف الآن الى حد أن ترمى بفساد الوطنية . تذكر الجميل لصاحبه حتى كأنه محييها وتبذل فى سبيل انعطافها عليه النفس والنفيس

بالامس قام أحد أعضاء المجلس البلدى الاسكندرى مقترحاً أن يطلق على أحد شوارع المدينة اسم الشاعر الايطالى الشهير كردوتشي ـ لا لانه خدم مصر بعمل ولا لكونه نظم فى محاسنها قصيدة شائقة مشوقة للسياح مثلا ــ ولكن لانه طليانى وفي الاسكندرية جمـاعة كثيرة من الطليان وفى القومسيون البلدى بعض الاعضاء من القوم

فأجيب المقترح الى ماطلب

ولدى شـيوع نبأ اسـتقالة سابا باشا من رئاسة مصلحة البريد وردت التلغرافات من الوطنيين على الجرائد الوطنية ملتمسة بقاءه . ونشر المؤيد رسالة من مصرى يقول فيها « ان اشاعة تعيين برتون بك خلفا له مخالفة لما ينادى به اللورد كرومر من انه باذل جهده لتولية الوطنيين المراكز العالية

ان كردوتشي طليانى وسابا باشا سورى وهــذه خطة المصريين معهما أكبر دليل على سلامة النية ونسيان الذات عند تقدير الرجال وعلى اكرام الغير الى حد الاسراف

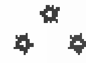
فما بال الامة المصرية مختلفة الآن على اكرام اللورد كرومر وهو بلا جــدال قد نفع القطر أكثر من سابا باشا ومن شيعة كردوتشي

ومهما كان رأينا في موضوع وداع اللورد واعتراضنا على الصائحين ضد مكرميه بأنهم يتجاهلون للمصرى صفاته الطبيعية النزاعة الى مكارم الاخلاق ــ ومهما بلغ انصافنا الرجل

في تاريخه فلا غرو أن في الامر غير مايتمنى محبوه وشيعته ومنصفوه

مابال اللورد بعد أن قضى ربع قرن فى القطر ـ ترقى في غضونها من قنصل لدولته لايمتاز على غيره من القناصل الى صاحب السلطة القيصرية فى قصر الدوبارة حيث لاينكر منصف أن القطر في عهده و بعظيم درايته وعميم عنايته ادرك منزلة سامية في أموره المالية وتوفرت فيه أسباب الرخاء ؟ ـ ماباله بعد أن قضى ذلك الامد الطويل على هذا الجد العريض صاحب الامر والنهى والكلمة المطاعه والاشارة الصداعة يغادر البلاد وحوله ضجيج منقسم الى نغمتين . نغمة الاجانب بين مادح ومطر راغب في تخليد ذكراه بانشاء نصب له فى العاصمة والثغر ونغمة الوطنيين تجمع بين انصاف اللورد وانصاف الوطنى حره من حقوقه ـ و بين متطرف لايرى للرجل حسنة الا بين سيئات . وأقل مايقال عن مظهر الامة بين تلك النغمات المختلفة أنها غير راضية عن الرجل رضاء كاملا . ومن يقل غير ذلك فهو عن جادة الحق الصراح بعيد

بعد خمس وعشرين سنة على الاحتلال وقد بلغ الغاية القصوى من السيطرة والسلطان يبرح عميد وادى النيل والامة لاتحفل بنداء الداعين للاحتفال بوداعه كما ينبغي . فما السبب في ذلك ؟؟



الاسباب كثيرة مجموعة الى سبب جوهرى هو أن الامة لم تتلاش حيويتها بجهاتها الماضية كما يزعمون ولم تفسد وطنيتها بمطالبها السابقة كما يقولون فلم يغنها من أمرها أن صار ثمن الفدان من أرضها الى ١٠٠ جنيه أو ٢٠٠ جنيه بل ولا يغنيها أن يصير الى الف لانها تريد أن تكون غنية فى الادبيات كما هى غنية فى الماديات ملية من الرجال والعقول كما هي ملية من الاموال والفضول

ولكن اللورد الذى منحها على أكثر مايعزى له ثروة ورخاء باليد اليسرى . سلبها أسباب رقيها الادبى باليد اليمنى فسلبها بذلك آمالها في المستقبل والامال زهرة الحياة البشرية في هذا العالم

على أن مصر قد أصبحت غنية بمال أوروبا وبحركة المضاربين على الاكثر . فية

ثروتهارهن اشارة مصدر تلك الثروة . وأوضح شاهد على ذلك أفاعيل الازمة المالية الحاضرة التى منشؤها حبس البنوك أموالها فى صناديقها وتواطؤها على أن تقبض أيديها فلا تبسطها زمنا ما فسرعان ماشعرت الامة بالعسر المالى وسرعان ماتراجعت أثمان العقار للوراء وهو رأس مال مصر فان أضر به حادث ألمت بها الكوارث

ان اللورد كرومر قد منحها ثروة زائلة ـ ولا يثبت الزائل الزائل ـ وهى تريد ثروة ثابتة ضمانتها الوحدة الوطنية التي يريد اللورد ذهابها من الوجود

رأى بعض الحكماء رجلين لايفترقان فسأل عنهما فقيل انهما صديقان قال فما بال أحدهما غنى والآخر فقير ؟ ؟ . فما بال اللورد كرومر الذى هو ثمرة أحزم وطنية فى العالم بانيت على أشرف مبادئ التضامن الجنسى يريد لنا أسوأ المذاهب في الوطنية الذاهبة بالمصريين الى الفقر المدقع من خيرات بلادهم ويريد أن تكون للاجنبي علي طرف الثمام.

كذلك حال مصر مع انكلترا على عهد اللورد كرومر . تصادقتا خمسا وعشرين سنة فلم تفترقا والاثنتان علي مثال ذينك الغني والفقير . احداهما غنية باستقلالها حتى لقد أفاضت من فضلات خيراته على مستعمراتها الى حد أن منحت الترانسفال استقلالها الاداري بعد ان طافت بارضها دماء رجالها والاخرى فقيرة من هذه الثروة البشرية مستعبدة فى كل أمورها وقد بلغ من فقرها المدقع فى هذا الباب أن اللورد فى آخر كلمة عنها جردها من كل أهلية للحكم الذاتى حاكما عليها بالعقم الابدى

فما بال انكلترا بعد ما كررت مواعيدها الحلوة المعزية تركت عميدها العظيم فى وادى النيل يختم أعماله بالتصريح بأن الاحتلال باق فيه الى الابد وان أهليه يجب ان يكونوا غير أهليه وان وطنيتهم يجب ان تكون كشكولا ليس لها في مجموعات الامم مثيل

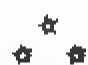
ومن تلك الاسباب ان جناب اللورد كرومر جاء مصر مرشدا فصار حاكما مستبدا يخرب مباني الآمال ويقيم على الجبل فكأنه لم يقتبس من نابليون الا قوله le le veux أى (أريد) وارادة كرومر في مصر يصدق فيها قول مادام ريموسات في ارادة نابليون قالت (كان اذا قال (أريد) دوى صدى عزمه فى جميع انحاء التويلري » فكان جناب اللورد كرومر يمد يده من قصر الدوبارة الى سماء مطامحه ليدرك نجومها وهو فى تطلعه هذا

يغفل عن التقاط الازهار الكائنة بجانبه فيخسر هذه ولا ينال تلك.

انه لم يعط انكلترا في ٢٥ سنة ماطلبته وأملته منه . لان انكلترا لما احتلت مصر لم تعلن انها تعطيها ثروة فقط بل صرحت انها ترقى بها الى مصاف الامم الحية وان تهذبها حتى تودها هذه الامة وتحبها وتصير نصيرة لها في الشدائد . وهذا معتمدها يزايل مصر بعد ٢٥ سنة والامة المصرية مطرقة برأسها حيرانة بين أن تجاهر بنفرتها من سياسة الراحل ـ والادب يمنعها عن ذلك ـ و بين أن تشترك مع الاجانب في مظاهرات الاكرام والاعجاب ـ وكرامتها تحول دون مايريدون منها . فاذا أكرمه الاجانب فلانه أجزل لهم الخير وجعلهم سادة البلاد ولانه ختم حياته السياسية بعرض مشروع خطير مفيد لهم والغاية منه جعلهم أصحاب هذه البلاد تحت راية انكلترا بعد ان كانوا ضيوفها

لم يخدم اللورد الامة المصرية الامن جهة الثروة فاشترك في التنعم بها الاجانب بل نالوا القسط الاوفر منها ثم هو يريد أن يجعلهم أصحاب الامر والنهي فى ادارة مهام البلاد

يعود جنابه الى انكلترا فماذا يقول للملكه وحكومته وأمته ? لقد ذهب المار يشال ناى من قبله وقال للويس الثامن عشر (سآتيك بنابوليون فى قفص من حديد) ولكنه لم يفعل وجناب اللورد قال للملكه وحكومته وأمته منذ عشرات من السنين (سآتيكم بمصر تحفة راضية خاضعة) ولكنه لم يفعل . انه باقراره الاخير يعود الى انكلترا فلا يقدر أن يقول الاهذا ـ « بعد سياسة ٢٥ سنة لاتستطيعون أن تأمنوا على دوام نفوذكم في مصر الا اذا ضاعفتم السطوة وعززتم جبروت السلطة و زدتم جيش الاحتلال على الدوام وضربتم كل من عارضكم ضربة قاضية تخمد أنفاس الحرية التى منحتها صحف هذه البلاد غلطاً والغلط مردود على صاحبه »



من أول يوم تولى فيه اللورد كرومر سلطة الدولة الانكليزية وادارة مصالحها في مصر نظر الى الامة المصرية وقرر بعد تدبر قليل واختبار أقل انهذه الملايين يجب أن تساس بالعنف وأن تساق بعصا من حديد . وظل هذا رأيه حتى الساعة الاخيرة من وجوده فى قصر الدوبارة فكان كلما ظهر له ان في البلاد أمة لها شيء من الحياة رفع سيف حدته وطعنها طعنة يريد

تقضى على آمالها

علم أن مصر في حاجة الى العلم فلم يبدأ بتعليمها الا في أواخر مدته وبطريقة لا تروى لها غلة . فحض الوجهاء على انشاء الكتاتيب الصغيرة واذا به يرى هذه الامة تطلب لنفسها علما أرقى وجامعة مصرية كبيرة فأعرض عنها واستعمل أتباعه للاشارة بطريقة هو غير مسؤول عنها رسمياً الى أن قصر الدوبارة السياسى غير راض عن انشاء قصر علمي وطنى .

في مصر نظارة للمعارف لكنها غير نافعة كما تقضي حاجته مصر لانها لا تجرى في نفعها على نمط يؤدى الى الخير الصحيح العام فان التعليم الذى يصل الى الاذن فقط هو من قبيل تمتع الرجل بطعام شهى ولكن حلماً فى نومه فاذا انتبه لا يجد قوتاً أمامه ولا يجد من قوته العقلية مايدل على أنه أكل حقيقة

كان اللورد كرومر كل مدته فى مصر معارضاً لكل ماتريده مصر من مطالب الرقى الادبي فلم يؤيد لها طلباً منذ ٢٤ سنة ولا أحسن بها ظناً ولا رد عنها تهمة بل كان أول رجل مسموع الكلمة قال عنها قولا منكراً واتهمها بتهم غريبة وغرس في عقول أوروبا انها أمة قاصرة متعصبة ليس فيها رجال اكفاء ولا تصلح أن تكون أمة أبدا

قال عنه قومه انه (عين مصر وقلبها)وأصابوا كثيراً من حيث اهتمامه بمصلحة دولته وقومه فهو لم ينظر الى مصر مرة الا ليزيد قيودها شدة ولا شعر بانعطاف اليها الا ليزيدها دنواً من العبودية لحكومته وقومه

وأى دليل يريده الناس منا على قلة انصافه لنا أعظم من اتخاذه ذلك الكتاب الذى لا امضاء له واعتماده عليه وجعله من المحررات الدولية الرسمية التاريخية وتسجيله بواسطته ان الامة المصرية لاوطنية لها وانها متعصبة لدينها تعصبا مضرا بالمسيحيين

فهل يستغرب منصف بعد هذا ان الامة المصرية لا تقيم له التماثيل والولائم

ولكن جناب اللورد يعلم من الاحوال الحاضرة ان عقلاء هذه الامة التى أساء كثيرا اليها فى جملة احساناته يرون من الحكمة أن يحسنوا وداعه وتشييعه ولذلك هم يتظاهرون أفرادا بما يقضى به الذوق والادب

لم يعلم جناب اللورد مع سعة اختباره ان العنف كالعاصفة الشديدة يزيلها المطر وأما

انشاء الكتاتيب فى البلاد لعبة لايستطيع انسان أن يقف فى طريقها لانها فى الجملة مظهر من مظاهر نشر العلوم الابتدائية في البلاد ولواقترنت بالاخلاص لكانت بمثابة وضع الحجر الاول فى بناء تعميم التعليم الاجباري فى الامة بأسرها. اذ لايمكن أن يوجد التعليم اجباريا عاما قبل أن توجد المكاتب المنتظمة منتشرة فى كل قرية وبلدة . ولا توجد هذه المكاتب حتى تؤسس دورها على نظام صالح لها. ثم يكون من مصلحة الامة أن ينتشر التعليم بين أكنافها فيعم شيأ فشيأ حتى يكون يوماما اجباريا عاما كما هو في كل أمة راقية الآن

ولكن المعيب فى هذه اللعبة أنها أقرب للرياء منها لشرف القصد أوعلى الاقل أنفذت بطريقة هى الرياء كله فترك لكل مدير أن يتنافس في حض الاعيان على انشاء المكاتب كما يشاء . وأكثر المديرين تزلفا لسلطة الاحتلال من نهض للعمل قبل جاره ومن أوجد من المكاتب أكثر فى برهة أقل غير مبال أن يدفع العمد الى أخذ المال من جيوب الناس بالرغم عنهم

أظهر اللورد كرومر رغبته في انشاء هذه الكتاتيب وأعلن هذه الرغبة بأجلى بيان فى الخطبة التى ألقاها على أعيان الفيوم في العام الماضى وفي محادثاته الكثيرة مع المديرين وهو يطوف في ارجاء القطر جنوبا وشمالا

ثم جاء صوت مستشار الداخلية بعد ذلك حاكيا لتلك النغمة مرددا ذلك اللحن المطرب على اسماع المديرين فى كل فرصة بعد ذلك

فخال بعض المديرين أن الفرصة سانحة لاظهار عواطف الولاء الصادق لجناب المستشار مباشرة وجناب اللورد بالواسطة . فهب هذا وذاك الى جمع الاكتتابات على طريقة جمعت بين التنافس والضغط فاضرت بالكثيرين ممن كانوا يتنافسون وبالاكثرين ممن أجبروا على دفع مافرض عليهم وهم غير قادرين . وكان الوقت الذى هبت فيه تلك النهضة غير مناسب لاستدرار المال فاضطر بعضهم أن يقترض المائة بربا عشرين وثلاثين وأربعين

وعادت للعمد سلطتهم الاولى في الضغط على الفقير لاستنزاف جلده قبل جيبه فتحول الخير للشر من وجهين . وجه الرياء من جهة ووجه الارغام من جهة أخرى

وبالجملة صارت النهضة التى كان يجب أن تكون شريفة من كل وجه لانشاء الكتاتيب

أشبه عند بعض الاهالى (وكثير ماهم) بحوادث الاوبية المضرة

ونحن نعلم ان كثيرا من مضار تلك الطرق التى استعملت في سبيل هـذه النهضة قد عرض على قصر الدوبارة وتلافى شر بعضها بارشاد المستشار الى مايجب أن يعمل فيها حتى كان من مغبـة ذلك ان أعيـدت أموال أعيان مديرية الشرقيـة التى جمعت باسم انشاء الكتاتيب وحبست في خزينة البنك أشهرا معدودات الى أصحابها

ولكن الغريب في أمر الوكالة الانكليزية أنها لم ترد أن تضيع هذه الفرصـة التى انتهزها بعض المديرين والاعيان رياء بلا استفادة مغزى سياسى لها منها . وسرعان ماوفقت بين زيارة صاحب السمو ولى عهـد الدولة الانـكليزية وبين حطوة هيئـة مجلس شورى القوانين بمقابلة سموه ليقول سمو ولى العهـد فى خطبته كلمة شكر لنواب الامـة على نهوض أعيان البلاد بنشر التعليم الابتدائى وتعميمه في القطر . ثم أعطى رئيس المجلس خطبة يومئذ ليقولها بين يدى سموه وفيها الاقرار على هذا الشكر واعتراف بصواب سياسة التعليم الجارية فى البلاد . ولكن أعضاء المجلس لم يريدوا أن يكونوا بوق قصر الدوبارة فى هـذه المرة كما كانوه في السودان فحوروا فى الخطبة التى أعطيت لهم وأشاروا من طرف خفي الى النقص العظيم الذى تشكو منه الامة في طرق التعليم . وانبنى على هذا التحوير أن خطبـة رئيس المجلس لم تترجم بين يدى سمو البرنس من العربيـة الى الانـكليزية كما ترجمت خطبته من هذه الى تلك حتى لا يسمع سموه تأنيب قصر الدوباره في وجهه

والخلاصة ان سياسة التعليم الجارية في البلاد الآن غير مفيدة لتكوينها أمة ينبغ منها العلماء في كل فن ولا هى سائرة للامام تقدما لان « التقـدم في المعارف والتعليم يتوقف على كون نظام التعليم وافيا بحاجات الامة على اختلاف طبقاتها » كما قال اللورد كرومر

(المؤيد فى ٢ رمضان سنة ١٣٢٤ ـ ٢٠ اكتوبر ١٩٠٦ عدد ٤٩٩٧)

قصر الدوباره ـ بعد يوم الاربعاء

سلسلة مقالات بمناسبة استقالة جناب اللورد كرومر

« ما احد بالغ في نصيحة الحكام الا استغشوه »
« لصرفه اياهم عما يحبون الى ما لعلهم يكرهون »
« يحيى بن اكثم »

فهرست المقالات

(١)

اللورد كرومر . ولماذا اختلفوا على اكرامه

لاجدال فى أن الامـة المصرية ممتازة باكرام ضيوفها الى حد تجاوز المعروف عنـد شعوب الاخري . وبالانصاف الى حـد المغالاة فى تقدير قيم العامليـن لصالحها أيا كان جنسهم ونحلتهـم . وبالعطف على الاجنبي الى حـد الاسراف أو نسيان الذات في الجرى معه على رغباته . متساهلة حتى كأنها خادعة وليست كذلك . ولينة حتى يخيل للطامع فيها أنه يكاد يلويه بيديه . وبعيدة عن التعصب بمعناه المعروف الآن الى حد أن ترمى بفساد الوطنية . تذكر الجميل لصاحبه حتى كأنه محببها وتبذل فى سبيل انعطافها عليه النفس والنفيس

بالامس قام أحد أعضاء المجلس البلدى الاسكندرى مقترحاً أن يطلق على أحد شوارع المدينة اسم الشاعر الايطالى الشهير كردوتشي ـ لا لانه خدم مصر بعمل ولا لكونه نظم فى محاسنها قصيدة شائقة مشوقة للسياح مثلا ـ ولكن لانه طليانى وفي الاسكندرية جماعة كثيرة من الطليان وفى القومسيون البلدى بعض الاعضاء من القوم

فأجيب المقترح الى ماطلب

ولدى شـيوع نبأ اسـتقالة سابا باشا من رئاسة مصلحة البريد وردت التلغرافات من الوطنيين على الجرائد الوطنية ملتمسة بقاءه .ونشر المؤيد رسالة من مصرى يقول فيها «ان اشاعة تعيين برتون بك خلفا له مخالفة لما ينادى به اللورد كرومر من انه باذل جهده لتولية الوطنيين المراكز العالية

ان كردوتشي طليانى وسابا باشا سورى وهـذه خطة المصريين معهما أكبر دليل على سلامة النية ونسيان الذات عند تقدير الرجال وعلى اكرام الغير الى حد الاسراف

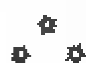
فما بال الامة المصرية مختلفة الآن على اكرام اللورد كرومر وهو بلا جـدال قد نفع القطر أكثر من سابا باشا ومن شيمة كردوتشي

ومهما كان رأينا في موضوع وداع اللورد واعتراضنا على الصائحين ضد مكرميه بأنهم يتجاهلون للمصرى صفاته الطبيعية النزاعة الى مكارم الاخلاق ـ ومهما بلغ انصافنا الرجل

في تاريخه فلا غرو أن في الامر غير مايتمنى محبوه وشيعته ومنصفوه

مابال اللورد بعد أن قضى ربع قرن فى القطر ـ ترقى في غضونها من قنصـل لدولة لايمتاز على غيره من القناصل الى صاحب السلطة القيصرية فى قصر الدوبارة حيث لاين منصف أن القطر في عهده و بعظيم درايته وعميم عنايته ادرك منزلة سامية في أموره المالية و توفرت فيه أسباب الرخاء ؟ ـ مابالـه بعـد أن قضى ذلك الامد الطويل على هـذا ا العريض صاحب الامر والنهى والكلمة المطاعه والاشارة الصداعـة يغادر البـلاد وحو ضجيج منقسم الى نغمتين . نغمة الاجانب بين مادح ومطر راغب في تخليد ذكراه بان نصب له فى العاصمة والثغر ونغمة الوطنيين تجمع بين انصاف اللورد وانصاف الوطنى حر من حقوقه ـ و بين متطرف لايرى للرجل حسنة الا بين سيئات . وأقل مايقال عن م الامة بين تلك النغمات المختلفة أنها غير راضية عن الرجل رضاء كاملا . ومن يقل غير ذ فهو عن جادة الحق الصراح بعيد

بعد خمس وعشرين سنة على الاحتلال وقد بلغ الغاية القصوى من السيطرة والسلط يبرح عميد وادى النيـل والامة لاتحفل بنداء الداعين للاحتفال بوداعـه كما ينبغي . السبب في ذلك ؟؟



الاسباب كثيرة مجموعـة الى سبب جوهرى هو أن الامة لم تتـلاش حيويتها الماضية كما يزعمون ولم تفسد وطنيتها بمطالبها السابقـة كما يقولون فلم يغنها من أمرها أن ثمن الفدان من أرضها الى ١٠٠ جنيه أو ٢٠٠ جنيه بل ولا يغنيها أن يصـير الى الف لا تريد أن تكون غنية فى الادبيات كما هى غنيـة فى الماديات ملية من الرجال والعقول كم ملية من الاموال والفضول

ولـكن اللورد الذى منحها على أ كثر مايعزى له ثروة ورخاء باليـد اليسرى . أسـباب رقيها الادبى باليـد اليمنى فسلبها بذلك آمالها في المستقبل والامال زهـرة ا البشرية في هذا العالم

على أن مصر قد أصبحت غنية بمـال أوروبا وبحركة المضاربين على الا كثر ف

ثروتها رهن اشارة مصدر تلك الثروة . وأوضح شاهد على ذلك أفاعيل الازمة الماليه الحاضرة التي منشؤها حبس البنوك أموالها في صناديقها وتواطؤها على أن تقبض أيديها فلا تبسطها زمنا ما فسرعان ماشعرت الامة بالعسر المالى وسرعان ماتراجعت أثمان العقار للوراء وهو رأس مال مصر فان أضر به حادث ألمت بها الكوارث

ان اللورد كرومر قد منحها ثروة زائلة — ولا يثبت الزائل الزائل — وهى تريد ثروة ثابتة ضمانتها الوحدة الوطنية الي يريد اللورد ذهابها من الوجود

رأى بعض الحكماء رجلين لايفترقان فسأل عنهما فقيل انهما صديقان قال فما بال أحدهما غني والآخر فقير ؟؟ . فما بال اللورد كرومر الذى هو ثمرة أحزم وطنية فى العالم بنيت على أشرف مبادئ التضامن الجنسى يريد لنا أسوأ المذاهب في الوطنية الذاهبة بالمصريين الى الفقر المدقع من خيرات بلادهم ويريد أن تكون للاجنبي علي طرف الثمام.

كذلك حال مصر مع انكلترا على عهد اللورد كرومر . تصادقتا خمسا وعشرين سنة فلم تفترقا والاثنتان علي مثال ذينك الغني والفقير . احداهما غنية باستقلالها حتى لقد أفاضت من فضلات خيراته على مستعمراتها الى حد أن منحت الترانسفال استقلالها الاداري بعد ان طافت بارضها دماء رجالها والاخرى فقيرة من هذه الثروة البشرية مستعبدة فى كل أمورها وقد بلغ من فقرها المدقع فى هذا الباب أن اللورد فى آخر كلمة عنها جردها من كل أهلية للحكم الذاتى حاكما عليها بالعقم الابدى

فما بال انكلترا بعد ما كررت مواعيدها الحلوة المعزية تركت عميدها العظيم فى وادى النيل يختم أعماله بالتصريح بأن الاحتلال باق فيه الى الابد وان أهليه يجب ان يكونوا غير أهليه وان وطنيتهم يجب ان تكون كشكولا ليس لها في مجموعات الامم مثيل

ومن تلك الاسباب ان جناب اللورد كرومر جاء مصر مرشدا فصار حاكما مستبدا يخرب مباني الآمال ويقيم على الجبال فكأنه لم يقتبس من نابليون الا قوله le le veux أي (أريد) وارادة كرومر في مصر يصدق فيها قول مادام ريموسات في ارادة نابليون قالت (كان اذا قال (أريد) دوى صدى عزمه فى جميع انحاء التويلرى » فكان جناب اللورد كرومر يمد يده من قصر الدوبارة الى سماء مطامعه ليدرك نجومها وهو فى تطلعه هذا

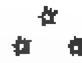
يغفل عن التقاط الازهار الكائنة بجانبه فيخسر هذه ولا ينال تلك.

انه لم يعط انكلترا في ٢٥ سنة ماطلبته وأملته منه . لان انكلترا لما احتلت مصر لم تعلن أنها تعطيها ثروة فقط بل صرحت أنها ترقى بها الى مصاف الامم الحية وان تهذبها حتى تودها هذه الامة وتحبها وتصير نصيرة لها في الشدائد . وهذا معتمدها يزايل مصر بعد ٢٥ سنة والامة المصرية مطرقة برأسها حيرانة بين أن تجاهر بنفرتها من سياسة الراحل ـ والادب يمنعها عن ذلك ـ و بين أن تشترك مع الاجانب في مظاهرات الاكرام والاعجاب ـ وكرامتها تحول دون مايريدون منها . فاذا أكرمه الاجانب فلانه أجزل لهم الخير وجعلهم سادة البلاد ولانه ختم حياته السياسية بعرض مشروع خطير مفيد لهم والغاية منه جعل أصحاب هذه البلاد تحت راية انكلترا بعد ان كانوا ضيوفها

لم يخدم اللورد الامة المصرية الامن جهة الثروة فاشترك في التنعم بها الاجانب بل نالوا القسط الاوفر منها ثم هو يريد أن يجعلهم أصحاب الامر والنهي فى ادارة مهام البلاد

يعود جنابه الى انكلترا فماذا يقول لملكه وحكومته وأمته ؟ لقد ذهب المارشال ناى من قبله وقال للويس الثامن عشر (سآتيك بنابوليون فى قفص من حديد) ولكنه لم يفعل وجناب اللورد قال لملكه وحكومته وأمته منذ عشرات من السنين (سآتيكم بمصر تحفة راضية خاضعة) ولكنه لم يفعل . انه باقراره الاخير يعود الى انكلترا فلا يقدر أن يقول الا هذا

ـ « بعد سياسة ٢٥ سنة لاتستطيعون أن تأمنوا على دوام نفوذكم في مصر الا اذا ضاعفتم السطوة وعززتم جبروت السلطة و زدتم جيش الاحتلال على الدوام وضربتم كل من عارضكم ضربة قاضية تخمد أنفاس الحرية التى منحتها صحف هذه البلاد غلطاً والغلط مردود على صاحبه »



من أول يوم تولى فيه اللورد كرومر سلطة الدولة الانكليزية وادارة مصالحها في مصر نظر الى الامة المصرية وقرر بعد تدبر قليل واختبار أقل ان هذه الملايين يجب أن تساس بالعنف وأن تساق بعصا من حديد . وظل هذا رأيه حتى الساعة الاخيرة من وجوده فى قصر الدوبارة فكان كلما ظهر له ان في البلاد أمة لها شيء من الحياة رفع سيف حدته وطعنها طعنة يريد

تقضى على آمالها

علم أن مصر في حاجة الى العلم فلم يبدأ بتعليمها الا في أواخر مدته وبطريقة لاتروى لها غلة . فحض الوجهاء على انشاء الكتاتيب الصغيرة واذا به يرى هذه الامة تطلب لنفسها علما أرقى وجامعة مصرية كبيرة فأعرض عنها واستعمل أتباعه للاشارة بطريقة هو غيرمسؤول عنها رسمياً الى أن قصر الدوبارة السياسى غير راض عن انشاء قصر علمي وطنى

في مصر نظارة للمعارف لكنها غير نافعة كما تقضي حاجته مصر لانها لاتجرى في نفعها على نمط يؤدى الى الخير الصحيح العام فان التعليم الذى يصل الى الاذن فقط هو من قبيل تمتع الرجل بطعام شهى ولكن حلماً فى نومه فاذا انتبه لايجد قوتاً أمامه ولا يجد من قوته العقلية مايدل على أنه أكل حقيقة

كان اللورد كرومر كل مدته فى مصر معارضاً لكل ماتريده مصر من مطالب الرقى الادبي فلم يؤيد لها طلباً منذ ٢٤ سنة ولاأحسن بها ظناً ولا رد عنها تهمة بل كان أول رجل مسموع الكلمة قال عنها قولا منكراً واتهمها بتهم غريبة وغرس في عقول أوروبا انها أمة قاصرة متعصبة ليس فيها رجال اكفاء ولاتصلح أن تكون أمة أبدا

قال عنه قومه انه (عين مصر وقلبها) وأصابوا كثيراً من حيث اهتمامه بمصلحة دولته وقومه فهو لم ينظر الى مصر مرة الا ليزيد قيودها شدة ولا شعر بانعطاف اليها الا ليزيدها دنواً من العبودية لحكومته وقومه

وأى دليل يريده الناس منا على قلة انصافه لنا أعظم من اتخاذه ذلك الكتاب الذى لا امضاء له واعتماده عليه وجعله من المحررات الدولية الرسمية التاريخية وتسجيله بواسطته ان الامة المصرية لاوطنية لها وانها متعصبة لدينها تعصبا مضرا بالمسيحيين

فهل يستغرب منصف بعد هذا ان الامة المصرية لاتقيم له التماثيل والولائم

ولكن جناب اللورد يعلم من الاحوال الحاضرة ان عقلاء هذه الامة التى أساء كثيرا اليها فى جملة احساناته يرون من الحكمة أن يحسنوا وداعه وتشييعه ولذلك هم يتظاهرون أفرادا بما يقضى به الذوق والادب

لم يعلم جناب اللورد مع سعة اختباره ان العنف كالعاصفة الشديدة يزيلها المطر وأما

الرقة واللين فانهما كالمطر الخفيف يصل الى الاعماق فينعش كل غرسها بالحياة التى تنمو مادام السحاب يتعهدها برزازة المفيد . الا أننا كنا نودأن يبرح جناب اللورد القطر المصرى مودعا من مجموع الامة وقد كان ذلك سهلا جدا لو أراد أن يكون وابلا نافعا لارعدا قاصفاً

(المؤيد في ٩ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ـ ٢٢ ابريل سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٤٦)

٢

السياسة الثابتة وكيف تكون

اتفقت الدول الاوربية المستعمرة الآن في الشرق على دعوى واحدة كل يدعيها وكل يقول انه محسن فيها عملا

أما الدعوى فهى انهم يقولون اننا نحكم الشرق لخير أهله . وأما الاحسان ففيه شك لان طرق الحكم مختلفة بينهم الى درجة التباين فى المقدمات والنتائج

وعلى قواعد هذه الدعوى احتل الانكليز مصر لخير أهليها كما أعلنوا ذلك مرارا وهم يقولون حينا فحينا اننا موجودون لتحسين أحوالها من كل وجه واننا نعد المصريين ونؤهلهم لحكم أنفسهم علما وعملا

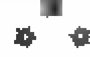
وقد مضى على هذا القول ربع قرن والانكليز يعملون وفي أيديهم كل القوى والسلطات وتحت أمرتهم كل الموظفين المصريين حتي النظار أنفسهم سامعون مطيعون لما يأمرون

فأما آثار عمل الاحتلال فقد ظهرت فى كل مايفيد الوصاية و يظهرها تامة لاشك فيها . ظهرت بأن الآمر والناهى انكليزى والمأمور في الحالتين مصرى ولكنه مسلوب الارادة لايستطيع أن يقول ولا أن يفعل غير مايقولون

ظهرت آثاره فى تحسين كثير من شؤن البلاد كما ظهرت في ملاشاة أهلية العمال المصريين التى كانت نتيجة قوة الضغط عليهم واعتبارهم مجرد آلات تتحرك ولا تريد

فبعد خمس وعشرين سنة تقدمت البلاد كثيرا وتأخر أهلوها أكثر في باب اعدادهم لحكم أنفسهم . وهاهو اللورد كرومر مزمع أن يفارق وادى النيل الفراق الاخير وليس بين ضفتيه من يمارى في هذه الحقيقة التى سيراها خلفه المقبل ناصعة ولكننا لانعلم ماهى

سياسته في هذا الضرب من الاصلاح الذى هو كل مايطلب المصريون



على انهم يقولون ان استبدال اللورد كرومر بالسير غورست لايغير شيئاً من سياسة انكلترا في مصر وغاية مافى الامر كما قال اللورد في خطبته التى ألقاها في يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٠٥ بمناسبة الاحتفال بفتح ميناء (بورسودان) ان انكليزيا يذهب وآخر يأتى مكانه . بل اتفقت الروايات كلها على ذلك حتى الآن وصرح بذلك السير ادوارد غراي ناظر الخارجية الانكليزية لسان حزب الاحرار الرسمى كما صرح بمثله المستر بلفور رئيس حزب المحافظين ولحنت جرائد انكلترا هذه النغمة على ضروب شتى

آمنّا بالله وباليوم الآخر . وبأن سياسة انكلترا ثابتة لاتتغير . ولكن ماهى هذه السياسة الثابتة ؟ ؟

فقد بدأ الاحتلال بوعد صريح في انه مؤقت وسينقضى متى استعدت البلاد لان تحكم نفسها . وتلا ذلك الاعلان بأنهم عاملون مجدون لترقية أهلها لأن يتولوا شؤونهم بأنفسهم وبعد ثلاث عشرة سنة من الاحتلال أى في سنة ١٨٩٥ قال اللورد كرومر في تقريره عن مصر « ان القاعدة الاساسية التى بنا عليها الاصلاح فى مصر يمكن تلخيصها فى كلمة واحدة هى « رأس أوربيه وأيد مصرية . فان الواجب علينا هنا أن لانحكم المصريين بل نعلمهم بقدر مانستطيع أن يحكموا أنفسهم » اه

وبعد اثنتى عشرة سنة أخرى أى ربع قرن من يوم بدأ الاحتلال في السياسة انتهى عهد اللورد كرومر بأقوال غامضة في ذلك ولو أراد أن يلخص قاعدة عمله الذى جرى عليه وانتهى اليه الآن لقال « رأس وأيد انكليزية وأرجل مصرية »

فما الذى يريدونه اذن من كلمة « السياسة الثابتة » وما يعنون بهذه الكلمة ؟ ؟ هل يعنون ماصرحوا به مرارا وتكرارا وجعلوا شرف بريطانيا العظمى رهن انفاذه ؟ أو يعنون بها سياسة اللورد كرومر الذى عكس آية ذلك الوعد الشريف الى ضد مغزاه فيما يتعلق بتربية المصريين وتعليمهم حكم أنفسهم ؟ . أو يقصدون بها خليط الآراء الغامضة والافكار المختلطة التى ضمنها وصيته الاخيرة في تقريره الاخير

خليق بانكلترا أن توقفنا على حقيقة ما تريد من تلك السياسة التي لا تتغير . وسواء كان غرض الانكليز الاستيلاء على مصر أو اصلاحها ماديا وافسادها أدبياً لتبقى وصايتهم الى الابد أو اصلاحها حقيقة . ومنحها الاستقلال الادارى فالناس يتساءلون كيف تكون تلك السياسة الثابتة ؟

أنت تقدر اذا رأيت بيت انسان متهدما وهو غني أن تزين له اصلاحه و بنيانه . وتقدر اذا كان سيء الادارة أن تنصحه كصديق الى حد الارشاد القوي . وتستطيع بعد ذلك أن تزعم انه سفيه وترفع أمره الى المجلس الحسبي بصفتك أقرب أصدقائه اليه وأغيرهم على مصلحته واعلقهم بها لمناسبات عائلية اومعاملات مالية . تقدر ان تصل الى غرضك كله بالحسنى ومظاهر الغيرة الشريفة و يساعدك على الوصول لغايتك كثيرون من الناس الذين يصدقون دعواك ودلائلها . ولكن اذا ظهر بعد بلوغك مطلبك انك راغب في اعدام اهليته و رشده الى الابد كنت في كل اعمالك بمثابة طامع مغتصب غير مشكور و على غيرتك الاولى وغير مصدق في كل ماتدعيه اخيرا

بل أنت تقدر أن تأخذ من انسان ألف جنيه باسم عمل خيرى بواسطة المحاسنة والتشويق المؤثر الى فعله . ثم تقدر وأنت قوي مستبد أن تأخذها منه بعد أن تكدره وتهينه لاي غرض كان

ولكن في عملك الاول تكون مشكورا وفى عملك الثانى تكون مشكوا ولو لم تأخذ من الالف الا عشر معشارها

فهبوا أن الامة المصرية كانت غير رشيدة يوم احتلال انكلترا هذه الديار . وهبوا أنهم يعملون بأموالها الخير لمصلحتها فقط . ولكن ألا توجد طريقة غير طريقة سحق الاهلية الذاتية تحت مواطىء الاقدام . ألا توجد وسائل حسني يمكن أن يؤخذ بها مال الانسان للخير وهو راض بأخذه ؟؟ .

يقولون ان سياسة انكلترا المبنية على الاخذ والاستمرار فيه ثابتة . فهل الاخذ باللين واللطف والاخذ بالشدة والعنف يستويان ؟؟

يقولون ان سياسة انكلترا ثابتة فهل يلزم من ذلك أن تكرر أغلاط معتمدها السابق

على يد معتمدها الجديد ؟؟

لقد كان في وسع انكلترا أن تكون بعد مضي ربع قرن من الزمان على احتلالها وادى النيل أفضل دولة لدى المصريين وأن تكون أمة محبوبة وأن تجمع قلوب الاهالى حولها ولكن اللورد كرومر الذى تاريخه فى مصر مقرون بتاريخ الاحتلال أوهو الاحتلال كله لم يردالا أن يترك مصر على حالتها الحاضرة غنية بالاموال في ظاهرها المعروف فقيرة فقرا محزنا من العدة الادبية التى كانت تستطيع أن تقدر بها هذا الرجل الجليل حق قدره

نحن مع كل ما أبدينا في مقالاتنا الماضية من شعائر اكرام الرجل وتقدير أعماله حق قدرها ليس في وسعنا ونحن نبحث الآن بحث المؤرخ ونكتب كما يعطى المصور رسمه ألوانه الحقيقية الا أن نصرح بحقائق جارحة فنقول كلما ذكرت مصر فضل اللورد عليها في الماديات ذكرت اساءته لها فى الادبيات .حتى قالت « الجريدة »التى هى من عمل أقرب الناس مودة للورد كرومر يوم جاء نبأ استقالته مانصه بالحرف الواحد

« ولئن ذكر المنصفون من المصريين تقدما لمصر في أحوالها المالية والاقتصادية فانما يذكرون اللورد كرومر الذى كان أكبر مساعد على الوصول لهذه الغاية كما أننا نرى أيضا أن حالة مصر الاجتماعية السياسية في عهده لم تزد الا ابتعادا عن التحسين الذى كان يؤمل أن يتم على يد الحكومة الانكليزية وفاء بعهدها للمصريين من تاهيلهم للاستقلال بحكومة بلدهم» اه

بل كلما ذكرت فضل اللورد من تلك الوجهة المادية ذكرت الآن انه طعن على مبادئها . وانه يحاول أن يقنع أوربا عموما وانكلترا خصوصا بأن هذه الامة الاسيفة قضى عليها سوء حظها وخبث طبيعتها وجود عقيدتها بداء العقم الابدى فلا تستطيع عملا صالحا فى المستقبل حتى تحلم بالاستقلال . بل اذا ذكرت ذلك الفضل ذكرت أشياء كثيرة لا نفيض فيها القول لاسباب جمة

فهل تنوى انكلترا أن تكرر هذه الاغلاط على يد معتمدها الجديد بحجة ان سياستها ثابتة لا تتغير؟

ان الله عز وجل خالق هذا الكون هو الذى يغير ولا يتغير وهو عليم بذات الصدور

(المؤيد في ١٠ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ــ ٢٣ ابريل سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٤٧)

٣

اختراعات قصر الدوباره

ا التعصب والقلق

ب الجامعة الاسلامية

ج عدم كفاءة المصريين

ليسمح لنا جناب اللورد كرومر أن نضع هـذا العنوان على مانكتب في هذا الموضوع لان الوكالة البريطانية التى شعارها الرسميات والاخبار الصحيحة قد تنزلت أخيرا الى اختراع تهم شائنة للمصريين لانصيب لهـا من الصحة ووجهت لشخص الامة سهاما جارحة كثيرة الاذى . ولو اتفق جميع أعداء المصريين على ايلامهم أشدالايلام مااستطاعوا أن يؤذوهم بمثل ماآذاهم به اللورد فى الاشهر الاخيرة

ولو كان مارمى المصريين به جناب اللورد قـد جاءه من قبيـل غلط الحس أو خطأ الفكر كما يحصل مثل هذا كثيراً في المباحث الاجتماعية لهان الامر على المصريين وقالوا . . أجنبي لايعلم لغة البلاد ولم يختلط بأهليها اختلاطا يمكنه من معرفة الحقائق مهما طال لبثه فيها خليق بأن تلتمس له الاعذار

ولكن تلك التهم خلقت على مايعرف الخبيرون لغاية معلومة وأسوأ مافيها أنها صدرت عن رجل ذى مكانة عظيمة وكلمة مسموعة لدي قومه وسائر الامم الغربية فأذاها مضاعف وضررها عظيم

⁂

حدثت حادثة دنشواى المحزنة وتلاها ذلك التمثيل الفظيع فصاح أحرار الانكليز في البرلمان صيحة أفزعت قلب اللورد وبلبلت لسان السير ادواردغراى فلم يجد الاول مايسكن ثائرة الانفس عليه وعلى أعوانه سوى أن يلقن الثانى أن المصريين علي يقظة تعصب خطير يخشى من شره حتى علي شمال أفريقيـة المعرضـة لعدواه من مصر فنادي ناظر الخارجية بذلك وسط البرلمان حتى انتفخت أوداجه ولـكنه زاد فى هذه النغمة حتى راب قومه ف

ن التهمة مصطنعة لغرض اسكاتهم فقط

وقد أنكر المصريون عن بكرة أبيهم حتى النزلاء بينهم هذه اللهجة المسيئة ورددت لتلغرافات صدى ذلك الانكار الى بلاد الانكليز حتى دوى صداه في ارجاء البرلمان فعدل وزير الخارجية عن كلمة « التعصب » الى كلمة « القلق » والآن قد توج اللورد كرومر نلك التهم بأخطر منها وهو اعلانه ان المصريين مجردون عن الكفاءة الطبيعية ومصابون بداء عقم أبدى منشؤه كما قال في موضع آخر الجمود الدينى الذي يقف باهله الى ماقبل الف سنة للوراء لذلك لايمكن أن يكونوا يوما مارجالا أكفاء لادارة شؤونهم فى المستقبل

فعن التعصب والقلق نقول

اذا كانت للمصريين صفة تميزهم عن بقية الامم الشرقية فانما هى صفة التساهل الدينى الذى جعلهم على اختلاف مذاهبهم متجاورين منذ الفتح الاسلامى فى المنازل مشتركين في المنافع متضامنين في الاعمال متبادلين الشعائر فى السراء والضراء وقد مرت على المصريين المختلفى العقائد ثلاثة عشر قرنا اختلفت فيها صفات الحاكمين من عدل وجور ورحمة وقسوة يشربون من معين واحد ويأكلون على مائدة واحدة وان حفظ التاريخ لبعض الطغاة الجبارين من الحكام المسلمين ادارة عسوفة فانما كان هؤلاء جبارين على الكل بعيدين عن العمل بالدين الحنيف الذي أوصى بالقبط خيراً والذى جعل عهد الفرد الواحد للقبيلة الكاملة من أهل الكتاب عهداً على الكل وفي ذمتهم وعليهم تبعته

وها قد مضي على الاحتلال نحو ربع قرن من الزمان لم يستطع أن يسجل فيه على المصريين حادثا عظيما بين مختلفى الدين منشؤه اختلاف الدين كما يحصل مثل هذا في الهند وكما حصل فى سوريا قبل بضع وأربعين سنة وكما حصل في كثير من الممالك الاوربية فى أرمنية ليست ببعيدة وحتى الآن وهذه حوادث اليونان والبلغار ورومانيا من أجل الدين من أفظع الحوادث . وليس لاحد أن يزعم ان هذا السلام الشامل مستقر بفضل قوة الاحتلال لان التعصب الدينى الكامن اذا انفجر لاتصده القوة رابضة بجانبه بل تحرشه فى كثير من الاحيان

ولكن الذى يظهر لنا من تهمة جناب اللورد كرومر المصريين بالتعصب الدينى انه

لما لم يجد في هذه الامة استعدادا لثورة في الافكار والاشخاص تساعده على قضاء البلا
الاخيرة من مصر وقد حرج صدره من أهليها وحكومته تجاهر بأنها لاتنوى ضم مصر
اليها ــ عمد الى اختراع تهمة التعصب على المصريين فقال انه كامن في قلوبهم وقد انفجر
الآن . والله يعلم والانام شهود أن المصريين لم يضمروا يوما ما شرا لمحتل أو نزيل و
يغفلوا عن واجبهم الذى يقضى عليهم بالسكون حتى لاتتخذ حركتهم سببا لانقلاب سياسي
يقضى على آمالهم فى المستقبل

ولما ورد نبأ تلك التهمة فى الصيف الماضى نشر المؤيد سلسلة آراء لسراة البلاد وأعيانها
ونزلائها كلها داحض ومكذب لها .

فقد قال السيد عمر مكرم « اننا لم نر شيأ يدل على وجود التعصب في مصر »

وقال الشيخ محمد بخيت « التعصب غير موجود في مصر ولا يعول على الرعاع وأما
العقلاء فلا يمكن أن يشتم الانسان منهم أقل دليل على وجوده »

وقال باسيلي باشا تادرس « لا صحة لما يقال من وجود التعصب الدينى والجنسي
فى مصر »

وقال شكور باشا « انى أفضل أن أمشى وحدى ليلا في جهات السيدة زينب والنحاسين
على أن أمشي وحدى ليلا في جهات مونمارتر بضواحى باريس »

وقال محل صدناوي التاجر الشهير « ان بقاء الحالة التجارية على حالها أعظم دليل
على عدم وجود التعصب » .

وقال اسكندر بك عمون « الامة المصرية أقرب الامم الى التمدن الصحيح والمصرى
أكثر اكراما للغريب من سائر الشعوب »

وقال الخواجا ميماراكى « أشهد انى ماشعرت قط في معاملاتى مع المصريين باننى أعامل
اناسا يخالفوننى في العقيدة والمذهب فما هو التعصب والحالة هكذا »

وقال وكيل بنك الكريدى ليونيه يومئذ « أننا لم نشعر بشئ من التعصب الذى
اتهمت به الامة المصرية اللهم الا اذا كان التعصب موجودا فى غير الدائرة التي تصل اليها
معاملات البنك ــ وهى القطر كله »

وقال الدكتور شميل « ان التعصب غير موجود فى مصر على الاطلاق »

مع كل هذه الشهادات من المصادر المختلفة ومن الطبقات المختلفة أبى اللورد كرومر الا أن يكون التعصب موجودا فأوهم انكلترا وأوربا أن مستشار نظارة الاشغال لايقدر أن يفتح شارعا فى مدينة ولا أن يشق ترعة في أرض ولا أن يبنى قنطرة على مجرى ماء وأن مستشار الداخلية لايمكنه أن يضبط واقعة ولاأن يحقق رجاله قضيةالا اذا كان حوله الجيش الانكليزى ولذلك طلب أن يزاد على نفقة مصر فزادوه وهم الآن يتقاضون أجر هذه الزيادة وكل هذا لان المصرى شديد التمسك بدينه الى حد المغالاة فهو متعصب فتاك لايصده عن نهب جاره المسيحي وقتل نزيله الاوروبى الاوجود الجنرال بولوك فى شارع قصر الدوبارة وفرقة المدفعية الراكبة والدراغون فى العباسية والبوليس الفرسان وحرس المدفعية في القلعة وسائر الفرق الموزعة في القاهرة والاسكندرية وبعضهم كان يطلب أن ترسل فرق جديدة الى مدن أخرى . والناس يعلمون أن كثيرا من هؤلاء الشبان في جيش الاحتلال لاعمل لهم فى مصر الا أنهم ينامون نهارا و ينطلقون ليلا الى التهادى في الشوارع والطواف بحانات المسكرات على حالة يعرفها الجنرال بلوك أكثر من كل أحد

وعن الجامعة الاسلامية

لم يكتف اللورد بما غرسه في اذهان قومه وحرش به الاوروبيين المستعمرين فى شمال افريقيا بما زعم من سريان عدوى التعصب من مصر اليه حتى قام يدعو الاوروبيين الى جامعة صليبية بدعوى أن المصريين يؤسسون (جامعة اسلامية) فسرها لقومه بأنه يراد بها « اتحاد المسلمين فى العالم أجمع لمقاومة الدول المسيحية ومناجزتها العداء وأنه يقتضى لذلك أن تتدبرها جميع الامم التى لها فى الشرق مصالح سياسية لما يخشى أن يكون من ورائها ثورات يكون منشؤها التعصب في بعض الاقطار » اه

هذا ماقاله جناب اللورد في تقريره الاخير بالحرف الواحد تصويرا للمعنى الذى تخيله لمظاهر الوطنية المصرية الموجودة الآن على غير مايحب ويتمنى ويظهر من مغزى كلام اللورد في هذا الصدد أنه لم يكن يقطع بهذا التفسير لولم تحصل حوادث الصيف الماضي التى قال أننا بها أوشكنا ان نكون على باب ثورة كبري . فاللورد في كلامه عن التعصب

والقلق والجامعة الاسلامية أشبه بالنفاثين في العـقد يعتمد على سلطان الوهم الذى يغلب
الاور بيين من ناحية المسلمين فى كل مايقال عن تعصبهم ونتائجـه . وهو مع كونه قال
مستعد أن يقيم الادلة على صحة ما يقول عاجز عن أن يقيم دليلا واحدا صحيحاً . فاذالم
مخترعا لهذه التهم الثلاث لتلك الغاية السياسية التى لا تخفي على أحد فهو مخدوع فيها الى در
لا تنطبق على صفات رجل يحسب اليوم فى الطبقة الاولى من عظماء الرجال وخصوصا لا
قضى في مصر التى يتحدث عنها بهذه التهم الباطلة نحو ربع قرن قابضاً فيها بيده على صولج
الملك والسلطة قولا وفعلا .

ليس في مصر أساس لعمل جامعة اسلاميـة تجمع الامم الاسلامية على مبـدأ واحد
ولكن في مصر جرائد أصحابها مسلمون ميالة الى نشر الاخبار التي تبلغها عن مسلمي الا
الاخرى ميل الصحف القبطية الى نشر أخبار الحبشة وروسيا والصحف التي أصحابه
الكاثوليك الى أخبـار الامم التى على شاكلتها وهكذا الخ . فان كان اللورد يسمى هـ
الميل « جامعة اسلامية » فنحن نهنئـه على اكتشافه العظيم ولكننا نعتبر تحـذيره الد
النصرانية ودعوته اياها الى اليقظة ضد المسلمين عدوانا عظيما على هؤلاء

وان كتابته مثل هذا في تقرير رسمى باسم معتمد ونائب جـلالة الملك ادوارد المع
في مصر ليس من مصلحة انكلترا في شئ لانه بتلك الدعوة نفسها ينبه عواطف المسلم
في العالم الى كراهية انـكلترا ويعمل للجامعة الاسلامية بالمعنى الذى حاول اثباته اضعا
مايعمل كل دعاة الاسلام لو أرادوا الى مثله

ولـكن يظهر من كل سطور التقرير الاخير للورد أن قصر الدوبارة أراد باختر
تلك التهم الواردة من مصر والمصريين فى وقت غلت فيه قدر حقده عليهم . فمـا أشره
نواب الملوك أن يكونوا منزهين عن صفات الحاقدين المنتقمين

وعن عدم كفاءة المصريين

بنى اللورد حكمه على عدم كفاءة المصريين الذاتية لان يتولوا شؤنهـم بأنفسهم م
ارتقوا على قاعدتين . الاولى أن عقل الشرقى من حيث هو شرقى غريب فى شكله وتصو
وذكر لهذه القاعدة شاهدا عبارة ذكرها الاستاذ (سايس) قال فيها مايأتي

« ان من أقاموا فى الشرق وحاولوا أن يختلطوا بأهـله يعرفون حق المعرفة بأنه من المتعذر على الاوربى كل التعذر أن يرى العـالم بالعين التى يراه بها الشرقى . نعم الاوربى في خلال اقامتـه القصيرة يذهب به الفكر بادئ بدء الى أنه يتمـاهم مع الشرقى فيرى أنه يكلم رجلا له عقل غريب الشكل كعقل ساكن زحل » اه

وروى اللورد عن اختباراته هو أنه لايكاد يحدث رجلا من أرقى طبقات المصريين الذين يفتخر بصداقتهم حتى يجمع بين المتناقضات في حديثه قال ولذلك تراني لا أسترسل فى تقدير آراء الشرقي ولا أحفل بتناقضه. وأن العادة فى الدفاع عن خطتين متباينتين كلتاهما تناقض الاخرى هى القاعدة العامة لا الشاذه في مصر »

والقاعدة الثانية جمود دين المسلمين فيمصر والدين غالب على مزاجهم غلبة تامة . لان هذا الدين هو « عبارة عن مبادي وضعت منذ ألف سنة هديا لهيئة اجتماعية في حالة الفطرة والسذاجة وهذه المبادئ منها مايجيز الرق ومنها مايتضمن سننا وشرائع عن علاقات الرجال والنساء مناقضة لآراء أهل هذا العصر ومنها مايتضمن أمرا أهم من ذلك كله وهوافراغ القوانين المدنية والجنائية والملية فى قالب واحد لايقبل تغييرا ولا تحويرا وهـذا ما أوقف تقدم البلدان التى دان أهلها بدين الاسلام » اه

قاعدتان صيغت احداهما من كلمة خالية للاستاذ سايس وصيغت الثانية من جهالة ظاهرة بروح الشريعة الاسلامية . وقد يكون لذلك الاستاذ العذر في أنه حكم على الشرق باستقراء ناقص وفي وسط غامض عليه . وقد يكون للورد العذر بأنه لايعلم من أمر الشريعة المحمدية الا روايات محرفة عنه

وليس المقام مقام مؤاخـذة اللورد على غلطه الفاضح فى الحكم على الدين الاسـلامى خصوصا وان كلاما مثل الذى قاله عنه مما لايعبأ به وكان أجمل له لوتجنب الخوض فيه بمثل هذا الشطط

ولكن المقام الآن مقام مؤاخـذة على ذلك الحكم الجـائر على اسـتعداد المصريين ووصفهم بعدم الكفاءة الابدية

ان الامة المصرية أكبر من أن يحكم عليها عقل رجل مهما كان عظيما . خصوصاً وان

عقل هذا اللورد قد وضع منذ بضع وعشرين سنة فى قالب مخصوص لينمو فيه نموا مخصوصا راميا الى غاية مخصوصة . وقد حصر هذا العقل أيضا في سبيل نظره الى المصريين بين آذان تسمع الروايات المحشوة بالغايات والاغراض والوشايات الملفقة على المصريين من بعض أعدائهم . فحكمه من هذا القبيل قابل للنقض والتفنيد . واننا مهما بالغنا فى التأدب مع جناب اللورد لا يمكننا الا أن نقول انه مخطىء فى ذلك الحكم خطأ عظيما ومسيء للامة اساءة لا يمكن أن تنسى مادام اسمه مذكورا وستكون درجة هذه الاساءة بقدر تأثير هذا الحكم على مستقبل مصر فى سياسة انكلترا التى تتبعها بعد

اننا رأينا اللورد في كثير من المواقع أطرى كفاءة المصريين عند ما كان في هذا الاطراء دفاع عن سياسة خاطئة فقد بالغ في مدح الاشخاص الذين كان لهم عمل في حادث دنشواى من قضاة ومحامين وبالغ في وصف كفاءتهم . وهو كثيرا مايذكر بالمدح الزائد في تقاريره بعض الاشخاص المصريين الذين يريد اطراءهم لغرض سياسى فهل كان هؤلاء من غير المصريين ومن غير المسلمين ؟ ؟ وكان مخطئا فى حكمه لهم

الكفاءة انما يحكم عليها بعد الاختبار وانما يحكم عليها بقدر الاشخاص الذين اختبروا فلو فرض أن اللورد جعل مصالح الحكومة المصرية مدارس للموظفين يتنقل بهم فى درجاتها ابتدائية وتجهيزية وعالية ثم كشف الامتحان الاخير عن فشلهم وسقوطهم لما جاز له بوجه من الوجوه أن يحكم بسقوط الذين دخلوها علي الامة كلها بالقصور الذاتى والجمود الطبيعي فقد يجوز أن يكون ثمت عيب كبير فى طريقة التعليم كما يجوز أن يكون هؤلاء الاشخاص بعينهم منحطين في استعدادهم الذاتى . ومن الظلم المهين أن يتناول هذا الحكم الامة بمجموعها

على ان سياسة اللورد في مصر جرت على نمط آخر . نمط يعطل ذكاء المصريين ويحول بينهم وبين الترقي الذى هم مستعدون له بطبيعتهم كمال الاستعداد . ذلك النمط هو ابعاد المصرى عن كل الوظائف العالية واحتلالها على التوالى بأبناء التاميز . وكلما وجدت وظيفة ذات مسؤلية وعمل ولو كانت وسطي أو أقل من الوسطي خص بها الانكليزى وضوعف مرتبها لتكون لائقة له من كل وجه . وقد أطردت هذه السياسة في جميع المصالح حتى لاترى اليوم مصريا عاملا الا ماشذ عن القاعدة . و زحف شبان الانكليز الآن الى

الوظائف الصغري أيضا في بعض المصالح بمسوغات يخترعونها . فالتمرين اذن مفقود والاعداد لكل عمل طريقة التمرين .ان اللورد أبعد أبناء مصر عن ميدان العمل الصحيح والاختبار المفيد ثم حكم عليهم بعدم الكفاءة

هل أمكن الماجور افلن بارنج أن يجد نفسه اللورد كرومر فجأة و بدون عمل واختبار مع أنه لم يصر كذلك الا بعد مضى الاعوام الطوال يعمل عمل القادر المريد الذي يساعده نفر من قومه وتعضده دولة من أقوى الدول في العالم وتغضي عن هفواته فلم ير له محاسبا عليها بينما أهل مصر يفقدون كل يوم وسيلة من وسائل الارتقاء فى الكفاءة الشخصية

والخلاصة أن قصر الدوبارة اخترع تهمة التعصب الدينى والقلق السياسى . واخترع الجامعة الاسلامية ونسب كل ذلك الى طبيعة البلاد أولا والجمود الدينى ثانيا . و بنى على ذلك كله عدم كفاءة المصريين الى الابد مع أن القاعدة الصحيحة الاساسية فى الممالك أن الدين والملك اخوان لاغنى لاحدهما عن الآخر . فالدين أس والملك حارس . والبناء اذا لم يكن له أس مهدوم والملك مالم يكن له حارس ضائع . ولكن اللورد غضب على المصريين فنسى القواعد الاساسية فى سياسة الامم ومثل دين المصريين فى صورة وحشية هائلة يخشى منها على المدنية فأساء الى المصريين فى دينهم وفي مبادئهم وفي كفاءتهم وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(المؤيد في ١١ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ـ ٢٤ ابريل سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٤٨)

خليق بانكلترا أن توقفنا على حقيقة ماتريد من تلك السياسة التي لاتتغير . وسواء كان غرض الانكليز الاستيلاء على مصر أو اصلاحها ماديا وافسادها أدبيًا لتبقى وصايتهم الى الابد أو اصلاحها حقيقة . ومنحها الاستقلال الاداري فالناس يتساءلون كيف تكون تلك السياسة الثابتة ؟

أنت تقدر اذا رأيت بيت انسان متهدما وهو غني أن تزين له اصلاحه و بنيانه . وتقدر اذا كان سيء الادارة أن تنصحه كصديق الى حد الارشاد القوي . وتستطيع بعد ذلك أن تزعم انه سفيه وترفع أمره الى المجلس الحسبي بصفتك أقرب أصدقائه اليه واغيرهم على مصلحته واعلقهم بها لمناسبات عائلية اومعاملات مالية . تقدر ان تصل الى غرضك كله بالحسنى ومظاهر الغيرة الشريفة و يساعدك على الوصول لغايتك كثيرون من الناس الذين يصدقون دعواك ودلائلها . ولكن اذا ظهر بعد بلوغك مطلبك انك راغب في اعدام اهليته و رشده الى الابد كنت في كل اعمالك بمثابة طامع مغتصب غير مشكور على غيرتك الاولى وغير مصدق في كل ماتدعيه اخيرا

بل أنت تقدر أن تأخذ من انسان ألف جنيه باسم عمل خيري بواسطة المحاسنة والتشويق المؤثر الى فعله . ثم تقدر وأنت قوي مستبد أن تأخذها منه بعد أن تكدره وتهينه لاي غرض كان

ولكن في عملك الاول تكون مشكورا وفي عملك الثاني تكون مشكوا ولو لم تأخذ من الالف الا عشر معشارها

فهبوا أن الامة المصرية كانت غير رشيدة يوم احتلال انكلترا هذه الديار . وهبوا أنهم يعملون بأموالها الخير لمصلحتها فقط . ولكن ألا توجد طريقة غير طريقة سحق الاهلية الذاتية تحت مواطيء الاقدام . ألا توجد وسائل حسني يمكن أن يؤخذ بها مال الانسان للخير وهو راض بأخذه ؟ ؟ .

يقولون ان سياسة انكلترا المبنية على الاخذ والاستمرار فيه ثابتة . فهل الاخذ باللين واللطف والاخذ بالشدة والعنف يستويان ؟ ؟

يقولون ان سياسة انكلترا ثابتة فهل يلزم من ذلك أن تكرر أغلاط معتمدها السابق

على يد معتمدها الجديد ؟ ؟

لقد كان في وسع انكلترا أن تكون بعد مضي ربع قرن من الزمان على احتلالها وادى النيل أفضل دولة لدى المصريين وأن تكون أمة محبوبة وأن تجمع قلوب الاهالى حولها ولكن اللورد كرومر الذى تاريخه فى مصر مقرون بتاريخ الاحتلال أوهو الاحتلال كله لم يردالا أن يترك مصر على حالتها الحاضرة غنية بالاموال في ظاهرها المعروف فقيرة فقرا محزنا من العدة الادبية التى كانت نستطيع أن تقدر بها هذا الرجل الجليل حق قدره

نحن مع كل ما أبدينا في مقالاتنا الماضية من شعائر اكرام الرجل وتقدير أعماله حق قدرها ليس في وسعنا ونحن نبحث الآن بحث المؤرخ ونكتب كما يعطى المصور رسمه ألوانه الحقيقية الا أن نصرح بحقائق جارحة فنقول كلما ذكرت مصر فضل اللورد عليها في الماديات ذكرت اساءته لها فى الادبيات .حتى قالت « الجريدة »التى هى من عمل أقرب الناس مودة للورد كرومر يوم جاء نبأ استقالته مانصه بالحرف الواحد

« ولئن ذكر المنصفون من المصريين تقدما لمصر في أحوالها المالية والاقتصادية فانما يذكرون اللورد كرومر الذى كان أكبر مساعد على الوصول لهذه الغاية كما أننا نرى أيضاً أنحالة مصر الاجتماعيةالسياسيةفيعهدهلم تزد الاابتعادا عنالتحسينالذى كان يؤمل أن يتم على يدالحكومة الانكليزية وفاء بعهدها للمصريين من تاهيلهم للاستقلال بحكومة بلدهم» اه

بل كلما ذكرت فضل اللورد من تلك الوجهة المادية ذكرت الآن انه طعن على مبادئها . وانه يحاول أن يقنع أوربا عموما وانكلترا خصوصا بأن هذه الامة الاسيفة قضى عليها سوء حظهاوخبث طبيعتها وجمود عقيدتها بداء العقم الابدى فلا تستطيع عملا صالحاًفى المستقبل حتى تحلم بالاستقلال . بل اذا ذكرتذلك الفضل ذكرتأشياء كثيرة لانفيض فيها القول لاسباب جمة

فهل تنوى انكلترا أن تكرر هذه الاغلاط علي يد معتمدها الجديد بحجةان سياستها ثابتة لاتتغير؟

ان اللهعز وجل خالق هذا الكون هوالذى يغير ولايتغير وهو عليم بذات الصدور

(المؤيد في ١٠ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ــ ٢٣ ابريل سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٤٧)

٣

اختراعات قصر الدوباره

ا التعصب والقلق

ب الجامعة الاسلامية

ج عدم كفاءة المصريين

ليسمح لنا جناب اللورد كرومر أن نضع هـذا العنوان على ماكتب في هذا الموضوع لان الوكالة البريطانية التى شـعارها الرسميات والاخبار الصحيحة قد تنزلت أخـيرا الى اختـراع تهم شائنة للمصريين لانصيب لهـا من الصحة ووجهت لشخص الامة سهاما جارحة كثيرة الاذى . ولو اتفق جميع أعداء المصريين على ايلامهم أشدالايلام مااستطاعوا أن يؤذوهم بمثل ماآذاهم به اللورد فى الاشهر الاخيرة

ولو كان مارمى المصريـين به جناب اللورد قـد جاءه من قبيـل غلط الحس أو خطأ الفكر كما يحصل مثل هذا كثيراً في المباحث الاجتماعية لهان الامر على المصريين وقالوا . - أجنبي لايعلم لغة البلاد ولم يختلط بأهليها اختلاطا يمكنه من معرفة الحقائق مهما طال لبثه فيها خليق بأن تلتمس له الاعذار

ولكن تلك التهم خلقت على مايعرف الخبيرون لغاية معلومة وأسوأ مافيها أنها صدرت عن رجل ذى مكانة عظيمة وكلمة مسموعة لدي قومه وسائر الامم الغربية فأذاها مضاعف وضررها عظيم

***

حدثت حادثة دنشواى المحزنة وتلاها ذلك التمثيل الفظيع فصاح أحرار الانكليزفي البرلمان صيحة أفزعت قلب اللورد و بلبلت لسان السير ادواردغراى فلم يجد الاول مايسكن ثائرة الانفس عليه وعلى أعوانه سوى أن يلقن الثانى أن المصريين علي يقظة تعصب خطير يخشى من شره حتى علي شمال أفريقيـة المعرضـة لعدواه من مصر فنادي ناظر الخارجية بذلك وسط البرلمان حتى انتفخت أوداجه ولـكنه زاد فى هذه النغمة حتى راب قومه فى

أن التهمة مصطنعة لغرض اسكاتهم فقط

وقد أنكر المصريون عن بكرة أبيهم حتى النزلاء بينهم هذه اللهجة المسيئة ورددت التلغرافات صدى ذلك الانكار الى بلاد الانكليز حتى دوى صداه في ارجاء البرلمان فعدل وزير الخارجية عن كلمة « التعصب » الى كلمة « القلق » والآن قد توج اللورد كرومر تلك التهم بأخطر منها وهو اعلانه ان المصريين مجردون عن الكفاءة الطبيعية ومصابون بداء عقم أبدى منشؤه كما قال في موضع آخر الجمود الدينى الذى يقف باهله الى ماقبل الف سنة للوراء لذلك لايمكن أن يكونوا يوما مارجالا أكفاء لادارة شؤونهم فى المستقبل

فعن التعصب والقلق نقول

اذا كانت للمصريين صفة تميزهم عن بقية الامم الشرقية فانما هى صفة التساهل الدينى الذى جعلهم على اختلاف مذاهبهم متجاورين منذ الفتح الاسلامى فى المنازل مشتركين في المنافع متضامنين في الاعمال متبادلين الشعائر فى السراء والضراء وقد مرت على المصريين المختلفى العقائد ثلاثة عشر قرنا اختلفت فيها صفات الحاكمين من عدل وجور ورحمة وقسوة يشربون من معين واحد ويأكلون على مائدة واحدة وان حفظ التاريخ لبعض الطغاة الجبارين من الحكام المسلمين ادارة عسوفة فانما كان هؤلاء جبارين على الكل بعيدين عن العمل بالدين الحنيف الذي أوصى بالقبط خيراً والذى جعل عهد الفرد الواحد للقبيلة الكاملة من أهل الكتاب عهداً على الكل وفي ذمتهم وعليهم تبعته

وها قد مضي على الاحتلال نحو ربع قرن من الزمان لم يستطع أن يسجل فيه على المصريين حادثاً عظيما بين مختلفى الدين منشؤه اختلاف الدين كما يحصل مثل هذا في الهند وكما حصل فى سوريا قبل بضع وأربعين سنة وكما حصل في كثير من الممالك الاوربية فى أزمنة ليست ببعيدة وحتى الآن وهذه حوادث اليونان والبلغار ورومانيا من أجل الدين من أفظع الحوادث . وليس لاحد أن يزعم ان هذا السلام الشامل مستقر بفضل قوة الاحتلال لان التعصب الدينى الكامن اذا انفجر لاتصده القوة رابضة بجانبه بل تحرشه فى كثير من الاحيان

ولكن الذى يظهر لنا من تهمة جناب اللورد كرومر المصريين بالتعصب الدينى انه

لما لم يجد في هذه الامة استعدادا لثورة في الافكار والاشخاص تساعده على قضاء البد
الاخيرة من مصر وقد حرج صدره من أهليها وحكومته تجاهر بأنها لاتنوى ضم مصر
اليها ـ عمد الى اختراع تهمة التعصب على المصريين فقال انه كامن في قلوبهم وقد انفجر
الآن . والله يعلم والانام شهود أن المصريين لم يضمروا يوما ما شرا للمحتل أو نزيله و
يغفلوا عن واجبهم الذى يقضى عليهم بالسكون حتى لاتتخذ حركتهم سببا لانقلاب سياسى
يقضى على آمالهم فى المستقبل

ولما ورد نبأ تلك التهمة فى الصيف الماضى نشر المؤيد سلسلة آراء لسراة البلاد وأعيانها
ونزلائها كلها داحض ومكذب لها .

فقد قال السيد عمر مكرم « اننا لم نر شيأ يدل على وجود التعصب في مصر »

وقال الشيخ محمد بخيت « التعصب غير موجود في مصر ولا يعول على الرعاع وأما
العقلاء فلا يمكن أن يشتم الانسان منهم أقل دليل على وجوده »

وقال باسيلى باشا تادرس « لا صحة لما يقال من وجود التعصب الدينى والجنسى
فى مصر »

وقال شكور باشا « انى أفضل أن أمشى وحدى ليلا في جهات السيدة زينب والنحاسين
على أن أمشى وحدى ليلا في جهات مونمارتر بضواحى باريس »

وقال محل صدناوي التاجر الشهير « ان بقاء الحالة التجارية على حالها أعظم دليل
على عدم وجود التعصب » .

وقال اسكندر بك عمون « الامة المصرية أقرب الامم الى التمدن الصحيح والمصرى
أكثر اكراما للغريب من سائر الشعوب »

وقال الخواجا ميباراكى « أشهد انى ماشعرت قط في معاملاتى مع المصريين باننى أعامل
أناسا يخالفوننى في العقيدة والمذهب فما هو التعصب والحالة هكذا »

وقال وكيل بنك الكريدى ليونيه يومئذ « أننا لم نشعر بشئ من التعصب الذى
اتهمت به الامة المصرية اللهم الا اذا كان التعصب موجودا فى غير الدائرة التى تصل اليها
معاملات البنك ـ وهى القطر كله »

وقال الدكتور شميل « ان التعصب غير موجود فى مصر على الاطلاق »

مع كل هذه الشهادات من المصادر المختلفة ومن الطبقات المختلفة أبى اللورد كرومر الا أن يكون التعصب موجودا فأوهم انكلترا وأوربا أن مستشار نظارة الاشغال لايقدر أن يفتح شارعا فى مدينة ولا أن يشق ترعة في أرض ولا أن يبنى قنطرة على مجرى ماء وأن مستشار الداخلية لايمكنه أن يضبط واقعة ولاأن يحقق رجاله قضيةالا اذا كان حوله الجيش الانكليزى ولذلك طلب أن يزاد على نفقة مصر فزادوه وهم الآن يتقاضون أجر هذه الزيادة وكل هذا لان المصرى شديد التمسك بدينه الى حد المغالاة فهو متعصب فتاك لايصده عن نهب جاره المسيحي وقتل نزيله الاوروبى الا وجود الجنرال بولوك فى شارع قصر الدوبارة وفرقة المدفعية الراكبة والدراغون فى العباسية والبوليس الفرسان وحرس المدفعية في القلعة وسائر الفرق الموزعة في القاهرة والاسكندرية و بعضهم كان يطلب أن ترسل فرق جديدة الى مدن أخرى . والناس يعلمون أن كثيرا من هؤلاء الشبان في جيش الاحتلال لاعمل لهم فى مصر الا أنهم ينامون نهارا و ينطلقون ليلا الى التهادى في الشوارع والطواف بحانات المسكرات على حالة يعرفها الجنرال بلوك أكثر من كل أحد

وعن الجامعة الاسلامية

لم يكتف اللورد بما غرسه في اذهان قومه وحرش به الاوربيين المستعمرين فى شمال افريقيا بما زعم من سريان عدوى التعصب من مصر اليه حتى قام يدعو الاوربيين الى جامعة صليبية بدعوى أن المصريين يؤسسون (جامعة اسلامية) فسرها لقومه بأنه يراد بها « اتحاد المسلمين فى العالم أجمع لمقاومة الدول المسيحية ومناجزتها العداء وأنه يقتضى لذلك أن تتدبرها جميع الامم التى لها فى الشرق مصالح سياسية لما يخشى أن يكون من ورائها ثورات يكون منشؤها التعصب في بعض الاقطار » اه

هذا ماقاله جناب اللورد في تقريره الاخير بالحرف الواحد تصويرا للمعنى الذى تخيله لمظاهر الوطنية المصرية الموجودة الآن على غير مايحب ويتمنى ويظهر من مغزى كلام اللورد في هذا الصدد أنه لم يكن يقطع بهذا التفسير لولم تحصل حوادث الصيف الماضي التى قال أننا بها أوشكنا ان نكون على باب ثورة كبري . فاللورد في كلامه عن التعصب

والقلق والجامعة الاسلامية أشبه بالنفاثين في العقد يعتمد على سلطان الوهم الذى يغلب
الاور يبين من ناحية المسلمين فى كل مايقال عن تعصبهم ونتائجه . وهو مع كونه قال
مستعد أن يقيم الادلة على صحة مايقول عاجز عن أن يقيم دليلا واحدا صحيحاً . فاذا
مخترعا لهذه التهم الثلاث لتلك الغاية السياسية التى لاتخفي على أحد فهو مخدوع فيها الى
لاتنطبق على صفات رجل يحسب اليوم فى الطبقة الاولى من عظماء الرجال وخصوصا
قضى في مصر التى يتحدث عنها بهذه التهم الباطلة نحو ربع قرن قابضاً فيها بيد على صو
الملك والسلطة قولا وفعلا .

ليس في مصر أساس لعمل جامعة اسلامية تجمع الامم الاسلامية على مبدأ واحد
ولكن في مصر جرائد أصحابها مسلمون ميالة الى نشر الاخبار التي تبلغها عن مسلمي الا
الاخرى ميل الصحف القبطية الى نشر أخبار الحبشة وروسيا والصحف التي أصحابها
الكاثوليك الى أخبار الامم التي على شاكلتها وهكذا الخ . فان كان اللورد يسمى هـ
الميل « جامعة اسلامية » فنحن نهنئه على اكتشافه العظيم ولكننا نعتبر تحذيره الدو
النصرانية ودعوته اياها الى اليقظة ضد المسلمين عدوانا عظيما على هؤلاء

وان كتابته مثل هذا في تقرير رسمي باسم معتمد ونائب جلالة الملك ادوارد المع
في مصر ليس من مصلحة انكلترا في شئ لانه بتلك الدعوة نفسها ينبه عواطف المسلم
في العالم الى كراهية انكلترا ويعمل للجامعة الاسلامية بالمعنى الذى حاول اثباته اضعا
مايعمل كل دعاة الاسلام لوأرادوا الى مثله

ولكن يظهر من كل سطور التقرير الاخير للورد أن قصر الدوبارة أراد باختر
تلك التهم الواردة من مصر والمصريين فى وقت غلت فيه قدر حقده عليهم . فما شر
نواب الملوك أن يكونوا منزهين عن صفات الحاقدين المنتقمين

وعن عدم كفاءة المصريين

بنى اللورد حكمه على عدم كفاءة المصريين الذاتية لان يتولوا شؤنهم بأنفسهم
ارتقوا على قاعدتين . الاولى أن عقل الشرقى من حيث هو شرقى غريب فى شكله ونصو
وذكر لهذه القاعدة شاهدا عبارة ذكرها الاستاذ (سايس) قال فيها مايأتي

« ان من أقاموا فى الشرق وحاولوا أن يختلطوا بأهله يعرفون حق المعرفة بأنه من المتعذر على الاوربى كل التعذر أن يرى العالم بالعين التى يراه بها الشرق . نعم الاوربى في خلال اقامته القصيرة يذهب به الفكر باديء بدء الى أنه يتفاهم مع الشرق فيرى أنه يكلم رجلا له عقل غريب الشكل كعقل ساكن زحل » اه

وروى اللورد عن اختباراته هو أنه لايكاد يحدث رجلا من أرقى طبقات المصريين الذين يفتخر بصداقتهم حتى يجمع بين المتناقضات في حديثه قال ولذلك تراني لا أسترسل فى تقدير آراء الشرقي ولا أحفل بتناقضه. وأن العادة فى الدفاع عن خطتين متباينتين كلتاهما تناقض الاخرى هى القاعدة العامة لا الشاذه في مصر »

والقاعدة الثانية جمود دين المسلمين في مصر والدين غالب على مزاجهم غلبة تامة . لان هذا الدين هو « عبارة عن مبادىء وضعت منذ ألف سنة هديا لهيئة اجتماعية في حالة الفطرة والسذاجة وهذه المبادىء منها مايجيز الرق ومنها مايتضمن سننا وشرائع عن علاقات الرجال والنساء مناقضة لآراء أهل هذا العصر ومنها مايتضمن أمرا أهم من ذلك كله وهو افراغ القوانين المدنية والجنائية والملية فى قالب واحد لايقبل تغييرا ولا تحويرا وهذا ما أوقف تقدم البلدان التى دان أهلها بدين الاسلام » اه

قاعدتان صيغت احداهما من كلمة خالية للاستاذ سايس وصيغت الثانية من جهالة ظاهرة بروح الشريعة الاسلامية . وقد يكون لذلك الاستاذ العذر في أنه حكم على الشرق باستقراء ناقص وفي وسط غامض عليه . وقد يكون للورد العذر بأنه لايعلم من أمر الشريعة المحمدية الا روايات محرفة عنه

وليس المقام مقام مؤاخذة اللورد على غلطه الفاضح فى الحكم على الدين الاسلامى خصوصا وان كلاما مثل الذى قاله عنه مما لايعبأ به وكان أجمل له لو تجنب الخوض فيه بمثل هذا الشطط

ولكن المقام الآن مقام مؤاخذة على ذلك الحكم الجائر على استعداد المصريين ووصفهم بعدم الكفاءة الابدية

ان الامة المصرية أكبر من أن يحكم عليها عقل رجل مهما كان عظيما . خصوصاً وان

عقل هذا اللورد قد وضع منذ بضع وعشرين سنة فى قالب مخصوص لينمو فيه نموا مخصوصا راميا الى غاية مخصوصة . وقد حصر هذا العقل أيضا في سبيل نظره الى المصريين بين آذان تسمع الروايات المحشوة بالغايات والاغراض والوشايات الملفقة على المصريين من بعض أعدائهم . فحكمه من هذا القبيل قابل للنقض والتفنيد . واننا مهما بالغنا فى التأدب مع جناب اللورد لايمكننا الا أن نقول انه مخطىء فى ذلك الحكم خطأ عظيما ومسيء للامة اساءة لايمكن أن تنسى مادام اسمه مذكورا وستكون درجة هذه الاساءة بقدر تأثير هذا الحكم على مستقبل مصر فى سياسة انكلترا التى تتبعها بعد

اننا رأينا اللورد في كثير من المواقع أطرى كفاءة المصريين عند ما كان في هذا الاطراء دفاع عن سياسة خاطئة فقد بالغ في مدح الاشخاص الذين كان لهم عمل في حادث دنشواى من قضاة ومحامين وبالغ في وصف كفاءتهم . وهو كثيرا مايذكر بالمدح الزائد في تقاريره بعض الاشخاص المصريين الذين يريد اطراءهم لغرض سياسى فهل كان هؤلاء من غير المصريين ومن غير المسلمين ؟؟ وكان مخطئا فى حكمه لهم

الكفاءة انما يحكم عليها بعد الاختبار وانما يحكم عليها بقدر الاشخاص الذين اختبروا فلو فرض أن اللورد جعل مصالح الحكومة المصرية مدارس للموظفين يتنقل بهم فى درجات ابتدائية وتجهيزية وعالية ثم كشف الامتحان الاخير عن فشلهم وسقوطهم لما جاز له بوجه من الوجوه أن يحكم بسقوط الذين دخلوها علي الامة كلها بالقصور الذاتى والجمود الطبيعي فقد يجوز أن يكون ثمت عيب كبير فى طريقة التعليم كما يجوز أن يكون هؤلاء الاشخاص بعينهم منحطين في استعدادهم الذاتى . ومن الظلم المهين أن يتناول هذا الحكم الامة بمجموعها

على ان سياسة اللورد في مصر جرت على نمط آخر . نمط يعطل ذكاء المصريين ويحول بينهم وبين الترقي الذى هم مستعدون له بطبيعتهم كال الاستعداد . ذلك النمط هو ابعاد المصرى عن كل الوظائف العالية واحتلالها على التوالى بأبناء التاميز . وكلما وجدت وظيفة ذات مسؤلية وعمل ولو كانت وسطي أو أقل من الوسطي خص بها الانكليزى وضوعف مرتبها لتكون لائقة له من كل وجه . وقد أطردت هذه السياسة في جميع المصالح حتى لاترى اليوم مصريا عاملا الا ماشذ عن القاعدة . وزحف شبان الانكليز الآن الى

الوظائف الصغري أيضا في بعض المصالح بمسوغات يخترعونها . فالتمرين اذن مفقود والاعداد لكل عمل طريقة التمرين .ان اللورد أبعد أبناء مصر عن ميدان العمل الصحيح والاختبار المفيد ثم حكم عليهم بعدم الكفاءة

هل أمكن الماجور افلن بارنج أن يجد نفسه اللورد كرومر فجأة و بدون عمل واختبار مع أنه لم يصر كذلك الا بعد مضى الاعوام الطوال يعمل عمل القادر المريد الذى يساعده نفر من قومه وتعضده دولة من أقوى الدول في العالم وتغضى عن هفواته فلم ير له محاسبا عليها بينما أهل مصر يفقدون كل يوم وسيلة من وسائل الارتقاء فى الكفاءة الشخصية

والخلاصة أن قصر الدوبارة اخترع تهمة التعصب الدينى والقلق السياسى . واخترع الجامعة الاسلامية ونسب كل ذلك الى طبيعة البلاد أولا والجمود الدينى ثانيا . و بنى على ذلك كله عدم كفاءة المصريين الى الابد مع أن القاعدة الصحيحة الاساسية فى الممالك أن الدين والملك اخوان لاغنى لاحدهما عن الآخر . فالدين أس والملك حارس . والبناء اذا لم يكن له أس مهدوم والملك مالم يكن له حارس ضائع . ولكن اللورد غضب على المصريين فنسى القواعد الاساسية فى سياسة الامم ومثل دين المصريين فى صورة وحشية هائلة يخشى منها على المدنية فأساء الى المصريين فى دينهم وفي مبادئهم وفي كفاءتهم وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(المؤيد في ١١ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ـ ٢٤ ابريل سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٤٨)

الجرائد واللورد كرومر

ا اهتمامه بما لايجب

ب اهماله مايجب

« أفضل عندى ان أقيم فى بلاد ذات جرائد ولا قانون من أن أقيم فى بلاد ذات قانون ولا جرائد »

« جفرسون »

كل من دقق فى هـذه العبارة وجدها عين الحكمة والصواب . لان الصحف رقيب عام مذكور عند جميع الناس كل يوم والقانون رقيب لايذكره الا المتقاضون في مزالق القضاء فقط . ثم ان مراقبة القانون نفسها ضعيفة جداً اذا لم تكن ثمت جرائد . وقد قال اللورد كرومر في تقريره عن مصر لسنة ١٩٠٣ « ان خوف التشهير على صفحات الجرائد يمنع كثيراً من الشرور ويقلل العيوب التى تعتور نظام الحكومة » . فاذن لابد لمصر من الجرائد . والا خلت من الرقيب العام الذى يفيد الناس أكثر من القانون كما قال «جفرسون» وكثرت الشرور وفشت العيوب التي تعتور نظام الحكومات كما قال اللورد كرومر . وكلاهما يتكلم عن الجرائد الحرة لان الجرائد المفيدة الخاضعة لسلطان الحكومة لايمكنها أن تراقب عليها وعلى الناس

وبعد هذ التمهيد القليل نقول

لم يكن اللورد كرومر قبل سنة ١٩٠٣ يذكر شيأ في تقاريره عن الجرائد المصرية وغاية ما كان يفعل أنه يشير اليها عرضا في أثناء كلامه عن غيرها

ولكنه فى تقرير سنة ١٩٠٣ عقد لها فصلا خاصاً بها كان مغزى كلامه فيه موجها للجرائد الوطنية وأشار الى مايشكو بعضهم منها ثم قال « ورأيي الخصوصى أن خيرما فعلته الجرائد أفاد الحكومة بوجه العموم وشرمافعلته لم يضر ضررا بليغا بمصالح البلاد الحقيقية » .

وقال فى موضع آخر من من هذا الفصل «ولا أظن انه يمكن ذكر حادثة واحدة في العشرين سنة الماضية تدل على أن حرية الجرائد أضرت بالبلاد ضررا عظيما أو أخرت سير الاصلاح الحقيقي يوما واحدا » ـ وقد وجدت بالاختبار أنه ليس من الصعب التميز بين مايستحق الاعتبار و بين مالا يستحقه فيها فاذا قرأت خبرا مهما لم أعلم به قبلا أستعلم عما اذا كان صحيحاً أولا وقد يتفق انه لايكون صحيحا أولايكون مدققا ولكنني مدين للجرائد بأخبار استفدتها وربما لم أكن أستطيع الوصول اليها لولاها . اما من جهة آراء الجرائد فانى اما أن اهتم بها أولا أهتم وذلك يتوقف على المصدر الذى تصدر عنه وقوة الادلة المبسوطة فيها وهل هى آراء شخص واحد أو رأى جمهور يستحق الالتفات والاحترام وغير ذلك من الاعتبارات » الخ الخ

وفى تقريره عن مصر لسنة ١٩٠٤ عقد أيضا فصلا مخصوصا بالجرائد تكلم فيه أولا عن قرار للجمعية العمومية فى تلك السنة تستلفت به نظر الحكومة الى تطرف بعض الصحف لنبش الاعراض والحط من كرامة العائلات»

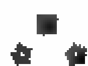
فبعد أن فسر جنابه المراد من هذا القرار قال « الا أنى بعد أن قلت ماقلت لاأرى من الواجب ولا من المناسب التعرض للحرية التامة التى لم تتمتع بها الجرائد فى بر مصر . نعم ان لتلك الحرية مضار وسأشير اليها والى العلاج الذى أصف لتخفيف شرها . ولكنى على يقين أن منافعها تفوق مضارها كثيراً . فغاية مايقال ضد الجرائد المحلية في القطر المصرى أنها قد تجلب على بعض الناس مالا يستحقون ولا لزوم اليه من الالم ونغص العيش بمخالفتها للواقع وتمويهها للحق فيما ترويه عن أفعالهم أو تنقد به سلوكهم . هذا مايقال عليها وأما مايقال لها فهو كل الاقوال والادلة التي تقام على فوائد حرية الصحافة

وفي تقريره لسنة ١٩٠٥ طلب من الجرائد المصرية في مقدمة من طلب منهم أن تبحث مشروع (الامتيازات الاجنبية) الذى اقترحه أول مرة فى التقرير المذكور وتبدى آراءها فيه

هذا تقدير جناب اللورد للجرائد المصرية قبل أن تحدث حادثة العقبة في ربيع العام الماضى وهذا حكمه عليها فى مدة ٢٣ سنة مضت . وتلك عنايته الكبرى بحريتها وهذه أقواله

عليها ولها وهذا دفاعه العظيم عنها . والمؤيد في مقدمة الصحف اعترافا بفضل جناب اللورد عليه من هـذه الجهة . نعم ان للامتيازات الاجنبية دخـلا كبيراً فى ايجاد حرية الصحف الحاضرة وتأييدها كما يدل على ذلك كلام اللورد نفسـه في تقريره لسـنة ١٩٠٣ ولكن لانبخس جنابه حقه من ميله الشخصي لمساعدة هذه الحرية وتأييدها للوطني مثل الاجنبي حتى يتكلم ذاك بصفته وطنياً كما يتكلم هذا بصفته أجنبيا

المؤيد لاينسى على الدوام كلمة اللورد لمن سأله من أبناء جنسه قبل نحو عشر سنوات أن يقضى على المؤيد بأية طريقة كانت فأجابه «ان المؤيد لايسقط الا بتدبيرمكيدة لصاحبه يقع فيها ليسقط بها . تسقط جريدته معه ـ أو بالغاء الجريدة عنوة واقتـداراً . والاول لاترضاه ذمتي والثاني لايرضاه البرلمان »



والغريب أن اللود كرومر الذى يقدر حرية الصحافة حق قـدرها و يدافع عنها بمثل النزعة العالية الشريفة التى تقدمت ويعترف بما للجرائد المصرية من الفضـل والفائدة فى خدمة الامة يظهر بمظهر الغضب الشـديد عليها الى مثل هذا القـدر الذى تجلى في تقريره الاخير . وعهدنا بعظماء الرجال مهما نبض في نفوسـهم نابض الغصب بل مهـما جاشت به صدورهم أن يكون عندهم من حزم الحلم مايضبطون به السنتهم وأيديهم أن تظهرعليها أفاعيله فلا يسبون ولا يبطشون ولايحكمون على المغضوب عليهم حكم الجبارين .فما بال اللورد كرومر قد ترك قدر غضبه يغلي في صدره حـتى ثارت يداه فبطشت بطش الجبارين بالجرائد . وما باله نسي كل ماقاله عن الصحافة في تقاريره الماضية وحكم عليها حكما قاسـيا لاندرى بماذا نصفه . ماباله ناقض نفسـه فيما بين أمس واليوم . قال أمس انه يسـتفيد منها وان منافعها تفوق مضارها مهـما بلغ من أمرها وان مايقال لهـا هو كل الاقوال والادلة التى تقام على فوائد حرية الصحافة . أي انها تؤدى وظيفة الصحافة الحرة على كل حال . واليوم يقول انها كذابة فى كل ماتقول وأنها مضرة دائما وانه «وجدها تشوهوجه الحقائق عادة فترويها على غير صحتها وكثيرا ماتفسدها عمدا » الى ان قال «واست أتذكر أني قرأت في جريدة منها مقالة واحدة صحيحة المادة أو حسنة الاستدلال أو مفيدة في المسائل المالية أو المعارف

أو النظام القضائي الخ »

ما باله يحكم عليها حكم الجبارين على أعدائهم الضعفاء وهو يعلم أن حكمه هكذا على التعميم الشامل لكل الجرائد ولماضيها وحاضرها ولكل ما كتبت في كل موضوع لا يقبله العدل والعقل . وغاية ما يقال عنه انه غضب فأطلق للنفس عنانها وترك القلم يجول جولة المغتاظين المنتقمين

على أنه يلوح لنا من خلال الفصل الذى كتبه عن « الصحافة المصرية » فى تقريره الاخير ان جناب اللورد يهتم بأمر الجرائد فيما لا يجب ويهمل من أمرها ما يجب

يهتم بقتل حرية الجرائد فيما اذا كان الكلام موجها الى عمل من أعماله فى أخطر الوجوه وأعلقها بمصالح البلاد الكلية وهو مشرف على كل شئ ومشتغل بكل شئ ويهمل ما يتعلق بغيره ولو كان في أعظم مكانة من الاهمية ويرى في اهماله هذا احياء الحرية الصحافية للبلاد . ولعل القراء يطلبون منا ايضاحاً لهذا الاجمال فنقول

بدأ حكمه على الجرائد المصرية ينقلب من الابيض للاسود ويرميها بالتعصب والبراعة في اختراع الاكاذيب الى حد لا تجاريها فيه صحافة بلاد أخرى من يوم مسئلة العقبة المشؤمة اذ رأى من بعض الصحف الوطنية شيأ من الحدة والحماس سماه تهيجا والمؤيد نفسه يعترف بأنه قد وجد شئ من التطرف الشديد في بعض صحفنا ولم يكن راضيا عنه . ولكننا نستسمح حلم جناب اللورد كرومر في أن نسأله السؤال الآتي وهو . لماذا اهتم جناب اللورد كرومر بهذا الجانب من خطة الصحف المحلية ولم يهتم بذلك الجانب الذى كان أشد تطرفا ضد الدولة العلية وكان يتكلم عنها كعدوة لدودة لمصر مشرفة على حرب معها . كان المقطم والبرجريه وغيرهما من الصحف المحازبة للاحتلال تتكلم على الدولة العلية فى ذلك الخلاف كما يتكلم أشد الصحف تطرفا وحماسة وتحقيرا بل كما تتكلم جرائد الاعداء عن دولة محاربة فتتوعدها بالقهر والغلب والتنكيل . وكان يظهر من كل عباراتها أنها تستقي الاخبار ساعة فساعة من الوكالة البريطانية . ونسيت هي أونسي جناب اللورد أن مصر لا تزال تحت سيادة الدولة العلية مهما وهنت أعلاق هذه السيادة . وان جلالة الخليفة العثمانى يخطب باسمه كل جمعة على منابر المساجد . وأن القضاء الشرعي الجارى فى البلاد لا يزال

تحت أمره فكل قضايا الاحوال الشخصية التى تعيش عليها العائلات فى منازلها يفصل فيها باسمه لانه مفيض الاذن بها على القضاة الحاكمين . فاذا أهمل جناب اللورد كرومر من أمر الصحف مايجب عليها تجاه هذه العلائق القوية بين عواطف الامة المصرية وسلطان آل عثمان وترك للصحف التى تستمد النفوذ والرأى من الوكالة البريطانية تمثل الدولة العلية دولة مغيرة محاربة لمصر وتدعو عليها بالويل والثبور فقد استفز عواطف الشعب الكامنة وهيج خواطرهم وذكرهم بكل مابينهم وبين الدولة العلية من علائق السيادة

ألم يكن من حسن السياسة أن يهتم بخطة الجرائد التى تستظل برعايته الخصوصية وتستمد نفوذها من الوكالة البريطانية أن تراعى مايجب عليها مراعاته من عواطف الامة التى رابطتها بالدولة العلية الى هذا الحد عند ماتتكلم عنها وخصوصا فى خلاف من هذا القبيل

أليست الجرائد المسيحية التى تستمد نفوذها من الوكالة البريطانية هى التى بتمثيل الدولة العلية على أقبح صورة يمثلها العدو للعدو المحارب تستفز عواطف الامة المصرية وتهيج خواطرها . أليست هى التى تذكرها بكل مابينها وبين الدولة العلية من الروابط السياسية والملية بسوء لهجتها أليست هى التى أوجدت الميدان فسيحا لبعض الصحف الاسلامية كى تتحمس وتطلق لنفسها العنان فى مثل هذا الميدان

يقول اللورد كرومر اننا كنا فى ربيع العام الماضى على باب ثورة كبرى متوقعة من الشعب بسبب تهيجات الصحف الاسلامية . ولو أنه أنصف فى حكمه وكان يقرأ الصحف المصرية بعينيه لا بأذنيه لقال بسبب تهيجات بعض الصحف المسيحية وخصوصا التى أصحابها يزعمون أن لهم ثارا قديما عند الدولة العلية ويريدون الانتقام . وان كلمة واحدة تصدر من صحيفة مسيحية صنيعة للوكالة البريطانية فى موضوع خلاف بين الدولة العلية وانكلترا سلبا أشد وقعا على نفوس الشعب المصرى من ألف كلمة لصحيفة اسلامية فيه ايجابا بخصوص فى مثل حادثة طابا التى لا تساوى مصلحة المصريين منها مهما عظمت قلامة ظفر من تلك العلائق التى بينهم وبين الدولة وعلى الاخص لانها كانت تحرص عليها لسلامة طريق الحجاز الجديدة

ان اللورد كرومر لو اهتم من قديم الزمان بتقويم سلوك الجرائد التى تستمد نفوذها

من الوكالة البريطانية وتعديل خطتها التى تضرب بخشونتها الامثال والتى دأبت على أن تخاطب الناس كأنها ترميهم بالحجارة من مقالعها لاتبالى أن تنغص عليهم عيشهم في السراء والضراء بما توهم أنه من تلقين الوكالة البريطانية وايعازاتها — انه لو فعل ذلك ووقى المصريين شر هؤلاء الفضوليين لا كتسب جماع الود من جوانح الشعب ولما ساء التفاهم يوما بين الوطنيين والمحتلين . ولكن تغافل جناب اللورد عن خطة هذا الفريق من الصحف المحلية واهماله ما كان ينبغى ملاحظته من ذلك أدخلا فى نفوس الناس أن من مأمورية الاحتلال تحقير الدولة العلية ومس احساسات الامة فى علاقاتها معها ومع الاريكة الخديوية وفى شعائر الامة وفي مظاهرها وفى كل حادثة تحدث ويكون لها ارتباط بالاحتلال ولو بألف واسطة

واهتم اللورد أيضا بمنع الجرائد المحلية الا ماهى من صنائع الوكالةالبريطانية من الدخول الى السودان فخالف بهذا المنع المبدأ الذى ينادى به على رؤس الاشهاد من ميله الى تعميم حرية الصحف وتأييدها لان هذه الجرائد نفسها تدخل بلاد الحبشة وحكومة السودان أقرب للمدنية وأقوى بأسا وأقدر على حفظ النظام وأهيب فى عيون الرعية من حكومة الحبشة وفي الحبشة مسلمون يخشى بأسهم اذا تحركوا فما يمكن أن يخشى من الجرائد فيه السودان يخشى منها كذلك فيه بالحبشة . وما أضيع الفائدة من هذا العمل على ان كل نزاء الجرائد المصرية في السودان أو جلهم من ضباط الجيش والموظفين المصريين الذين لهم الحق أن يعرفوا أخبار بلادهم من جرائدهم فحرمانهم من قراءتها ظلم عظيم لهم

اهتم جنابه بكتمان الاخبار المهمة والنافعة عن الجرائد المحلية وسارت المصالح المصرية على خطته في ذلك فلا ترى فى قلم المطبوعات للصحف المحلية الا ماهو من قبيل الاعلانات التى لو اتفقت الجرائد على عدم نشرها لطلب منها نشرها بأجرة — بينما الاخبار المهمة والحقائق الثمينة تعطى لمكاتبى جرائد أوربا فتنقلها الجرائد المحلية عنها نقلا

زار ادارة المؤيد منذ سنتين شخص انكليزي وطلب مقابلة صاحبه ومعه ورقة زيارة باسم موظف كبير فى الوكالة البريطانية وقال انه مكاتب جريدة كذا في لندرة يريد أن يعلم من أحوال مصر والمصريين مايود أن يبعث به الى جريدته فقلنا له أهلا وسهلا

وأ كبرنا هذه الدلالة التى تفضلت بها الوكالة وقلنا عساها علمت أن الرجل يريد أن يتعرف الحقيقة من جانب المصريين أنفسهم ؟ ؟ ولكننا مابدأنا نجيبه على بعض أسئلته حتى زا بصره وكان يشرب القهوة فوضع الفنجان الى جانب وعاد يسأل أين هو ـ واذا بسائق العربة التى أوصلته الينا قد أخطأ السمع فبدلا من أن يذهب به الى ادارة « المقطم » ج به الى ادارة « المؤيد » .

ولذلك ما كاد يتحقق الرجل أين هو حتى قام بلا سلام ولا كلام مسرعا مهرولا الى العربة فامتطاها الى ادارة « المقطم » . فقلنا لولا مثل هذا ماساء التفاهم بين المصريين والانكليز . ولو أنهم عنوا بسماع مايقول المصريون دائما لاستطاعوا أن يوفقوا بين مصالح الفريقين . وكم رأينا حفاوة بمكاتبي الجرائد الاوربيـة فيفتح لهم كل باب من ولكن ليروا بالعين التى يحبون أن ترى ويسمعوا بالاذن التى يرغبون أن تسمع وما ذلك الا لأن اللورد كرومر على جلال قدره وعلو منزلته فخور بذكر أعماله عاشق لحسن الصيت أبغض شيء لديه أن تلمز أعماله بكلمة كما أن أقدس شيء عنده أن تغنى الجرائد الكبرى في أوروبا والجرائد الصغرى في مصر بمدائحه

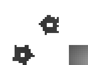
ونقول الصغرى لان الجرائد الافرنجية المحليـة التى أطراها جناب اللورد في تقريره الاخير وتواضع لها كثيرا لاتحسب الا صغرى في جنب الجرائد العربية التى صب عليها جام غضبه حتى خيل لنا أنه سيأخذ بمجموعة نسخ منها يوم ٤ مايو المقبل ليشعل فيها النار بين يديه فى الأوبرة الخديوية خلال خطبته السياسية الكبرى فيصفق له الحاضرون تصفيقا مضاعفا

(المؤيد في ١٤ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ـ ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٤٩)

وداع اللورد كرومر

ودع حضرة شاعر مصر الكبير حافظ أفندى ابراهيم جناب اللورد كرومر بعد استقالته بهذه القصيدة الفيحاء التى بين اكرام الرجل عند رحيله وبين انصافه فيما أحسن وفيما لم يحسن ولو أن قصيدته هذه كانت نثرا لكان أحسن من كتب ولكنها شعر فهو أرقى مايقول شاعر عربي فى هذا العصر

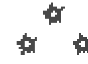
فتى الشعر هذا موطن الصدق والهدى فلا تكذب التاريخ ان كنت منشدا
لقد حان توديع العميد وانه حقيق بتشييع المحبين والعدا
فودع لنا الطود الذي كان شامخا وشيع لنا البحر الذي كان مزبدا
وزوّده عنا بالكرامة كلها وان لم يكن بالباقيات مزودا
فلم لا ترى الاهرام يانيل ميدا وفرعون عن واديك مرتحل غدا
كأنك لم تجزع عليه ولم تكن ترى في حمى فرعون أمنا ولا جدا



سلام ـ ولو انا نسيء الى الاولى أساؤا الينا ـ ما مددنا لهم يدا
سنطري أياديك التي قد أفضتها علينا فلسنا أمة تجحد اليدا
أمنا فلم يسلك بنا الخوف مسلكا ونمنا فلم يطرق لنا الذعر مرقدا
وكنت رحيم القلب تحمي ضعيفنا وتدفع عنا حادث الدهر ان عدا
ولولا أسى في دنشواي ولوعة وفاجعة أدمت قلوبا وأكبدا
ورميك شعبا بالتعصب غافلا وتصويرك الشرقى غرا مجردا
لذبنا أسى يوم الوداع لاننا نرى فيك ذاك المصلح المتوددا



تشعبت الآراء فيك فقائل أفاد الغنى أهل البلاد وأسعدا
وكانت له في المصلحين سياسة ترخص فيها تارة وتشددا
رأى العز كل العز في بسطة الغنى فحارب جيش الفقر حتى تبددا
وأمتعكم بالنيل فهو مبارك على أهله خصباً وريا وموردا
وسن لكم حرية القول عند ما رأى القول في أسر السكوت مقيدا
وآخر لم يقصر على المال همه يرى ان ذاك المال لا يكفل الهدى
فلا يحمد الاثراء حتى يزينه بعلم وخير العلم ما كان مرشدا



يناديك قد أزريت بالعلم والحجى ولم تبق للتعليم يالورد معهدا

وانك أخصبت البلاد تعللا — وأجدبت في مصر العقول تعمدا
قضيت على أم اللغات وانه — قضاء علينا أوسبيل الى الردى
حططت عليها ربع قرن بعزمة — وأرصدت دنلوبا لها فترصدا
ووافيت والقطران في ظل راية — فما زلت بالسودان حتى تمردا
فطاح كما طاحت مصوع بعده — وضاعت مساعينا بأطماعكم سدى
حجبت ضياء الصحف عن ظلماته — ولم تستقل حتى حجبت (المؤيدا)
وأودعت تقرير الوداع مغامزا — رأينا جفاء الطبع فيها مجسدا
غمزت بها دين النبي وانا — لنغضب ان أغضبت في القبر أحمدا

* * *

يناديك أين النابغون بعهدكم — وأي بناء دارس قد تجددا
فما عهد اسماعيل والعيش ضيق — بأجدب من عهد لكم سال عسجدا
يناديك وليت الوزارة هيئة — من الصم لم تسمع لاصواتنا صدى
فليس بها عند التشاور من فتى — أبيّ اذا ماأصدر الامر أو ردا
بربك ماذا صدنا ولوى بنا — عن القصد ان كان السبيل ممهدا
أشرت برأي في كتابك لم يكن — سديداً ولكن كان سهما مسددا
وحاولت اعطاء الغريب مكانة — تجر علينا الويل والذل سرمدا
فياويل مصر يوم تشقى بندوة — يبيت بها ذاك الغريب مسودا
ألم يكفنا أنا سلبنا ضياعنا — على حين لم نبلغ من الفطنة المدى
وزاحمنا في العيش كل ممارس — خبير وكنا جاهلين ورقدا
وما الشركات السود في كل بلدة — سوى شرك يلقى به من تصيدا

* * *

فهذا حديث الناس والناس ألسن — اذا قال هذا صاح ذاك مفندا
ولو كنت من أهل السياسة بينهم — لافردت لي رأيا وبينت مقصدا
ولكنني في معرض القول شاعر — أضاف الى التاريخ قولا مخلدا

فياأيها الشيخ الجليل تحية ... ويا أيها القصر المنيف تجلدا
لئن غاب هذا الليث عنك لعلة ... لقد لبثت آثاره فيك شهدا

(المؤيد فى ١٤ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ـ ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٤٩)

٥

تقارير اللورد كرومر

مافتىء اللورد كرومر منذ عين معتمداً لدولتـه في مصر وهو يكتب التقارير الطوال لحكومته عن أحوال هذه البلاد ونتائج أعماله فيها . ولكنه منذ سنوات أخـذ يتوسع فيها ويزيد في أبوابها وفصولها وملحقاتها كثيراً حتى صاركل تقرير سنوى منها أشـبه بكتاب كبير الحجم

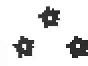
وللتقارير الرسمية من هذا القبيل فوائد حاضرة وأخرى مستقبلة . أما الحاضرة فهي اطلاع الحكومة التى ترفع لها على ماجريات الاعمال التى غنى ببيانها فيه على الاسلوب الذي يختاره كاتبها وبالتالى اطلاع كل من يقرؤها على مافيها . وأما المستقبلة فهي علاقة التاريخ بالماضي وحظها منه حظها من مطابقة الحقائق فيا حوته من الاخبار والافكار

ونحن لانبحث فى هذه التقارير من جهة التناقض الذى اشتملت عليه فان الذى يطلب الثبات على قول واحد من سياسى انما يطلب من الماء جذوة نار وخصوصاً اذا كان هذا السياسى مستعمراً لان المستعمر متحيل فى الاقوال والافعال يتحين الفرص لاختطافها تارة ويخضع لحكم الظروف عند قسرها أخري

فلا يقال ــ لماذا صرح اللورد كرومر في كل تقاريره الماضية التى ذكر فيها الاحتلال وأجله أنه مؤقت لابد له من نهاية ولو آجلا. وفي تقريره الاخير قال ان الاحتلال دائم لان الحكومة البريطانية بعد الوفاق الانكليزى الفرنساوي المعقود في سنة ١٩٠٤ لا تقصد العمل بما لها من السلطة الاختيارية لاخراج الحامية البريطانية من مصر » . ولا لماذا قال فى تقريريه لسنتى ١٨٩١ و ١٨٩٢ ان اشراف نفوذ الخديو على الاعمال والمصالح ضرورى

عليها ولها وهذا دفاعه العظيم عنها . والمؤيد في مقدمة الصحف اعترافا بفضل جناب اللورد عليه من هـذه الجهة . نعم ان للامتيازات الاجنبية دخـلا كبيراً فى ايجاد حرية الصحف الحاضرة وتأييدها كما يدل على ذلك كلام اللورد نفسـه في تقريره لسـنة ١٩٠٣ ولكن لا نبخس جنابه حقه من ميله الشخصي لمساعدة هذه الحرية وتأييدها للوطنى مثل الاجنبي حتى يتكلم ذاك بصفته وطنيا كما يتكلم هذا بصفته أجنبيا

المؤيد لاينسى على الدوام كلمة اللورد لمن سأله من أبناء جنسه قبل نحو عشر سنوات أن يقضى على المؤيد بأية طريقة كانت فأجابه «ان المؤيد لايسقط الا بتدبير مكيدة لصاحبه يقع فيها ليسقط بها . تسقط جريدته معه ــ أو بالغاء الجريدة عنوة واقتـداراً . والاول لاترضاه ذمتي والثاني لايرضاه البرلمان »



والغريب أن اللورد كرومر الذى يقدر حرية الصحافة حق قـدرها ويدافع عنها بمثل النزعة العالية الشريفة التى تقدمت ويعترف بما للجرائد المصرية من الفضـل والفائدة فى خدمة الامة يظهر بمظهر الغضب الشـديد عليها الى مثل هذا القـدر الذى تجلى في تقريره الاخير . وعهدنا بعظماء الرجال مهما نبض في نفوسـهم نابض الغضب بل مهـما جاشت به صدورهم أن يكون عندهم من حزم الحلم مايضبطون به ألسنتهم وأيديهم أن تظهرعليها أفعيله فلا يسبون ولا يبطشون ولايحكمون على المغضوب عليهم حكم الجبارين . فما بال اللورد كرومر قد ترك قدر غضبه يغلى في صدره حـتى نارت يداه فبطشت بطش الجبارين بالجرائد . وما باله نسى كل ماقاله عن الصحافة في تقاريره الماضية وحكم عليها حكما قاسـيا لاندرى بماذا نصفه . مابالهُ ناقض نفسـه فيما بين أمس واليوم . قال أمس انه يسـتفيد منها وان منافعها تفوق مضارها مهـما بلغ من أمرها وان مايقال لهـا هو كل الاقوال والادلة التى تقام على فوائد حرية الصحافة . أى انها تؤدى وظيفة الصحافة الحرة على كل حال . واليوم يقول انها كذابة فى كل ماتقول وأنها مضرة دائما وانه «وجدها تشوه وجه الحقائق عادة فترويها على غير صحتها وكثيرا ماتفسدها عمدا » الى ان قال «ولست أتذكر أني قرأت في جريدة منها مقالة واحدة صحيحة المادة أو حسنة الاستدلال أو مفيدة في المسائل المالية أو المعارف

أو النظام القضائي الخ »

ما باله يحكم عليها حكم الجبارين على أعدائهم الضعفاء وهو يعلم أن حكمه هكذا على التعميم الشامل لكل الجرائد ولماضيها وحاضرها ولكل ما كتبت في كل موضوع لا يقبله العدل والعقل . وغاية مايقال عنه انه غضب فأطلق للنفس عنانها وترك القلم يجول جولة المتغاظين المنتقمين

على أنه يلوح لنا من خلال الفصل الذى كتبه عن « الصحافة المصرية » فى تقريره الاخير ان جناب اللورد يهتم بأمر الجرائد فيما لايجب ويهمل من أمرها مايجب

يهتم بقتل حرية الجرائد فيما اذا كان الكلام موجها الى عمل من أعماله فى أخطر الوجوه وأعلقها بمصالح البلاد الكلية وهو مشرف على كل شئ ومشتغل بكل شئ ويهمل مايتعلق بغيره ولو كان في أعظم مكانة من الاهمية ويرى في اهماله هذا احياء الحرية الصحافية للبلاد . ولعل القراء يطلبون منا ايضاحاً لهذا الاجمال فنقول

بدأ حكمه على الجرائد المصرية ينقلب من الابيض للاسود ويرميها بالتعصب والبراعة في اختراع الاكاذيب الى حد لاتجاريها فيه صحافة بلاد أخرى من يوم مسئلة العقبة المشؤمة اذ رأى من بعض الصحف الوطنية شيأ من الحدة والحماس سماه تهيجا والمؤيد نفسه يعترف بأنه قد وجد شئ من التطرف الشديد في بعض صحفنا ولم يكن راضيا عنه . ولكننا نستسمح حلم جناب اللورد كرومر في أن نسأله السؤال الآتي وهو . لماذا اهتم جناب اللورد كرومر بهذا الجانب من خطة الصحف المحلية ولم يهتم بذلك الجانب الذى كان أشد تطرفا ضد الدولة العلية وكان يتكلم عنها كعدوة لدودة لمصر مشرفة على حرب معها . كان المقطم والبروجريه وغيرهما من الصحف المحازبة للاحتلال تتكلم على الدولة العلية فى ذلك الخلاف كما يتكلم أشد الصحف تطرفا وحماسة وتحقيرا بل كما تتكلم جرائد الاعداء عن دولة محاربة فتتوعدها بالقهر والغلب والتنكيل . وكان يظهر من كل عباراتها أنها تستقي الاخبار ساعة فساعة من الوكالة البريطانية . ونسيت هي أونسي جناب اللورد أن مصر لاتزال تحت سيادة الدولة العلية مهما وهنت أعلاق هذه السيادة . وان جلالة الخليفة العثماني يخطب باسمه كل جمعة على منابر المساجد . وأن القضاء الشرعي الجارى فى البلاد لايزال

تحت أمره فكل قضايا الاحوال الشخصية التى تعيش عليها العائلات فى منازلها يفصل في باسمه لانه مفيض الاذن بها على القضاة الحاكمين . فاذا أهمل جناب اللورد كرومر من أم الصحف مايجب عليها تجاه هذه العلائق القوية بين عواطف الامة المصرية وسلطان آ عثمان وترك للصحف التى تستمد النفوذ والرأى من الوكالة البريطانية تمثل الدولة العلية دو مغيرة محاربة لمصر وتدعو عليها بالويل والثبور فقد استفز عواطف الشعب الكامنة وهيّ خواطرهم وذكرهم بكل مابينهم و بين الدولة الملية من علائق السيادة

ألم يكن من حسن السياسة أن يهتم بخطة الجرائد التى تستظل برعايته الخصوصي وتستمد نفوذها من الوكالة البريطانية أن تراعى مايجب عليها مراعاته من عواطف الامة التي رابطتها بالدولة العلية الى هذا الحد عند ماتتكلم عنها وخصوصا فى خلاف من هذا القبيل

أليست الجرائد المسيحية التى تستمد نفوذها من الوكالة البريطانية هى التى بتمثيل الدولة العلية على أقبح صورة يمثلها العدو للعدو المحارب تستفز عواطف الامة المصر وتهيج خواطرها . أليست هى التى تذكرها بكل مابينها و بين الدولة العلية من الرو السياسية والملية بسوء لهجتها أليست هى التى أوجدت الميدان فسيحا لبعض الصحف الاسلام كى تتحمس وتطلق لنفسها العنان في مثل هذا الميدان

يقول اللورد كرومر اننا كنا فى ربيع العام الماضى على باب ثورة كبرى متوقعة من الشع بسبب تهيجات الصحف الاسلامية . ولو أنه أنصف فى حكمه وكان يقرأ الصحف المصر بعينيه لا بأذنيه لقال بسبب تهيجات بعض الصحف المسيحية وخصوصا التى أصحا يزعمون أن لهم ثارا قديما عند الدولة العلية ويريدون الانتقام . وان كلمة واحدة تصدر صحيفة مسيحية صنيعة للوكالة البريطانية في موضوع خلاف بين الدولة العلية وانكلت سلبا أشد وقعا على نفوس الشعب المصرى من ألف كلمة لصحيفة اسلامية فيه ايجابا خصو في مثل حادثة طابا التى لا تساوى مصلحة المصريين منها مهما عظمت قلامة ظفر من تل العلائق التى بينهم و بين الدولة وعلى الاخص لأنها كانت تحرص عليها لسلامة طري الحجاز الجديدة

ان اللورد كرومر لو اهتم من قديم الزمان بتقويم سلوك الجرائد التى تستمد نفوذ

ن الوكالة البريطانية وتعديل خططها التى تضرب بخشونتها الامثال والتى دأبت على أن
فاطب الناس كأنها ترميهم بالحجارة من مقالعها لاتبالى أن تنغص عليهم عيشهم في السراء
الضراء بما توهم أنه من تلقين الوكالة البريطانية وايعازاتها ـ انه لو فعل ذلك ووقى
لمصريين شر هؤلاء الفضوليين لا كتسب جماع الود من جوانح الشعب ولما ساء التفاهم
وما بين الوطنيين والمحتلين . ولكن تغافل جناب اللورد عن خطة هذا الفريق من الصحف
لمحلية واهماله ما كان ينبغى ملاحظته من ذلك أدخلا فى نفوس الناس أن من مأمورية
لاحتلال تحقير الدولة العلية ومس احساسات الامة فى علاقاتها معها ومع الاريكة الخديوية
رفى شعائر الامة وفي مظاهرها وفى كل حادثة تحدث ويكون لها ارتباط بالاحتلال
لو بألف واسطة

واهتم اللورد أيضا بمنع الجرائد المحلية الا ماهى من صنائع الوكالة البريطانية من الدخول
الى السودان فخالف بهذا المنع المبدأ الذى ينادى به على رؤس الاشهاد من ميله الى تعميم
حرية الصحف وتأييدها لان هذه الجرائد نفسها تدخل بلاد الحبشة وحكومة السودان
أقرب للمدنية وأقوى بأسا وأقدر على حفظ النظام وأهيب فى عيون الرعية من حكومة
لحبشة وفي الحبشة مسلمون يخشى بأسهم اذا تحركوا فما يمكن أن يخشى من الجرائد فيه
السودان يخشى منها كذلك فيه بالحبشة . وما أضيع الفائدة من هذا العمل على ان كل
قراء الجرائد المصرية في السودان أو جلهم من ضباط الجيش والموظفين المصريين الذين
لهم الحق أن يعرفوا أخبار بلادهم من جرائدهم فحرمانهم من قراءتها ظلم عظيم لهم

اهتم جنابه بكتمان الاخبار المهمة والنافعة عن الجرائد المحلية وسارت المصالح المصرية
على خطته في ذلك فلا ترى فى قلم المطبوعات للصحف المحلية الا ماهو من قبيل الاعلانات
التى لو اتفقت الجرائد على عدم نشرها لطلب منها نشرها بأجرة ـ بينما الاخبار المهمة
والحقائق الثمينة تعطى لمكاتبي جرائد أوربا فتنقلها الجرائد المحلية عنها نقلا

زار ادارة المؤيد منذ سنتين شخص انكليزي وطلب مقابلة صاحبه ومعه ورقة زيارة
اسم موظف كبير فى الوكالة البريطانية وقال انه مكاتب جريدة كذا في لندرة يريد أن
يعلم من أحوال مصر والمصريين مايود أن يبعث به الى جريدته فقلنا له أهلا وسهلا

وأ كبرنا هذه الدلالة التى تفضلت بها الوكالة وقلنا عساها علمت أن الرجل يريد أن يتعرف الحقيقة من جانب المصريين أنفسهم ؟ ؟ ولكننا مابدأنا نجيبه على بعض أسئلته حتى زاغ بصره وكان يشرب القهوة فوضع الفنجان الى جانب وعاد يسأل أين هو ـ واذا بسائق العربة التى أوصلته الينا قد أخطأ السمع فبدلا من أن يذهب به الى ادارة « المقطم » جاء به الى ادارة « المؤيد » .

ولذلك ما كاد يتحقق الرجل أين هو حتى قام بلا سلام ولا كلام مسرعا مهرولا الى العربة فامتطاها الى ادارة « المقطم » . فقلنا لولا مثل هذا ماساء التفاهم بين المصريين والانكليز . ولو أنهم عنوا بسماع مايقول المصريون دائما لاستطاعوا أن يوفقوا بين مصالح الفريقين . وكم رأينا حفاوة بمكاتبي الجرائد الاوربية فيفتح لهم كل باب مرتج ولكن ليروا بالعين التى يحبون أن ترى ويسمعوا بالاذن التي يرغبون أن تسمع وما ذلك الا لأن اللورد كرومر على جلال قدره وعلو منزلته فخور بذكر أعماله عاشق لحسن الصيت أبغض شيء لديه أن تلمز أعماله بكلمة كما أن أقدس شيء عنده أن تغنى الجرائد الكبرى في أوروبا والجرائد الصغرى في مصر بمدائحه

ونقول الصغرى لان الجرائد الافرنجية المحلية التى أطراها جناب اللورد في تقرير الاخير وتواضع لها كثيرا لاتحسب الا صغرى في جنب الجرائد العربية التى صب عليها جام غضبه حتى خيل لنا أنه سيأخذ بمجموعة نسخ منها يوم ٤ مايو المقبل ليشعل فيها النار بين يديه فى الأوبرة الخديوية خلال خطبته السياسية الكبرى فيصفق له الحاضرون تصفيقا مضاعفا

(المؤيد في ١٤ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ـ ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٤٩)

وداع اللورد كرومر

ودع حضرة شاعر مصر الكبير حافظ أفندى ابراهيم جناب اللورد كرومر بعد استقالته بهذه القصيدة الفيحاء التى بين اكرام الرجل عند رحيله وبين انصافه فيما أحسن ونقده فيما لم يحسن ولو أن قصيدته هذه كانت نثرا لكان أحسن من كتب ولكنها شعر فهو أرقى مايقول شاعر عربي فى هذا العصر

فتى الشعر هذا موطن الصدق والهدى ... فلا تكذب التاريخ ان كنت منشدا
لقد حان توديع العميد وانه ... حقيق بتشييع المحبين والعدا
فودع لنا الطود الذى كان شامخا ... وشيع لنا البحر الذى كان مزبدا
وزوّده عنا بالكرامة كلها ... وان لم يكن بالباقيات مزودا
فلم لا نرى الاهرام يانيل ميدا ... وفرعون عن واديك مرتحل غدا
كأنك لم تجزع عليه ولم تكن ... ترى فى حمى فرعون أمنا ولا جدا

***

سلام ـ ولو انا نسىء الى الاولى ... أساؤا الينا ـ ما مددنا لهم يدا
سنطري أياديك التى قد أفضتها ... علينا فلسنا أمة تجحد اليدا
أمنا فلم يسلك بنا الخوف مسلكا ... ونمنا فلم يطرق لنا الذعر مرقدا
وكنت رحيم القلب تحمي ضعيفنا ... وتدفع عنا حادث الدهر ان عدا
ولولا أسى في دنشواى ولوعة ... وفاجعة أدمت قلوبا وأكبدا
ورميك شعبا بالتعصب غافلا ... وتصويرك الشرقى غرا مجردا
لذبنا أسى يوم الوداع لاننا ... نرى فيك ذاك المصلح المتوددا

***

تشعبت الآراء فيك فقائل ... أفاد الغنى أهل البلاد وأسعدا
وكانت له في المصلحين سياسة ... ترخص فيها تارة وتشددا
رأى العز كل العز في بسطة الغنى ... فحارب جيش الفقر حتى تبددا
وأمتعكم بالنيل فهو مبارك ... على أهله خصباً وريا وموردا
وسن لكم حرية القول عند ما ... رأى القول في أسر السكوت مقيدا
وآخر لم يقصر على المال همه ... يرى ان ذاك المال لا يكفل الهدى
فلا يحمد الاثراء حتى يزينه ... بعلم وخير العلم ما كان مرشدا

***

يناديك قد أزريت بالعلم والحجى ... ولم تبق للتعليم يالورد معهدا

وانك أخصبت البـلاد تعللا وأجدبت في مصر العقول تعمدا
قضيت على أم اللغـات وانه قضاء علينا أوسبيل الى الردى
حططت عليها ربع قرن بعزمة وأرصدت دنلوبًا لهـا فترصدا
ووافيت والقطران في ظل راية فما زلت بالسودان حتى تمردا
فطاح كما طاحت مصوع بعده وضاعت مساعينا بأطماعكم سدى
حجبت ضياء الصحف عن ظلماته ولم تستقل حتى حجبت (المؤيدا)
وأودعت تقرير الوداع مغامزا رأينا جفاء الطبع فيها مجسدا
غمزت بها دين النـبي واننا لنغضب ان أغضبت في القبر أحمدا

* * *

يناديك أين النابغون بعهدكم وأى بناء دارس قـد تجـددا
فما عهد اسماعيل والعيش ضيق بأجدب من عهد لكم سال عسجدا
يناديك وليت الوزارة هيئة من الصم لم تسمع لاصواتنا صدى
فليس بها عند التشاور من فتى أبيّ اذا ما أصدر الامر أوردا
بربك ماذا صدنا ولوى بنا عن القصد ان كان السبيل ممهدا
أشرت برأى في كتابك لم يكن سديداً ولكن كان سهما مسـددا
وحاولت اعطاء الغريب مكانة تجر علينا الويل والذل سرمـدا
فياويل مصر يوم تشق بندوة يبيت بها ذاك الغـريب مسودا
ألم يكفنا أنا سلبنا ضياعنا على حين لم نبلغ من الفطنة المدى
وزاحمنا فى العيش كل ممارس خبـير وكنا جاهلـين ورقـدا
وما الشركات السود فى كل بلدة سوى شرك يلقى به من تصيدا

* * *

فهذا حديث الناس والناس ألسن اذا قال هـذا صاح ذاك مفندا
ولو كنت من أهل السياسة بينهم لأفردت لى رأيا وبينت مقصـدا
ولـكننى فى معرض القول شاعر أضاف الى التاريخ قولا مخـلدا

فيا أيها الشيخ الجليل تحية ... ويا أيها القصر المنيف تجلدا
لئن غاب هذا الليث عنك لعلة ... لقد لبثت آثاره فيك شهدا

(المؤيد فى ١٤ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ــ ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٤٩)

٥

تقارير اللورد كرومر

مافتىء اللورد كرومر منذ عين معتمداً لدولتـه في مصر وهو يكتب التقارير الطوال لحكومته عن أحوال هذه البلاد ونتائج أعماله فيها . ولكنه منذ سنوات أخـذ يتوسع فيها ويزيد في أبوابها وفصولها وملحقاتها كثيراً حتى صار كل تقرير سنوى منها أشـبه بكتاب كبير الحجم

وللتقارير الرسمية من هذا القبيل فوائد حاضرة وأخرى مستقبلة . أما الحاضرة فهي اطلاع الحكومة التى ترفع لها على ماجريات الاعمال التى عنى ببيانها فيه على الاسلوب الذي يختاره كاتبها وبالتالى اطلاع كل من يقرؤها على مافيها . وأما المستقبلة فهي علاقة التاريخ بالماضي وحظها منه حظها من مطابقة الحقائق فيما حوته من الاخبار والافكار

ونحن لانبحث فى هذه التقارير من جهة التناقض الذى اشتملت عليه فان الذى يطلب الثبات على قول واحد من سـياسى انما يطلب من الماء جذوة نار وخصوصاً اذا كان هذا لسياسى مستعمراً لان المستعمر متحيل فى الاقوال والافعال يتحين الفرص لاختطافها تارة ويخضع لحكم الظروف عند قسرها أخرى

فلا يقال ــ لماذا صرح اللورد كرومر في كل تقاريره الماضية التى ذكر فيها الاحتلال وأجله أنه موقت لابد له من نهاية ولو آجلا. وفي تقريره الاخير قال ان الاحتلال دائم لان الحكومة البريطانية بعد الوفاق الانكليزى الفرنساوي المعقود في سنة ١٩٠٤ لاتقصد العمل بما لها من السلطة الاختيارية لاخراج الحامية البريطانية من مصر » . ولا لماذا قال فى تقريريه لسنتي ١٨٩١ و ١٨٩٢ ان اشراف نفوذ الخديو على الاعمال والمصالح ضرورى

جدا لسير الاعمال ثم هو فى تقريره لسنتى ١٩٠٥ و ١٩٠٦ أبدى الحذر الشديد من أن تساعد مصر على اعطائها هيئة نيابية لان ذلك يعيد السلطة الشخصية التى جرت الشر والشؤم على البلاد منذ عهد غير بعيد . وانما الفرق أن هذه السلطة الشخصية تكون بصورة أخرى غير الصورة الاولى . ولا لماذا قال في تقريره لسنة ١٩٠٥ « ان الخديو الاسبق اسماعيل باشا قد ارتكب الخطأ القتال في حصر كل السلطة والقوة بيده » ثم انه حصر هذه السلطة في يده أضعاف ماعمل اسماعيل وكل حرف من تقاريره دليل على ذلك . ولا لماذا قال في تقاريره السابقة عن الصحافة المصرية خلاف ماقال في تقريره الاخير عكسا تاما ولا . ولا . ولا . الخ مما ربما أفردنا له مقالة على حدتها في غير سلسلة هذه المقالات التى نحن بصددها خصوصا وان السياسي الماهر قادر أن يعتل لكل قول قاله بعلة ويقول لكل مقام مقال

ولكننا نقول انه بتقاريره هذه قد غرس في أذهان الملوك والامراء والوزراء والامم أن الامة المصرية متعصبة وحشية شرسة لارأى لها ولااستعداد فيها فلا تصلح للاستقلال بحال من الاحوال أى أن الامة المصرية في رأى جنابه جامدة غير متحركة ولاقابلية عندها للارتقاء .

سجل جنابه في تقاريره على المصريين عدم كفاءتهم بحكم الطبيعة التى خلقوا عليها والجمود الديني الذى عندهم لان الشريعة الاسلامية مخالفة لروح المدنية الحاضرة.

كانت مصر عنده وطنا خاصا بالمصريين ولكنه في تقريره الاخير غضب عليهم فلم يرد أن يجعل لهم وطنا خاصا بهم فذهب الى أن مصر يجب أن تكون لجميع العناصر فيها لهم منها حقوق كل وطنى من وطنه مع بقاء الامتيازات الاجنبية لنزلائها وهو مالم يحفظه التاريخ عن مشرع في حقوق الدول والشعوب والافراد في وطن من الاوطان — اساآت خالدة مابقيت تقاريره فى الوجود . اساآت لاتقف عند حد القراءة ولكنها تثبت في نفوس الاوربيين أن المصريين على ماوصفهم به اللورد في تقاريره وهم يزعمون أن وراء كل تقرير سنوات كثيرة من الاختبار . اساآت أعطى بها اللورد خصوم مصر والمصريين سلاحا حادا يحاربونها به في كل زمان ولو بعد السلطة الكرومرية

والعقلاء يؤملون أن يجري جناب السير غورست المعتمد الجديد على خطة اللين والمواساة ومداراة العواطف بدل تلك الجافاة التي سار عليها سلفه في الزمن فيجيبها الى مطالبها تدريجا واذ ذاك يمحو عنها في المستقبل تلك التهم الشنيعة التي ألصقها بها سلفة في تقاريره حيث يعلم الناس قاطبة أن الشعب المصرى قابل للترقى والكمال اذا وجد من يدبر أموره باللطف والانعطاف . فقد كان اللورد كرومر يحاول منذ ٢٥ سنة أن يصفق بيد واحدة ولكنه بعد انقضاء هذا الزمن الطويل عجز عن ادراك ماأراد

فاذا صفق المعتمد الجديد بيدين بدلا من واحدة ـ اذا بسط يده للامة مستعينا بيدها ـ اذا قال لها انى آت من قبل ملكى وحكومتى وأمتى لاساعدكم على الارتقاء وأمهد لكم الوسائل لاعلان كفاءتكم الذاتية ـ واذا أعرض عن وشايات الواشين ونظر الى الاشياء والاشخاص بالعين المجردة وكسر تلك النظارات الملونة ـ اذا فعل كل هذا فان صدى تصفيق السرور والارتياح من عمله يكون قويا مسموعا في العالم كله واصلا الى أعماق قلوب المصريين . وهذه الامة التى عجزت عن تحريكها الجرائد وزيارات كبار الموظفين والاعيان للتظاهر بما لاتشعر به فى وداع جناب اللورد كرومر تهب عن بكرة أبيها محتفلة بالسير غورست أينما توجه شاكرة فضله بصوت جهورى

ليس بين المصريين والانكليز دماء يريد الاولون أن يثأروا لها . وليست انكلترا عدوة لمصر ولا الشعب المصرى كفورا للجميل والمعروف ولكنه أمة حساسة شديدة الشعور لينة العواطف ولكن اذا تسلط عليها مستبد قادر وهى عاجزة عن دفع استبداده بالوسائل الممكنة السائغة لها اكتفت بالحق الصريح الممنوح بالطبع لكل ضعيف تجاه السلطة القاهرة ـ وهو الانقباض عنه وملازمة السكون عند مايراد من شيعته اكرامه وتمجيده



الا أن لهجة اللورد كرومر العنيفة الشديدة الجفاء والايلام فى تقاريره وخصوصا الاخير منها قد جرأت الصحف الانكليزية على اتخاذ مثلها في مخاطبة أمير البلاد والامة أيضا فصار سهلا على تلك الصحف متى أرادت أن تحمل على مصر والمصريين وكفاءتهم ومبادئهم وعاداتهم الملية والقومية حملات العدو القادر على الضعيف المنهوكة قواه والموطوءة

بالاقدام حقوقه بعد ما كانوا بالامس يراعون الامـة الاسلاميـة و يحرصون على ولائها علما منهم أن سلطان دولتهم قائم على أساس أقوى قواعده من هذه الامة

ونحن نرجو أنه متى استقر اللورد في قصره الانكليزي و رجعت له عواطف الانكليز الشريفة ومبادئه الانسانية العالية وحاسبته ذمته النقية فراجع مجموعة تقاريره عن مصر وجد فيها من منازعات ضميره ما يحمله على الندم وتحقق أنه لم ينصف نفسه ولم ينصف الامة التي كتبت عنها — لم ينصف نفسه لاننا نحن معاشر المصريين نذكر لجنابه أنه أحسن كثيرا في الافعال وأساء أكثر في الاقوال فلو أنه لم يخلد تلك الاساآت القولية في بطون تواريخه ماذكر له المصريون غير حسنات أفعاله ولكنه كان بمثابة الذي يتصدق ويتبع صدقاته بالمن والاذى أو بمثابة الذي يطعم الجائع و يلعنه في وقت واحـد ولو أن لسانه لم ينطق باللعنات لترك الذين أطعمهم وتصدق عليهم يسبحون بحمده و يمجدونه — ولم ينصف الامـة لانه ظلمها بمـا كتبه في تقاريره عن تعصبها و جمودها وفساد طبيعتها و بما اقترح لها من المضار الاجتماعية التي لا تجتمع في وطن واحد

ان التاريخ سيمحص تقاريره فيجد فيها اختلافا عظيما يدل دلالة واضحة على ان كاتبها كان في حيرة مما يريد أن يسطر فيكتب عن غير هدى ولا اختبار ولا علم كاف بحقائق الاحوال . ولكن الذي كان يغطي كل هذه العيوب فيها ما لاسمه وهو على عرش سلطته من العظمة ولاوامره من النفوذ فتى زال حجاب هـذه العظمة ومزق الزمان ستار النفوذ وذهبت ترهات المنافقين من حولهـا ظهرت تلك العيوب مجسمة وأخذ النـاس يحكمون عليه حكمًا جديدا وتكون هذه التقارير أكبر جان عليه .

(المؤيد في ١٥ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ــ٢٨ ابريل سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٥٠)

٦
لو كنت اللورد كرومر

ا امس
ب غدا

انا اذا انتقدنا سياسة اللورد كرومر فلسنا ندعى اننا أدرى بأسرار السياسة الانكليزية في مصر منه كذلك ليس بين الكتاب فى الشرق والغرب من يزعم أنه محيط بأسرار سياسات الدول العمومية أو عظماء رجالها . ولكن ذلك لايمنع الكاتبين أن ينتقدوا سياستهم من الجانب الذى يبدو لهم

وعلى هذا فلنا الحق أن نبحث في أعمال الرجل العظيم ولنا الحق أن ننتقد منها ما لا يبدو لنا وجه الحكمة فيه أو ماتظهر نتائجه مضرة لنا أو للغير ويجوز أن يكون رأينا هو الصواب لان هذا الرجل العظيم الذى ننظر الى ماضى أعماله في بلادنا انما كان يعمل وهو محاط بظروفه ومؤثراته ونحن ننظر الى عمله خالين من تلك المؤثرات والظروف

والذى يسوّغ لنا هذا الانتقاد هو اننا نفرض مصلحة مصر مرادة للورد في كل مايجرى على يديه خصوصا وقد أعلنوا مراراً أن مهمة الاحتلال في وادى النيل العمل لترقية سكانه واصلاح شؤونهم حساً ومعنى وان مصلحة انكلترا في مصر قبل كل شئ القيام بتلك المهمة السامية خير قيام

فلو كنت اللورد كرومر على هذا الفرض لكان لى رأي فى كيف أدير أمور القطر المصرى أمس وكيف أفيده غداً بعد استقالتي . لو كنت اياه وساعدنى الحظ الأوفر أن أجد من حكومتي تلك المنحة العظمي التى منحتها حكومته اياه فأعطي حرية التصرف التامة واطلاق العنان في كل ماأريد الى حد أني اذا أردت منها معونة أستصدر منها الاوامر التى أبعث لها صورتها بالنص فتعود الىّ ممضاة بامضاء وزير الخارجية مطرزة بالسلطة القوية التى استمدها منه ولو الى درجة اعداد الاساطيل ـ لو كنت اياه من كل وجه لجريت على الخطة

الآتية . وهي ان أضع نصب عيني قبل كل شئ درس أخلاق الامة المصرية وعاداتها وتقاليدها حتى اذا عرض لى في المستقبل مايقتضي التردد بين سياستين اخترت بحكم الخبرة التامة أفضلهما وجئت الامة من حيث أستهوى أميالها واتخذها عضداً لى في كل أعمالى

أما جناب اللورد فقد جلس في داره بالاسماعيلية أولا وقصر الدوبارة ثانيا وأخذ يتعرف أحوال الامة وأخلاقها بواسطة بضعة أشخاص اتخذهم لاستطلاع الاخبار الذى صار على مر الزمان حرفة لهم اختصوا بها كما خصهم بثقته فصاروا عينه التي ينظر بها وأذنه التي يسمع بها بل وخياشيمه التى يشم روائح الاشياء بواسطتها . فلما أصبحوا كالحجاب ببابه انحصر علمه فى كل شيء من هذا الباب وصار من مصلحتهم الخصوصية ان وصل اليه من غيرهم كلام تولوا شرحه وتأويله وأضافوا اليه الحواشى والهوامش حتى ينمحى كل أثر عنده لغيرهم. وكان لسوء حظ المصريين بعض أصحاب اخباره من أصحاب الصحف المتزلفة المحابية فانتهى بجناب اللورد أن كان ينظر أحوال الامة كلها بنظارات ملونة بالغايات والاغراض الخصوصية فرآها متعصبة جاهلة لا يليق بها غير العنف وقد فعل ولم يرفع تلك النظارة عن عينيه ساعة واحدة مدة ٢٤ سنة

فلو كنت اللورد كرومر وأحطت علما بكثير من أسرار تواريخ تقدم الامم وأسباب ارتقائها التى من أهمها وأفضلها رفع نير الجهالة عن أعناقها ـ لمنحت مصر يدا عالية من التعليم الصحيح . ولو أنه تمكن فى مدى ربع القرن الماضي (وهو أكبر زمن لحضانة العلم في رأى فلاسفة العمران) من نشر العلم كما يجب وتسهيله على ناشئة الامة كما ينبغى لوجد الآن أمة متعلمة في مجموعها تستطيع أن تقدر خدماته الجليلة التي يدعيها له أنصاره الآن كاملة من كل وجه ـ أمة عالمة بمصيرها لو عارضته كانت معارضتها له خيرا من محاباة الجاهلين

بل لو كنت اللورد كرومر لفعلت مافعله الاحرار في وزارتهم الحاضرة فانهم بعد ماحاربت أمتهم الترنسفال ثلاث سنوات وبعد ماوضعت الحرب أوزارها وألقى البوير سلاحهم بين يدى أعدائهم الاشداء مسلمين لم يروا من مصلحة بريطانيا العظمى أن ينتقموا لها من خصمهم الذى تجرأ على قتالها غير أهل لذلك بل رحبوا بهذا الخصم بعد تقرير السلام .وفي أقل من عامين منحوهم استقلالهم الادارى مظهرين لهم وللعالم بأسره أنهم لم يحاربوهم منتقمين

ليسحقوهم سحقا ولا ليذهبوا بقوميتهم من الوجود ولا ليجعلوا بلادهم غنيمة للشاردين والواردين. فأكدوا بالبرهان المحسوس أنهم لم يضمروا لهم سوى الخير وان سفك دماء الالوف من جنود الانكليز لم يحل دون منح هذه الامة حقها الصريح

أما جناب اللورد فقد جاء مصر بعد فتنة صغيرة لم يذهب فيها من عساكر الانكليز أكثر مما يذهب فى غرق سفينة اصطدمت بصخر في البحر - ثم أقام فيها مدى ربع قرن يبعد قلوب المصريين عن المحتلين كلما اقتربت ويدخل على الناشئين اليأس كلما نبض في نفوسهم عرق من الرجاء ويلاشى شيئاً فشيئاً الثقة بمواعيد أسلافه وحكومته حتى الساعة الاخيرة من وجوده في قصر ملكه

لو كنت اللورد كرومر لاقمت ولو برهانا واحدا على اقتدارى السياسي كما أقمت ألف برهان وبرهانا على اقتدارى المالى - لاوجدت في الزمن الطويل الذى أقمته في مصر لكل وظيفة مرشحين لها حتى لاتذهب الوظيفة بعد الوظيفة من أيديهم بحجة انه ليس فى مصر اكفاء للوظائف الكبرى - اقللت ما أمكن من استخدام الانكليز وخصوصا غير الاكفاء منهم للوظائف التى يتولونها فيضعون من فوائدها فى مدي التجربة الطويلة اضعاف مايفيدونها به بعد الالمام بواجباتها بدلا من ان أصيرها انكليزية في الغالب حتى أن بعض المصالح - كمصلحة الصحة - لم يبق فيها عامل مصرى الا صغار الكاتبين

لو كنت اللورد كرومر لماختمت أعمالى فى مصر بهذا التقرير الاسود الذى كله تناقض وتحامل وسباب للمصريين وقضاء شرعليهم بالجمود الذاتي وغمز لدينهم وطعن على أخلاقهم وآدابهم ومبادئهم حتى اضطررت أن أرى من مصلحتى بعد ماحم القضاء أن لا يظهر فى مصر قبل سفرى مترجماً مجسما بالعربية في كتاب واحد تتناوله اليد وتجول بين أوله وآخره العين - وهذا سر عدم صدوره الى الآن من ادارة المقطم ونشره بين الناس كيلا يهيج مافيه غضب المصريين - وليس العذر فى التأخير تراكم الاشغال الذى أصبح واهنا الآن بعد مامضى عليه نحو شهر من الزمان

وأ كبرنا هذه الدلالة التى تفضلت بها الوكالة وقلنا عساها علمت أن الرجل يريد أن يتعرف الحقيقة من جانب المصريين أنفسهم ؟ ؟ ولكننا مابدأنا نجيبه على بعض أسئلته حتى ز بصره وكان يشرب القهوة فوضع الفنجان الى جانب وعاد يسأل أين هو ـ واذا بـ العربة التى أوصلته الينا قد أخطأ السمع فبدلا من أن يذهب به الى ادارة « المقطم » ذ به الى ادارة « المؤيد » .

ولذلك ما كاد يتحقق الرجل أين هو حتى قام بلا سلام ولا كلام مسرعا مهرو الى العربة فامتطاها الى ادارة « المقطم » . فقلنا لولا مثل هذا ماساء التفاهم بين المصري والانكليز . ولو أنهم عنوا بسماع مايقول المصريون دائما لاستطاعوا أن يوفقوا مصالح الفريقين . وكم رأينا حفاوة بمكاتبي الجرائد الاوربية فيفتح لهم كل باب م ولكن ليروا بالعين التى يحبون أن ترى ويسمعوا بالاذن التى يرغبون أن تسمع وما ذا الا لأن اللورد كرومر على جلال قدره وعلو منزلته فخور بذكر أعماله عاشق لحسن الصي أبغض شيء لديه أن تلمز أعماله بكلمة كما أن أقدس شيء عنده أن تغنى الجرائد الكبر في أوربا والجرائد الصغرى في مصر بمدائحه

ونقول الصغرى لان الجرائد الافرنجية المحلية التى أطراها جناب اللورد في تقري لاخير وتواضع لها كثيرا لاتحسب الا صغرى في جنب الجرائد العربية التى صب عليها غضبه حتى خيل لنا أنه سيأخذ بمجموعة نسخ منها يوم ٤ مايو المقبل ليشعل فيها النار بين ي فى الأوبرة الخديوية خلال خطبته السياسية الكبرى فيصفق له الحاضرون تصفيقا مضاعفا

(المؤيد في ١٤ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ـ ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٤٩)

وداع اللورد كرومر

ودع حضرة شاعر مصر الكبير حافظ أفندى ابراهيم جناب اللورد كرومر بعد استقا بهذه القصيدة الفيحاء التى بين اكرام الرجل عند رحيله وبين انصافه فيما أحسن وذ فيما لم يحسن ولو أن قصيدته هذه كانت نثرا لكان أحسن من كتب ولكنها شعر فه أرقى مايقول شاعر عربي فى هذا المصر

فتى الشعر هذا موطن الصدق والهدى   فلا تكذب التاريخ ان كنت منشدا
لقد حان توديع العميد وانه   حقيق بتشييع المحبين والعدا
فودع لنا الطود الذى كان شامخا   وشيع لنا البحر الذى كان مز بدا
وزوده عنا بالكرامة كلها   وان لم يكن بالباقيات مزودا
فلم لانرى الاهرام يانيل ميدا   وفرعون عن واديك مرتحل غدا
كأنك لم تجزع عليه ولم تكن   ترى فى حمى فرعون أمنا ولاجدا

* * *

سلام ـ ولو انا نسيء الى الاولى   أساؤا الينا ـ ما مددنا لهم يدا
سنطري أياديك التى قد أفضتها   علينا فلسنا أمة تجحد اليدا
أمنا فلم يسلك بنا الخوف مسلكا   ونمنا فلم يطرق لنا الذعر مرقدا
وكنت رحيم القلب تحمي ضعيفنا   وتدفع عنا حادث الدهر ان عدا
ولولا أسى في دنشواى ولوعة   وفاجعة أدمت قلوبا وأكبدا
ورميك شعبا بالتعصب غافلا   وتصويرك الشرقى غرا مجردا
لذبنا أسى يوم الوداع لاننا   نرى فيك ذاك المصلح المتوددا

* * *

تشعبت الآراء فيك فقائل   أفاد الغنى أهل البلاد وأسعدا
وكانت له في المصلحين سياسة   ترخص فيها تارة وتشددا
رأى العز كل العز في بسطة الغنى   فحارب جيش الفقر حتى تبددا
وأمتعكم بالنيل فهو مبارك   على أهله خصبا وريا وموردا
وسن لكم حرية القول عندما   رأى القول في أسر السكوت مقيدا
وآخر لم يقصر على المال همه   يرى ان ذاك المال لايكفل الهدى
فلا يحمد الاثراء حتى يزينه   بعلم وخير العلم ما كان مرشدا

* * *

يناديك قد أزريت بالعلم والحجى   ولم تبق للتعليم يالورد معهدا

وانك أخصبت البـلاد تعللا   وأجدبت في مصر العقول تعمدا
قضيت على أم اللغـات وانه   قضاء علينا أوسبيل الى الردى
حططت عليها ربع قرن بعزمة   وأرصدت دنلوبًا لهـا فترصدا
ووافيت والقطران في ظل راية   فمـا زلت بالسودان حتى تمردا
فطاح كما طاحت مصوع بعده   وضاعت مساعينا بأطماعكم سدى
حجبت ضياء الصحف عن ظلماته   ولم تستقل حتى حجبت (المؤيدا)
وأودعت تقرير الوداع مغامزا   رأينا جفاء الطبع فيها مجسدا
غمرت بها دين النبي واننا   لنغضب ان أغضبت في القبر أحمدا

***

يناديك أين النابغون بعهدكم   وأي بناء دارس قـد تجـددا
فما عهد اسماعيل والعيش ضيق   بأجدب من عهد لكم سال عسجدا
يناديك وليت الوزارة هيئة   من الصم لم تسمع لاصواتنا صدى
فليس بها عند التشاور من فتى   أبيّ اذا ما أصـدر الامر أو ردا
بربك ماذا صـدنا ولوى بنا   عن القصد ان كان السبيل ممهدا
أشرت برأى في كتابك لم يكن   سديداً ولكن كان سهما مسـددا
وحاولت اعطاء الغريب مكانة   تجر علينا الويل والذل سرمـدا
فياويل مصر يوم تشقى بندوة   يبيت بها ذاك الغـريب مسودا
ألم يكفنا أنا سلبنا ضياعنا   على حين لم نبلغ من الفطنة المدى
وزاحمنا فى العيش كل ممارس   خبـير وكنا جاهلـين ورقـدا
وما الشركات السود فى كل بلدة   سوى شرك يلقى به من تصيـدا

***

فهذا حديث الناس والناس ألسن   اذا قال هـذا صاح ذاك مفندا
ولو كنت من أهل السياسة بينهم   لافردت لى رأياو بينت مقصـدا
ولـكننى فى معرض القول شاعر   أضاف الى التاريخ قولا مخـلدا

فيا أيها الشيخ الجليل تحية　　ويا أيها القصر المنيف تجلدا
لئن غاب هذا الليث عنك لعلة　　لقد لبثت آثاره فيك شهدا

(المؤيد فى ١٤ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ـ ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٤٩)



تقارير اللورد كرومر

مافتىء اللورد كرومر منذ عين معتمداً لدولتــه في مصر وهو يكتب التقارير الطوال لحكومته عن أحوال هذه البلاد ونتائج أعماله فيها . ولكنه منذ سنوات أخذ يتوسع فيها ويزيد في أبوابها وفصولها وملحقاتها كثيراً حتى صار كل تقرير سنوى منها أشبه بكتاب كبير الحجم

وللتقارير الرسمية من هذا القبيل فوائد حاضرة وأخرى مستقبلة . أما الحاضرة فهي اطلاع الحكومة التى ترفع لها على ماجريات الاعمال التى غنى ببيانها فيه على الاسلوب الذي يختاره كاتبها وبالتالى اطلاع كل من يقرؤها على مافيها . وأما المستقبلة فهي علاقة التاريخ بالماضي وحظها منه حظها من مطابقة الحقائق فيما حوته من الاخبار والافكار

ونحن لانبحث فى هذه التقارير من جهة التناقض الذى اشتملت عليه فان الذى يطلب الثبات على قول واحد من سياسى انما يطلب من الماء جذوة نار وخصوصاً اذا كان هذا السياسى مستعمراً لان المستعمر متحيل فى الاقوال والافعال يتحين الفرص لاختطافها تارة ويخضع لحكم الظروف عند قسرها أخري

فلا يقال ــ لماذا صرح اللورد كرومر في كل تقاريره الماضية التى ذكر فيها الاحتلال وأجله أنه مؤقت لابد له من نهاية ولو آجلا. وفي تقريره الاخير قال ان الاحتلال دائم لان الحكومة البريطانية بعد الوفاق الانكليزى الفرنساوي المعقود في سنة ١٩٠٤ لاتقصد العمل بما لها من السلطة الاختيارية لاخراج الحامية البريطانية من مصر » . ولا لماذا قال فى تقريريه لسنتى ١٨٩١ و ١٨٩٢ ان اشراف نفوذ الخديو على الاعمال والمصالح ضرورى

جدا لسير الاعمال ثم هو فى تقريريه لسنتى ١٩٠٥ و ١٩٠٦ أبدى الحذر الشديد من أن تساعد مصر على اعطائها هيئة نيابية لان ذلك يعيد السلطة الشخصية التى جرت الشر والشؤم على البلاد منذ عهد غير بعيد . وانما الفرق أن هذه السلطة الشخصية تكون بصورة أخرى غير الصورة الاولى . ولا لماذا قال في تقريره لسنة ١٩٠٥ « ان الخديو الاسبق اسماعيل باشا قد ارتكب الخطأ القتال في حصر كل السلطة والقوة بيده » ثم انه حصر هذه السلطة في يده أضعاف ماعمل اسماعيل وكل حرف من تقاريره دليل على ذلك . ولا لماذا قال في تقاريره السابقة عن الصحافة المصرية خلاف ماقال في تقريره الاخير عكسا تاما ولا . ولا . ولا . الخ مما ربما أفردنا له مقالة على حدتها في غير سلسلة هذه المقالات التى نحن بصددها خصوصا وان السياسي الماهر قادر أن يعتل لكل قول قاله بعلة ويقول لكل مقام مقال

ولكننا نقول انه بتقاريره هذه قد غرس في أذهان الملوك والامراء والوزراء والام أن الامة المصرية متعصبة وحشية شرسة لارأى لها ولااستعداد فيها فلا تصلح للاستقلال بحال من الاحوال أى أن الامة المصرية في رأى جنابه جامدة غير متحركة ولاقابلية عندها للارتقاء .

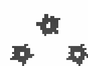
سجل جنابه في تقاريره على المصريين عدم كفاءتهم بحكم الطبيعة التى خلقوا عليها والجمود الدينى الذى عندهم لان الشريعة الاسلامية مخالفة لروح المدنية الحاضرة.

كانت مصر عنده وطنا خاصا بالمصريين ولكنه في تقريره الاخير غضب عليهم فلم يرد أن يجعل لهم وطنا خاصا بهم فذهب الى أن مصر يجب أن تكون لجميع العناصر فيها لهم منها حقوق كل وطنى من وطنه مع بقاء الامتيازات الاجنبية لنزلائها وهو مالم يحفظه التاريخ عن مشرع في حقوق الدول والشعوب والافراد في وطن من الاوطان — اساآت خالدة مابقيت تقاريره فى الوجود . اساآت لاتقف عند حد القراءة ولكنها تثبت في نفوس الاوربيين أن المصريين على ماوصفهم به اللورد في تقاريره وهم يزعمون أن وراء كل تقرير سنوات كثيرة من الاختبار . اساآت أعطى بها اللورد خصوم مصر والمصريين سلاحا حادا يحاربونها به في كل زمان ولو بعد السلطة الكرومرية

والعقلاء يؤملون أن يجري جناب السير غورست المعتمد الجديد على خطة اللين والمواساة ومداراة العواطف بدل تلك المجافاة التي سار عليها سلفه في الزمن فيجيبها الى مطالبها تدريجا واذ ذاك يمحو عنها في المستقبل تلك التهم الشنيعة التي ألصقها بها سلفه في تقاريره حيث يعلم الناس قاطبة أن الشعب المصري قابل للترقي والكمال اذا وجد من يدبر أموره باللطف والانعطاف . فقد كان اللورد كرومر يحاول منذ ٢٥ سنة أن يصفق بيد واحدة ولكنه بعد انقضاء هذا الزمن الطويل عجز عن ادراك ماأراد

فاذا صفق المعتمد الجديد بيدين بدلا من واحدة ـ اذا بسط يده للامة مستعينا بيدها ـ اذا قال لها انني آت من قبل ملكي وحكومتي وأمتي لاساعدكم على الارتقاء وأمهد لكم الوسائل لاعلان كفاءتكم الذاتية ـ واذا أعرض عن وشايات الواشين ونظر الى الاشياء والاشخاص بالعين المجردة وكسر تلك النظارات الملونة ـ اذا فعل كل هذا فان صدى تصفيق السرور والارتياح من عمله يكون قويا مسموعا في العالم كله واصلا الى أعماق قلوب المصريين . وهذه الامة التي عجزت عن تحريكها الجرائد وزيارات كبار الموظفين والاعيان للتظاهر بما لا تشعر به في وداع جناب اللورد كرومر تهب عن بكرة أبيها محتفلة بالسير غورست أينما توجه شاكرة فضله بصوت جهوري

ليس بين المصريين والانكليز دماء يريد الاولون أن يثأروا لها . وليست انكلترا عدوة لمصر ولا الشعب المصري كفورا للجميل والمعروف ولكنه أمة حساسة شديدة الشعور لينة العواطف ولكن اذا تسلط عليها مستبد قادر وهي عاجزة عن دفع استبداده بالوسائل الممكنة السائغة لها اكتفت بالحق الصريح الممنوح بالطبع لكل ضعيف تجاه السلطة القاهرة ـ وهو الانقباض عنه وملازمة السكون عند مايراد من شيعته أكرامه وتمجيده



الا أن لهجة اللورد كرومر العنيفة الشديدة الجفاء والايلام في تقاريره وخصوصا الاخير منها قد جرأت الصحف الانكليزية على اتخاذ مثلها في مخاطبة أمير البلاد والامة أيضا فصار سهلا على تلك الصحف متى أرادت أن تحمل على مصر والمصريين وكفاءتهم ومبادئهم وعاداتهم الملية والقومية حملات العدو القادر على الضعيف المنهوكة قواه والموطوءة

بالاقدام حقوقه بعد ما كانوا بالامس يراعون الامـة الاسلاميـة و يحرصون على ولائها علما منهم أن سلطان دولتهم قائم على أساس أقوى قواعده من هذه الامة

ونحن نرجو أنه متى استقر اللورد في قصره الانكليزي و رجعت له عواطف الانكليز الشريفة ومبادئه الانسانية العالية وحاسبته ذمته النقية فراجع مجموعة تقاريره عن مصر وجد فيها من منازعات ضميره ما يحمله على الندم وتحقق أنه لم ينصف نفسه ولم ينصف الامة التي كتبت عنها — لم ينصف نفسه لاننا نحن معاشر المصريين نذكر لجنابه أنه أحسن كثيرا في الافعال وأساء أكثر في الاقوال فلو أنه لم يخلد تلك الاساآت القولية في بطون تواريخه ماذكر له المصريون غير حسنات أفعاله ولكنه كان بمثابة الذي يتصدق ويتبع صدقاته بالمن والاذى أو بمثابة الذى يطعم الجائع و يلعنه في وقت واحـد ولو أن لسانه لم ينطق باللعنات لترك الذين أطعمهم وتصدق عليهم يسبحون بحمده و يمجدونه — ولم ينصف الامـة لانه ظلمها بمـا كتبه في تقاريره عن تعصبها و جمودها وفساد طبيعتها و بما اقترح لها من المضار الاجتماعية التي لا تجتمع فى وطن واحد

ان التاريخ سيمحص تقاريره فيجد فيها اختلافا عظيما يدل دلالة واضحة على ان كاتبها كان في حيرة مما يريد أن يسطر فيكتب عن غير هدى ولا اختبار ولا علـم كاف بحقائق الاحوال . ولكن الذى كان يغطى كل هذه العيوب فيها ما لاسمه وهو على عرش سـلطته من العظمة ولاوامره من النفوذ فتى زال حجاب هـذه العظمة ومزق الزمان سـتار النفوذ وذهبت ترهات المنافقين من حولهـا ظهرت تلك العيوب مجسمة وأخذ النـاس يحكمون عليه حكمًا جديدا وتكون هذه التقارير أكبر جان عليه .

(المؤيد في ١٥ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ــ٢٨ ابريل سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٥٠)

٦
لو كنت اللورد كرومر

ا امس
ب غداً

انا اذا انتقدنا سياسة اللورد كرومر فلسنا ندعى انا أدرى بأسرار السياسة الانكليزية في مصر منه كذلك ليس بين الكتاب فى الشرق والغرب من يزعم أنه محيط بأسرار سياسات الدول العمومية أو عظماء رجالها . ولكن ذلك لا يمنع الكاتبين أن ينتقدوا سياستهم من الجانب الذى يبدو لهم

وعلى هذا فلنا الحق أن نبحث في أعمال الرجل العظيم ولنا الحق أن ننتقد منها ما لا يبدو لنا وجه الحكمة فيه أو ما تظهر نتائجه مضرة لنا أو للغير ويجوز أن يكون رأينا هو الصواب لان هذا الرجل العظيم الذى ننظر الى ماضى أعماله في بلادنا انما كان يعمل وهو محاط بظروفه ومؤثراته ونحن ننظر الى عمله خالين من تلك المؤثرات والظروف

والذى يسوّغ لنا هذا الانتقاد هو اننا نفرض مصلحة مصر مرادة للورد في كل ما يجرى على يديه خصوصا وقد أعلنوا مراراً أن مهمة الاحتلال في وادى النيل العمل لترقية سكانه واصلاح شؤونهم حساً ومعنى وان مصلحة انكلترا في مصر قبل كل شئ القيام بتلك المهمة السامية خير قيام

فلو كنت اللورد كرومر على هذا الفرض لكان لى رأي فى كيف أدير أمور القطر المصرى أمس وكيف أفيده غداً بعد استقالتي. لو كنت اياه وساعدنى الحظ الأوفر أن أجد من حكومتي تلك المنحة العظمي التى منحتها حكومته اياه فأعطي حرية التصرف التامة واطلاق العنان في كل ما أريد الى حد أني اذا أردت منها معونة أستصدر منها الاوامر التى أبعث لها صورتها بالنص فتعود الىّ ممضاة بامضاء وزير الخارجية مطرزة بالسلطة القوية التى استمدها منه ولو الى درجة اعداد الاساطيل ـ لو كنت اياه من كل وجه لجريت على الخطة

الآتية . وهى ان أضع نصب عيني قبل كل شئ درس أخلاق الامة المصرية وعاداتها وتقاليدها حتى اذا عرض لى في المستقبل مايقتضي التردد بين سياستين اخترت بحكم الخبرة التامة أفضلها وجئت الامة من حيث أستهوى أميالها واتخذها عضداً لى في كل أعمالى

أما جناب اللورد فقد جلس في داره بالاسماعيلية أولا وقصر الدوبارة ثانيا وأخذ يتعرف أحوال الامة وأخلاقها بواسطة بضعة أشخاص اتخذهم لاستطلاع الاخبار الذى صار على مر الزمان حرفة لهم اختصوا بها كما خصهم بثقته فصاروا عينه التي ينظر بها وأذنه التى يسمع بها بل وخياشيمه التى يشم روائح الاشياء بواسطتها . فلما أصبحوا كالحجاب ببابه انحصر علمه فى كل شئ من هذا الباب وصار من مصلحتهم الخصوصية ان وصل اليه من غيرهم كلام تولوا شرحه وتأويله وأضافوا اليه الحواشي والهوامش حتى ينمحى كل أثر عنده لغيرهم. وكان لسوء حظ المصريين بعض أصحاب اخباره من أصحاب الصحف المتزلفة المحابية فانتهى بجناب اللورد أن كان ينظر أحوال الامة كلها بنظارات ملونة بالغايات والاغراض الخصوصية فرآها متعصبة جاهلة لايليق بها غير العنف وقد فعل ولم يرفع تلك النظارة عن عينيه ساعة واحدة مدة ٢٤ سنة

فلو كنت اللورد كرومر وأحطت علما بكثير من أسرار تواريخ تقدم الامم وأسباب ارتقائها التى من أهمها وأفضلها رفع نير الجهالة عن أعناقها ـ لمنحت مصر يدا عالية من التعليم الصحيح . ولو أنه تمكن فى مدى ربع القرن الماضي (وهو أكبر زمن لحضانة العلم في رأى فلاسفة العمران) من نشر العلم كما يجب وتسهيله على ناشئة الامة كما ينبغى لوجد الآن أمة متعلمة في مجموعها تستطيع أن تقدر خدماته الجليلة التي يدعيها له أنصاره الآن كاملة من كل وجه ـ أمة عالمة بمصيرها لو عارضته كانت معارضتها له خيرا من محاباة الجاهلين

بل لو كنت اللورد كرومر لفعلت مافعله الاحرار في وزارتهم الحاضرة فانهم بعدما حاربت أمتهم الترنسفال ثلاث سنوات وبعد ماوضعت الحرب أوزارها وألقى البوير سلاحهم بين يدى أعدائهم الاشداء مسلمين لم يروا من مصلحة بريطانيا العظمى أن ينتقموا لها من خصمهم الذى تجرأ على قتالها غير أهل لذلك بل رحبوا بهذا الخصم بعد تقرير السلام .وفي أقل من عامين منحوهم استقلالهم الادارى مظهرين لهم وللعالم بأسره أنهم لم يحاربوهم منتقمين

ليسحقوهم سحقا ولا ليذهبوا بقوميتهم من الوجود ولا ليجعلوا بلادهم غنيمة للشاردين والواردين. فأكدوا بالبرهان المحسوس أنهم لم يضمروا لهم سوى الخير وان سفك دماء الالوف من جنود الانكليز لم يحل دون منح هذه الامة حقها الصريح

أما جناب اللورد فقد جاء مصر بعد فتنة صغيرة لم يذهب فيها من عساكر الانكليز أكثر مما يذهب فى غرق سفينة اصطدمت بصخر في البحر — ثم أقام فيها مدى ربع قرن يبعد قلوب المصريين عن المحتلين كلما اقتربت ويدخل على الناشئين اليأس كلما نبض في نفوسهم عرق من الرجاء ويلاشي شيئا فشيئا الثقة بمواعيد أسلافه وحكومته حتى الساعة الاخيرة من وجوده في قصر ملكه

لوكنت اللورد كرومر لاقمت ولو برهانا واحدا على اقتداري السياسي كما أقمت ألف برهان وبرهانا على اقتداري المالي — لاوجدت في الزمن الطويل الذى أقمته في مصر لكل وظيفة مرشحين لها حتى لاتذهب الوظيفة بعد الوظيفة من أيديهم بحجة انه ليس فى مصر أكفاء للوظائف الكبرى — اقللت ما أمكن من استخدام الانكليز وخصوصا غير الاكفاء منهم للوظائف التي يتولونها فيضمون من فوائدها فى مدي التجربة الطويلة اضعاف ما يفيدونها به بعد الالمام بواجباتها بدلا من ان أصيرها انكليزية في الغالب حتى أن بعض المصالح — كمصلحة الصحة — لم يبق فيها عامل مصرى الا صغار الكاتبين

لو كنت اللورد كرومر لما ختمت أعمالي فى مصر بهذا التقرير الاسود الذى كله تناقض وتحامل وسباب للمصريين وقضاء شرعليهم بالجمود الذاتي وغمز لدينهم وطعن على أخلاقهم وآدابهم ومبادئهم حتى اضطررت أن أرى من مصلحتى بعد ما حم القضاء أن لا يظهر فى مصر قبل سفرى مترجما مجسما بالعربية في كتاب واحد تتناوله اليد وتجول بين أوله وآخره العين — وهذا سر عدم صدوره الى الآن من ادارة المقطم ونشره بين الناس كيلا يهيج ما فيه غضب المصريين — وليس العذر فى التأخير تراكم الاشغال الذى أصبح واهنا الآن بعد ما مضى عليه نحو شهر من الزمان

هذا عن الامس

وأما عن الغد

فلو كنت اللورد كرومر بعد استقالته لحاولت أن أصلح ماذهبت بي ظروف المنصب الى افساده . اذلاريب عندنا أنه سيخلو بجناب السيرغورست خلفه خلوة سياسية قبل سفره. ثم لاريب عندنا أن الحكومة الانكليزية ستستشير جنابه فيما يتعلق بمهام مصر لاختباره الطويل الذى لايوجد فى انكلترا من يساويه فيه أو يقاربه

فلو كنت اللورد كرومر لقلت للسيرغورست اثناء الخلوة الاخيرة بين التسليم والوداع نحن هنا لاثالث بيننا وغايتنا معا واحدة وهي أن نقدس مصلحة حكومتنا ونعزز نفوذها في مصر فاتعظ بأغلاطي واسترشد بنبراس حسناتي . واعلم أن سياسة ٢٤ سنة اقنعتني أن السياسة الفضلى هي فى محاسنة الامة لافى مخاشنتها ــ فى اللاين لافى العنف

واني لاأكتمك هذا السر العظيم وهو أنني بعد الذى جرى من الحوادث الاخيرة لم أتمكن من استمالة الامة المصرية اليّ والى حكومتي فاتعظ بما جرى وأصلح مامنعتني كرامتي من الرجوع فيه . احترم دين هذه الامة تملك اعنة قلوبها . أكرم رؤساءها تطأطئ لك هامات الشعب احتراما ومودة . ساعدها على الحكم الذاتي لانها أصبحت بفضل رعايتي لها قادرة فى الحقيقة عليه . ولا تعارض الرأي العام بصلف وكبرياء فانك لاتستطيع أن تصده الابااللين وحسن المعاملة

ولو كنت اللورد كرومر لعقدت النية بعدعودتي الى انكلترا على مساعدة حكومتي بقوة الارشاد والنصيحة علي تفهيم المصريين أن الاحتلال لايريد محو وطنيتهم ولا ملاشاة قوميتهم ولا القضاء على أهليتهم وقابليتهم

ولكذبت تلك الجرائد التى أوهمت الناس أنها تتكلم بلساني وتخاطبهم ببياني عند ماقسمت الوطنية فى مصر الى وطنية مصرية وأوربية مصرية وسورية مصرية (كما قال المقطم منذ يومين)

فان شرخطة هذه الجريدة لايزال عالقا بذيل اللورد كرومر حتى بعد استقالته ويخشى اذا ظلت على تقربها من الوكالة البريطانية في عهد المعتمد الجديد أن تزيد الخرق اتساعا

بين الامة والوكالة بمثل هـذه المزاعم التي يصل أذاها الى اعماق قلوب الاهالى . وليس أشد من الاذى الذى يسلب الامة وطنيتها ويوزعها على كل من رأى فى مصر مرتزقا ينزل بها هابطا فيصبح فى الغد شريكا للوطنى الاصيل في كل حقوقه

هذا وأمثاله ما كنت أفعله لو كنت اللورد كرومر . فهل هو فاعل ؟ وهل جناب السير غورست بعد ما أصبح اللورد كرومر في مكانه ومكانته ووظيفته فاعل ما يقرب منه قلوب المصريين وما هو مزيل لسوء التفاهم الذي وقر بينهم وبين المحتلين ؟ ؟ . اللهم ذلك ما نرجو واللهم آمين

(المؤيد في ١٦ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ـ ٢٩ ابريل سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٥١)

٧

المعتمد الجديد في قصر الدوبارة

يرى القراء أننا قد جعلنا العنوان العام لهذه المقالات رمزا على التغيير العظيم الذى حصل فى مركز الدولة البريطانية فى مصر . فان يوم الاربعاء الماضى الموافق ٢٤ ابريل مفسر لهذا الرمز لانه فيه وصل الى القاهرة السير ألدون غورست معتمدا جديدا خلفا للورد كرومر بعد ٢٤ سنة قضاها فى هذا المنصب الجليل

والسير ألدون غورست قد جاء مصر لا كما جاء الماجور افلن بارنج في أول عهده . جاءها من نظارة الخارجية الانكليزية مدرسة الدهاء السياسي والحكمة الناتجة عن الاطلاع الواسع والوقوف على أسرار السياسة والمقاصد الكامنة فى بطون الاوراق وصدور الرجال

فهو يختلف عن اللورد كرومر في أن هـذا جاء مصر وحالها غير حالها اليوم فجعلها مدرسته وموضوع تجاربه ومن كان كذلك فهو كثير التعرض للاغلاط كثير الاعـذار فيما يجيء . نعم ان جناب اللورد عمل أعمالا عظيمة دلت على مهارته وقدرته وقوة جلده ولكن قلما جعل انسان العمل مدرسته الاولى وأتم تجاربه فيه حتى المهات

أما السير غورست فقد مضت أيام درسه واختباراته . تلقى دروسه الاولى في مصر حتى وصل الى ذروة وظائف المستشارين فيها فأحاط بكل شيء من أحوال المصالح المصرية علما ثم غادرنا حيث لبث فى وزارة الخارجية ثلاث سنوات كاملات كافيات لان تخرج

التلميذ من مدرسة المعلمين أستاذا كاملا وعلى ذلك قد جاءنا حائزا لشهادة عالية فيا
من علوم السياسة فلا ينتظر أن يتعلم دروسها على نفقة مصر من جديد

ثم هو قد امتاز على سلفه بأنه جاء هذه البلاد والهدو شامل والعسر المالى
وعداء الدول غير موجود على الاطلاق بخلاف الاول فانه جاء مصر والقلق السياسى لا
ضاربا أطنابه فيها أثر الثورة العرابية والعسر المالى محيط بها من كل جهاتها الست وع
الدول يكاد يسد عليه كل طريق ويأخذ منه بالخناق . ولئن كان ذلك الحال يذكر
كفاح اللورد وصبره على تكبد المشاق وجهاده في سبيل اصلاح الاحوال المالية
صلحت الا أن هذا كان مضيعا جهدا كبيرا على المعتمد القديم يجد المعتمد الجديد نفسه
راحة من عنائه وفي غنى عن أن يضيع طرفة عين من وقته فيه

وامتاز أيضا عليه بأنه جاء البلاد وقد ترقت في كل مظاهر الحياة . فى ماليتها وثرو
فى عمرانها وحضارتها . في معاملاتها مع الاجانب من كل قبيل. وفي معارفها أيضا لا لان
عني بها من هذا الجانب كما ينبغي ولكن جريا مع سنن الطبيعة التى تذهب بالامم الى
البشرى مالم يعقها عنه عائق بخلاف سلفه فقد جاءها والامة غيرها الآن في كل ماتقد
فاذا كان قد عنى الاول بخلق الامة من جديد وتكوينها في قالب المدنية الاوروبية
مايريد كما وصفته بذلك الصحف الانكليزية فانما يعنى الثانى من العمل تحسين وزخر
يحتاجان الى دقة نظر وحسن ذوق لا الى جهد ذاك وعنائه. ان الامة المصرية يوم جاء اللو
كرومر كانت فى نظره أشبه بطلسم من طلاسم الهيلغريفية قبل حل معماها فعمل فيها
الفرنساويون الذين حلوا خطوطها القديمة قبل قرن من الزمان . وأما ماهى الآن فكتا
مفتوح يقرؤه السير غورست كلما جال ببصره فيه ويفهمه بما خصه الله به من الذكاء بلا
ولا حاجة الى ترجمان فهى تنتظر من عميد قصر الدوبارة الجديد أن لا يسئ فهم كتا
بتحريف المحرفين ووشايات الواشين . وسواء استقال اللورد كرومر لاسباب صحية والسيا
ثابتة لا تتحول أو فيها شئ من التحويل فانه لا خلاف فى أن المعتمد الجديد قد جاءنا بأوا
جديدة ضرورة ان تلك الاستقالة جاءت في ظروف على مصر غير التى كانت فيها من قبل
ونحن نأمل أن تكون تلك الاوامر نافعة لنا ولانكلترا

أما لنا فني مراقبة مالم يفلح فيه سلفه وتجنبه .وأما لانكلترا فني بذل الوكالة البريطانية
عهد هذا المعتمد الجديد الجهد لتحقيق آمال المصريين لانه ليس من مصلحة انكلترا
كل حال أن تبقى في مصر ٢٥ سنة أخرى مضطرة لان تعتمد على جيش احتلال يساعدها
تنفيذ مقاصدها وعلى زيادته كما حدث حادث . وهذا مالابد منه اذا جرى المعتمد
.يد على طريقة المعتمد القديم وخطته العملية

ان الذي يهم انكلترا في مصر وقد أطفأت نيران الثورة العرابية وأيدت العرش
.يوى ونظمت مالية البلاد وأصلحت طرق الري وبنت الخزان وفصلت نظامات الاعمال
سيلا حسنا أن يبقى مركزها فى مصر ممتازا على كل مراكز الدول الاخرى لتكون لها
بة الربيبة لانكلترا تذكر فضلها على الدوام وتستمد معونتها كلما احتاجت الى معونة
فليكن شأنها كذلك على الرأس والعين . ولكن لايلزم من هذا أن تبقي مصر في حكم
صر الذي لايرشد والجاهل الذى لايتعلم . والعضو الذى لايتحرك بعمل . والفكر الذى
له التعطيل . والارادة التى تخدر حتى تموت

انك لو جئت صاحب دار متهدمة فتوليت بناءها وتشييدها وزخرفها بماله وبأولاده
لون فيها كالفعلة . فلك أن تفتخر بهمتك وبحسن صنيعك وصنعك كمهندس ماهر ذى
ق جميل اذا ظهرت الدار على أكمل الصفات بناء وزخرفا . ولك أن تعتبر صاحب الدار
سرا فى حقك بعد ماتطوعت باحسانك عليه اذا لم يحلك جانبا لائقا من داره مادمت
حاجة الى البقاء معه بها . وكافرا بالنعمة جحودا للجميل اذا لم يذكرك بخير كلما جال
ه في جنباتها

ولكنك اذا نزعت بعد تمام البناء والتنسيق الى سكناها دونه واتخذت من صاحب
ار وابنائه خدما وحشما تقهرهم على أداء المهن الممتهنة وتجعلهم بين يديك بمثابة العبيد
.مون ويهانون كنت غاليا مغيرا فلا تنتظر من أهل الدار الاصليين انبساط الوجوه وشكر
رب على ماتسميه نعمة لهم لانك أبقيتهم في خدمتك ولم تطردهم من دارهم ولانك صرت
ليهم من فضلات طعامك الشهى بعد ما كانوا في شظف من العيش ! !

ان الاحتلال الانكليزى لاينبغى أن ينتظر من المصريين شكرانا وامتنانا للمحتلين اذا

كانوا يجدون أنفسهم فى وطنهم غاية الامر بمنزلة أولئك الخدم الممتهنين مع السادة الوافدين وهذا كان مآل السياسة التى جرى عليها المعتمد القديم فى وظائف الحكومة المصرية وتجريد المصريين منها يوما فيوما واعطائها للمحتلين حتى امتلأت الدواوين بالمئات منهم فاذا حل انكليزى في وظيفة لايلبث أن يتلوه آخر من أبناء جلدته حيث يأخذ كل واحد محل غيره من الوطنيين وهلم جرا طردا وعكسا فلم تبق لهؤلاء في بعض المصالح الا ماهو من قبيل المهن الآلية الصغيرة والباقى من المصالح الذى لم يؤخذ أخذا كاملا جار على طريقة ما أخذ منها فاذا مامضت على الاحتلال ٢٥ سنة أخرى وهو جار على هذا المنوال أصبحت حكومة مصر كحكومة السودان الآن ولكن ذاهبة للوراء لا للامام . ويومئذ تكون انكلترا قد ملكت مصر قالبا وشردتها عنها قلبا . ويومئذ تشعر مصر بأنها خدعت تماما وأخذت فى غرتها فلا يكون حالها مع انكلترا حال الشاكرة الذاكرة نعمة وجميلا

فياأيها المعتمد الجديد وقد عهدناك من الذكاء النادر على مايعرفه لك الخاص والعام. لا نسألك أن تغير سياسة قررت دولتك الثبات والاستمرار عليها فانما الذى يطلب منك هذا أحمق لايدرى من الامور شيئا . وانما نطلب منك أن توفق مااستطعت بين مصلحة الاحتلال ومصلحة مصر . ويكفى لهذا أن يكون الانكليز مشرفين على المصالح المصرية اشرافا عاليا ومرشدين ارشادا بعيدا عن تهمة الانانية البالغة التى ظهر بها شأن الاحتلال في مصر حتى الآن . يكفي لهذا أن يكون لقصر الدوبارة رأى الناصح الصادق المرشد لخير الامور وأن يكون له مشرفون على الاعمال كهؤلاء المستشارين الذين وجدوا فى المصالح وأن يكون لهم بعض أعوان في الاعمال الفنية العالية التى يقصر عنها عنق المصرى فى حال تدريبه وتمرينه. ولكن اذا انقلب ذلك الارشاد أمرا فى كل شئ وتبدل ذلك الاشراف تداخلا في كل شئ واحتقر عمل المصرى وفكره وارادته في كل وظيفة ـ انقلبت صور الاشياء الى عكس المطلوب وضاعت مصلحة مصر تحت مواطئ أقدام الاثرة الانكليزية ضياعا تاما

أيها المعتمد الجديد قد كنت موظفا فى الحكومة المصرية غير بعيد عهدك وربما كنت فى الداخلية أو فى المالية مستشارا تنازع الناظر سلطته لتلاشيها وتحب ان ينفذ أمرك على من دونك بلا مراجعة فيقال لنا كيف تطلبون منه اليوم في أمر المستشارين مثلا مالم يكن يرضاه لنفسه أمس

ولكن شتان بين ما كان عليه المعتمد الجديد أمس وما صار اليه اليوم . كان بالامس عاملا في وسط تشرف عليه تلك السلطة الكرومرية التي كان من مبادئها السياسية اطلاق العنان للموظف الانكليزي يعمل كما أراد ويميت من ارادة الموظف المصرى ما أراد فلم يكن له وهو فى ذلك الوسط الا أن يأخذ شأنه بين أقرانه وحظه من وظيفته على الطريقة التي سنت له . وكان النصاب لم يبلغ الحد الذي بلغه الآن وبانت عواقبه سيئة للناظرين

أما اليوم وقد جاء السير غورست مديرا أول لنظام الادارة المصرية مشرفا عليها من فوق تلك القمة العالية التي غررت بسلفه فتخيل نفسه فيها قيصرا ـ فعليه مسئولية المدبر الاول الذي يتعظ باغلاط من تقدمه فيرى من الواجب عليه أن يتجنب سيآته وينتفع بتجاربه الحسنة فيضاعف من حسناته

كن اللورد كرومر في مصر ينظر الى كل شئ يروقه فيها فيجده نتيجة عمله والى كل شخص من كبار الموظفين فيحده من صنائعه . ينظر الى الاشياء والاشخاص فتتيه نفسه عجبا ويتعالى علو الخالق فوق خلقه . وكل مخلوق تسامى به اعجابه بنفسه الى هذا الحد صغرت عنده الغلطات مهما كانت كبيرة وقل محاسبوه عليها وان كثروا . فله من اعجابه بنفسه سلطة ومن صغر نفوس كل من حوله بين يديه سلطة أخرى تضافان الى سلطة وظيفته فعمل بالسلطات الثلاث مارفع عمله عن بحث الباحثين واعتراض المعترضين فى انكلترا ومصر معا

أما السير غورست فقدجاء مصر وأول مايرى فيها من المظاهر تلك الحفلة التي ستقام مساء يوم السبت المقبل اكراما لجناب اللورد كرومر فيقال فيها له مايقال في المعابد اجلالا وتمجيدا حتى يكاد القائلون يعزون مصر فى فراقه لها عزاء وينعونها بيعده عنها نعيا . اذا تجلى له هذا المظهر كما هو علم أن مسئوليته في وظيفته الجديدة أضعاف مسئولية سلفه وانه ان نبا سهمه وكبا جواده فلا يقال له « لعا من عثار »

اذا تجلى له هذا المظهر وكأنه فى التياترو لتمثيل رواية خيالية لاحفلة حقيقية اذا قيس بالحركة الفكرية الموجودة في مصر غير راضية عن الرجل رضاء كاملا ـ تحقق ان السياسة الفضلى انما هى في اتخاذ منهج جديد غير المنهج الذى كان عليه سلفه في طرق الغاية التي

تسعى اليها انكلترا في وادى النيل

واذا تحقق هذا علم أن تلك السياسة الفضلى مع المصريين فيما قلناه أمس وصية له لسان اللورد كرومر

« احترم دين هذه الامة تملك أعنة قلوبها . أكرم رؤساءها تطأطئ لك هامات الشعب احتراما ومودة . ساعدها على الترقي الحقيقي والحكم الذاتى فانها قادرة في الحقيقة عليه . ولا تعارض الرأي العام بصلف وكبرياء فانك لا تستطيع أن تصده الا باللين وحسن المعاملة »

ذلك هو مجمل ما نريده من جناب السير غورست وسوف يأتى التفصيل والله ولى التوفيق والرشاد .

(المؤيد في يوم الثلاثاء ١٧ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ – ٣٠ ابريل سنة ١٩٠٧ – عدد ٥١٥٢)

حفلة وداع

اللورد كرومر

فى الاوبرة الخديوية

هذه صورة الخطب التى ألقيت مساء أمس (السبت ٤ مايو سنة ١٩٠٧) في الاوبرة الخديوية للاحتفال بوداع اللورد كرومر

خطبة الكونت دوسريون

ياجناب اللورد

ان اللجنة التى شكلت في اليوم التالى لليوم الذى أعلن فيه خبر سفركم تمثل جميع الذين جمعتهم جامعة الاسف الشديد والامتنان المزيد بلا تمييز بين الجنس والدين والمذهب وهم يرغبون فى ان يعلنوا على رؤوس الاشهاد الاستياء الذى يشعرون به لانقطاعكم لاسباب صحية عن عمل مجيد مرتبط تمام الارتباط مدة ثلاثين سنة بالبحث عن التقدم والنجاح من أى نوع كان والسعى فى تحقيقه كما تشهد به الآن سعادة القطر المصرى (تصفيق)

ان عطوفة مصطفى باشا فهى سيخاطبكم الآن باسم الوطنيين وموظفي الحكومة أما انا فأقول لكم نيابة عن اللجنة التى أشكرها من صميم فؤادي لانها عهدت الى الآن اعرب عن عواطف أولئك الذين يهمهم ان يظهروا لكم أسفهم وامتنانهم وان كانوا غير مرتبطين بهذه البلاد رابطة الجنسية أوالوظائف العمومية

انكم لا تتوقعون مني ياسادتي ان أعدد لكم هنا الخدمات العديدة التى قام بها جناب اللورد كرومر لهذه البلاد من حين مادعى للمساعدة في ادارتها وعين عضواً في صندوق الدين الى هذه الساعة التى عزم على مفارقتكم فيها مزودا باعجابنا واحترامنا اللذين يفوق معناهما جميع الالفاظ التى أستطيع استعمالها لوصف هذه الاعمال المجيدة التى صارت الآن من حقائق التاريخ (تصفيق طويل)

ولا أخشي ان اخرج عن الدائرة التى رسمت لى بتجديد ذكر الاعمال العظيمة التى امتازت بها مهمة اللورد كرومر في مصر لان جميع الذين أتكلم باسمهم استفادوا كما استفاد الرعايا المحليون من أعمال الاصلاح والتقدم التى لا تحصى والتى جعلت هذه البلاد من أسعد بلدان العالم ومن أكثرها تأهيلا بقاصديها (تصفيق) وعليه فيحق لهم بل يجب عليهم أن يشتركوا مع الذين يذكرون أعمال ذلك الرجل التى هى عجيبة بوحدتها وفاعليتها وقوتها وما بذل فيها من الهمة حتى يكون الشكر لها على قدر النفع (تصفيق)

هذا وانني لا أقصد الدخول في تفاصيل الاعمال المختلفة الانواع التى الفضل فيها للنصائح اللورد كرومر الرشيدة والتي سمحت على مانعلم جميعاً للاجانب المقيمين فى هذه البلاد بان يشتركوا في خيراتها وسعادتها في كنف الامن والتسامح اللذين ليس ثم مايعادلها فى جهات العالم الاخرى

ولكن ليسمح لى أن أشير الى النظام الجديد الذى ولدته فكرة اللورد كرومر وتركه قبل ان يخرج الى حيز العمل . هذا وان جميع نزلاء مصر على اختلاف أجناسهم يؤملون تحقيق أمانيهم في هذا الموضوع. أقول ذلك ياحضرة اللورد ولكن لا أستطيع ان أؤكده تأكيد أقوالى السابقة ولالى صفة رسمية لذلك

أما الامر الذى أشعر أنى مفوض تمام التفويض بقوله هو أنهم جميعاً بلا استثناء سرور أعظم

الآتية . وهي ان أضع نصب عيني قبل كل شئ درس أخلاق الامة المصرية وعاداتها وتقاليدها حتى اذا عرض لى في المستقبل مايقتضي التردد بين سياستين اخترت بحكم الخبرة التامة أفضلهما وجئت الامة من حيث أستهوى أميالها واتخذها عضداً لى في كل أعمالى

أما جناب اللورد فقد جلس في داره بالاسماعيلية أولا وقصر الدوبارة ثانيا وأخذ يتعرف أحوال الامة وأخلاقها بواسطة بضعة أشخاص اتخذهم لاستطلاع الاخبار الذى صار على مر الزمان حرفة لهم اختصوا بها كما خصهم بثقته فصاروا عينه التي ينظر بها وأذنه التي يسمع بها بل وخياشيمه التى يشم روائح الاشياء بواسطتها . فلما أصبحوا كالحجاب ببابه انحصر علمه فى كل شيء من هذا الباب وصار من مصلحتهم الخصوصية ان وصل اليه من غيرهم كلام تولوا شرحه وتأويله وأضافوا اليه الحواشي والهوامش حتى ينمحى كل أثر عنده لغيرهم. وكان لسوء حظ المصريين بعض أصحاب اخباره من أصحاب الصحف المتزلفة المحابية فانتهى بجناب اللورد أن كان ينظر أحوال الامة كلها بنظارات ملونة بالغايات والاغراض الخصوصية فرآها متعصبة جاهلة لايليق بها غير العنف وقد فعل ولم يرفع تلك النظارة عن عينيه ساعة واحدة مدة ٢٤ سنة

فلو كنت اللورد كرومر وأحطت علما بكثير من أسرار تواريخ تقدم الامم وأسباب ارتقائها التى من أهمها وأفضلها رفع نير الجهالة عن أعناقها ـ لمنحت مصر يدا عالية من التعليم الصحيح . ولو أنه تمكن فى مدى ربع القرن الماضي (وهو أكبر زمن لحضانة العلم في رأى فلاسفة العمران) من نشر العلم كما يجب وتسهيله على ناشئة الامة كما ينبغى لوجد الآن أمة متعلمة في مجموعها تستطيع أن تقدر خدماته الجليلة التي يدعيها له أنصاره الآن كاملة من كل وجه ـ أمة عالمة بمصيرها لو عارضته كانت معارضتها له خيرا من محاباة الجاهلين

بل لو كنت اللورد كرومر لفعلت مافعله الاحرار في وزارتهم الحاضرة فانهم بعدما حاربت أمتهم الترنسفال ثلاث سنوات وبعد ماوضعت الحرب أوزارها وألقى البوير سلاحهم بين يدى أعدائهم الاشداء مسلمين لم يروا من مصلحة بريطانيا العظمى أن ينتقموا لها من خصمهم الذى تجرأ على قتالها غير أهل لذلك بل رحبوا بهذا الخصم بعد تقرير السلام .وفي أقل من عامين منحوهم استقلالهم الادارى مظهرين لهم وللعالم بأسره أنهم لم يحاربوهم منتقمين

ليسحقوهم سحقا ولا ليذهبوا بقوميتهم من الوجود ولا ليجعلوا بلادهم غنيمة للشاردين والواردين .
فأكدوا بالبرهان المحسوس أنهم لم يضمروا لهم سوى الخير وان سفك دماء الالوف من جنود
الانكليز لم يحل دون منح هذه الامة حقها الصريح

أما جناب اللورد فقد جاء مصر بعد فتنة صغيرة لم يذهب فيها من عساكر الانكليز
أكثر مما يذهب في غرق سفينة اصطدمت بصخر في البحر - ثم أقام فيها مدى ربع قرن
يبعد قلوب المصريين عن المحتلين كلما اقتربت ويدخل على الناشئين اليأس كلما نبض في نفوسهم
عرق من الرجاء ويلاشي شيئاً فشيئاً الثقة بمواعيد أسلافه وحكومته حتى الساعة الاخيرة من
وجوده في قصر ملكه

لو كنت اللورد كرومر لاقمت ولو برهانا واحدا على اقتداري السياسي كما أقمت ألف
برهان وبرهانا على اقتداري المالي - لاوجدت في الزمن الطويل الذي أقمته في مصر لكل
وظيفة مرشحين لها حتى لاتذهب الوظيفة بعد الوظيفة من أيديهم بحجة انه ليس في مصر
اكفاء للوظائف الكبرى - لقللت ما أمكن من استخدام الانكليز وخصوصا غير الاكفاء
منهم للوظائف التي يتولونها فيضمون من فوائدها في مدي التجربة الطويلة اضعاف مايفيدونها
به بعد الالمام بواجباتها بدلا من ان أصيرها انكليزية في الغالب حتى أن بعض المصالح - كمصلحة
الصحة - لم يبق فيها عامل مصري الا صغار الكاتبين

لو كنت اللورد كرومر لماختمت أعمالي في مصر بهذا التقرير الاسود الذي كله تناقض
وتحامل وسباب للمصريين وقضاء شرعليهم بالجمود الذاتي وغمز لدينهم وطعن على أخلاقهم
وآدابهم ومبادئهم حتى اضطررت أن أرى من مصلحتي بعد ماحم القضاء أن لا يظهر في مصر
قبل سفري مترجماً مجسما بالعربية في كتاب واحد تتناوله اليد وتجول بين أوله وآخره العين -
وهذا سر عدم صدوره الى الآن من ادارة المقطم ونشره بين الناس كيلا يهيج مافيه
غضب المصريين - وليس العذر في التأخير تراكم الاشغال الذى أصبح واهنا الآن بعد
مامضى عليه نحو شهر من الزمان

هذا عن الامس

وأما عن الغد

فلو كنت اللورد كرومر بعد استقالته لحاولت أن أصلح ماذهبت بى ظروف المنصب الى افساده . اذلاريب عندنا أنه سيخلو بجناب السيرغورست خلفهخلوة سياسيةقبل سفره. ثم لاريب عندنا أن الحكومة الانكليزية ستستشير جنابه فيما يتعلق بمهام مصر لاختباره الطويل الذى لايوجد فىانكلترا من يساويه فيه أويقاربه

فلو كنت اللورد كرومر لقلت للسيرغورست اثناء الخلوة الاخيرة بين التسليم والوداع: نحن هنا لاثالث بيننا وغايتنا معا واحدة وهى أن نقدس مصلحة حكومتنا ونعزز نفوذها في مصر فاتعظ بأغلاطي واسترشد بنبراس حسناتي . واعلم أن سياسة ٢٤ سنة اقنعتنى أن السياسة الفضلى هى فى محاسنة الامة لافى مخاشنتها ـ فى اللين لافى العنف

وانى لاأكتمك هذا السرالعظيم وهو أنتى بعد الذى جرى من الحوادث الاخيرة لم أتمكن من استمالة الامة المصرية الىّ والى حكومتى فاتعظ بما جرى وأصلح مامنعتنى كرامتى من الرجوع فيه . احترم دين هذه الامة تملك اعنة قلوبها . أكرم رؤساءها تطأطئ لك هامات الشعب احتراما ومودة . ساعدها على الحكم الذاتي لانها أصبحت بفضل رعايتي لها قادرة فىالحقيقة عليه . ولا تعارض الرأي العام بصلف وكبرياء فانك لاتستطيع أن تصده الاباللين وحسن المعاملة

ولو كنت اللورد كرومر لعقدت النية بعدعودتي الى انكلترا على مساعدة حكومتى بقوة الارشاد والنصيحة علي تفهيم المصريين أن الاحتلال لايريد محو وطنيتهم ولا ملاشاة قوميتهم ولا القضاء على أهليتهم وقابليتهم

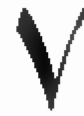
ولكذبت تلك الجرائد التى أوهمت الناس أنها تتكلم بلساني وتخاطبهم ببيانى عند ماقسمت الوطنية فى مصر الى وطنيـة مصرية وأوربية مصرية وسوريةمصرية (كماقال المقطم منذ يومين)

فان شرخطة هذه الجريدة لايزال عالقا بذيل اللورد كرومر حتى بعداستقالته ويختشى اذا ظلت على تقربها من الوكالة البريطانية في عهد المعتمد الجديد أن تزيد الخرق اتساعا

بين الامة والوكالة بمثل هـذه المزاعم التى يصـل أذاها الى اعماق قلوب الاهالى . وليس أشد من الاذى الذى يسلب الامة وطنيتها ويوزعها على كل من رأى فى مصر مرتزقا ينزل بها هابطا فيصبح فى الغد شريكا للوطنى الاصيل في كل حقوقه

هذا وأمثاله ما كنت أفعله لو كنت اللورد كرومر. فهل هو فاعل ؟ وهل جناب السير غورست بعد ما أصبح اللورد كرومر في مكانه ومكانته ووظيفته فاعل ما يقرب منه قلوب المصريين وما هو مزيل لسوء التفاهم الذي وقر بينهم وبين المحتلين ؟ ؟ . اللهم ذلك ما نرجو واللهم آمين

(المؤيد في ١٦ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ـ ٢٩ ابريل سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٥١)



المعتمد الجديد في قصر الدوبارة

يرى القراء أننا قد جعلنا العنوان العام لهذه المقالات رمزا على التغيير العظيم الذى حصل فى مركز الدولة البريطانية فى مصر . فان يوم الاربعاء الماضى الموافق ٢٤ ابريل مفسر لهذا الرمز لانه فيه وصل الى القاهرة السير ألدون غورست معتمدا جديدا خلفا للورد كرومر بعد ٢٤ سنة قضاها فى هذا المنصب الجليل

والسير ألدون غورست قد جاء مصر لا كما جاء الماجور افلن بارنج في أول عهده . جاءها من نظارة الخارجيـة الانكليزية مدرسة الدهاء السياسى والحكمة الناتجة عن الاطلاع الواسع والوقوف على أسرار السياسة والمقاصد الكامنة فى بطون الاوراق وصدور الرجال

فهو يختلف عن اللورد كرومر في أن هـذا جاء مصر وحالها غـير حالها اليوم فجعلها مدرسته وموضوع تجاربه ومن كان كذلك فهو كثير التعرض للاغلاط كثير الاعـذار فيما يسيء . نعم ان جنـاب اللورد عمل أعمـالا عظيمة دلت على مهـارته وقدرته وقوة جلده ولـكن قلما جعل انسان العمل مدرسته الاولى وأتم تجاربه فيه حتى المهمات

أما السير غورست فقد مضت أيام درسه واختباراته . تلقى دروسـه الاولى في مصر حتى وصل الى ذروة وظائف المستشارين فيها فأحاط بكل شيء من أحوال المصالح المصرية علما ثم غادرنا حيث لبث فى وزارة الخارجيـة ثلاث سنوات كامـلات كافيات لان تخرج

التلميذ من مدرسة المعلمين أستاذا كاملا وعلى ذلك قد جاءنا حائزا لشهادة عالية فيا
من علوم السياسة فلا ينتظر أن يتعلم دروسها على نفقة مصر من جديد

ثم هو قد امتاز على سلفه بأنه جاء هذه البلاد والهدو شامل والعسر المالى
وعداء الدول غير موجود على الاطلاق بخلاف الاول فانه جاء مصر والقلق السياسى لا
ضاربا أطنابه فيها أثر الثورة العرابية والعسر المالى محيط بها من كل جهاتها الست وع
الدول يكاد يسد عليه كل طريق ويأخذ منه بالخناق . ولئن كان ذلك الحال يذكرنا بف
كفاح اللورد وصبره على تكبد المشاق وجهاده في سبيل اصلاح الاحوال المالية
صلحت الا أن هذا كان مضيعا جهدا كبيرا على المعتمد القديم يجد المعتمد الجديد نفسه
راحة من عنائه وفي غنى عن أن يضيع طرفة عين من وقته فيه

وامتاز أيضا عليه بأنه جاء البلاد وقد ترقت في كل مظاهر الحياة . فى ماليتها وثر
فى عمرانها وحضارتها . في معاملاتها مع الاجانب من كل قبيل. وفي معارفها أيضا لا لان
عني بها من هذا الجانب كما ينبغى ولكن جريا مع سنن الطبيعة التى تذهب بالامم الى الت
البشرى مالم يعقها عنه عائق بخلاف سلفه فقد جاءها والامة غيرها الآن في كل ماتقد
فاذا كان قد عنى الاول بخلق الامة من جديد وتكوينها في قالب المدنية الاوروبية
ماير يد كما وصفته بذلك الصحف الانكليزية فانما يعنى الثانى من العمل تحسين وزخر
يحتاجان الى دقة نظر وحسن ذوق لا الى جهد ذاك وعنائه. ان الامة المصرية يوم جاء اللو
كرومر كانت فى نظره أشبه بطلسم من طلاسم الهيلغريفية قبل حل معماها فعمل فيها ما
الفرنساويون الذين حلوا خطوطها القديمة قبل قرن من الزمان . وأما ماهى الآن فكتا
مفتوح يقرؤه السير غورست كلما جال ببصره فيه ويفهمه بما خصه الله به من الذكاء بلا
ولا حاجة الى ترجمان فهى تنتظر من عميد قصر الدوبارة الجديد أن لايسئ فهم كتا
بتحريف المحرفين ووشايات الواشين .وسواء استقال اللورد كرومر لاسباب صحية والسيا
ثابتة لاتتحول أو فيها شئ من التحويل فانه لاخلاف فى أن المعتمد الجديد قد جاءنا بأو
جديدة ضرورة ان تلك الاستقالة جاءت في ظروف على مصر غير التى كانت فيها من قبل
ونحن نأمل أن تكون تلك الاوامر نافعة لنا ولانكلترا

أما لنا ففي مراقبة مالم يفلح فيه سلفه ونجنبه . وأما لانكلترا ففي بذل الوكالة البريطانية
، عهد هذا المعتمد الجديد الجهد لتحقيق آمال المصريين لانه ليس من مصلحة انكلترا
، كل حال أن تبقى في مصر ٢٥ سنة أخرى مضطرة لان تعتمد على جيش احتلال يساعدها
، تنفيذ مقاصدها وعلى زيادته كلما حدث حادث . وهذا مالابد منه اذا جرى المعتمد
ديد على طريقة المعتمد القديم وخطته العملية

ان الذي يهم انكلترا في مصر وقد أطفأت نيران الثورة العرابية وأيدت العرش
ديوى ونظمت مالية البلاد وأصلحت طرق الري و بنت الخزان وفصلت نظامات الاعمال
صيلا حسنا أن يبقى مركزها في مصر ممتازا على كل مراكز الدول الاخرى لتكون لها
انة الربيبة لانكلترا تذكر فضلها على الدوام وتستمد معونتها كلما احتاجت الى معونة

فليكن شأنها كذلك على الرأس والعين . ولكن لا يلزم من هذا أن تبقى مصر في حكم
اصر الذى لا يرشد والجاهل الذى لا يتعلم . والعضو الذى لا يتحرك بعمل . والفكر الذى
له التعطيل . والارادة التى تخدر حتى تموت

انك لو جئت صاحب دار متهدمة فتوليت بناءها وتشييدها وزخرفها بماله وبأولاده
ملون فيها كالفعلة . فلك أن تفتخر بهمتك وبحسن صنيعك وصنعك كمهندس ماهر ذى
ق جميل اذا ظهرت الدار على أكمل الصفات بناء وزخرفا . ولك أن تعتبر صاحب الدار
صرا في حقك بعد ماتطوعت باحسانك عليه اذا لم يحلك جانبا لائقا من داره مادمت
حاجة الى البقاء معه بها . وكافرا بالنعمة جحودا للجميل اذا لم يذكرك بخير كلما جال
كره في جنباتها

ولكنك اذا نزعت بعد تمام البناء والتنسيق الى سكناها دونه واتخذت من صاحب
ار وابنائه خدما وحشما تقهرهم على أداء المهن الممتهنة وتجعلهم بين يديك بمثابة العبيد
دمون ويهانون كنت غالبا مغيرا فلا تنتظر من أهل الدار الاصليين انبساط الوجوه وشكر
وب على ماتسميه نعمة لهم لانك أبقيتهم في خدمتك ولم تطردهم من دارهم ولانك صرت
طيهم من فضلات طعامك الشهى بعد ما كانوا في شظف من العيش ! !

ان الاحتلال الانكليزى لا ينبغى أن ينتظر من المصريين شكرانا وامتنانا للمحتلين اذا

كانوا يجدون أنفسهم فى وطنهم غاية الامر بمنزلة أولئك الخدم المتهنين مع السادة الوافدين
وهـذا كان مآل السياسة التى جرى عليها المعتمد القديم فى وظائف الحكومة المصر
وتجريد المصريين منها يوما فيوما واعطائها للمحتلين حتى امتلأت الدواوين بالمئات من
فاذا حل انكليزى فيوظيفة لايلبث أن يتلوه آخر من أبناء جلدته حيث يأخـذ كل واحد
محل غيره من الوطنيين وهلم جرا طردا وعكسا فلم تبق لهؤلاء في بعض المصالح الا ماهو
قبيل المهن الآلية الصغيرة والباقى من المصالح الذى لم يؤخذ أخذا كاملا جار على طريقة مأ
منها فاذا مامضت على الاحتلال ٢٥ سنة أخرى وهو جار على هذا المنوال أصبحت حكو
مصر كحكومة السودان الآن ولـكن ذاهبة للوراء لا للامام . ويومئـذ تكون انكلترا قد
ملـكت مصر قالبا وشردتها عنها قلبا . ويومئذ تشعر مصر بأنها خدعت تماما وأخـذت
غرتها فلا يكون حالها مع انكلترا حال الشاكرة الذاكرة نعمة وجميلا

فياأيها المعتمد الجـديد وقد عهدناك من الذكاء النادر على مايعرفه لك الخاص والعا
لانسألك أن تغير سياسة قررت دولتك الثبات والاستمرار عليها فانما الذى يطلب م
هذا أحمق لايدرى من الامور شيئا . وانما نطلب منـك أن توفق مااستطعت بين مصل
الاحتلال ومصلحة مصر . ويكفى لهذا أن يكون الانكليز مشرفين على المصالح المصرية اشر
عاليا ومرشدين ارشادا بعيدا عن تهمة الانانية البالغة التى ظهر بها شأن الاحتلال في مصر ح
الآن . يكفي لهذا أن يكون لقصر الدوبارة رأى الناصح الصادق المرشـد لخير الامور و
يكون له مشرفون على الاعمال كهؤلاء المستشارين الذين وجدوا فى المصالح وأن يكون
بعض أعوان في الاعمال الفنية العالية التى يقصر عنها عنق المصرى فى حال تدريبه وتمرين
ولـكن اذا انقلب ذلك الارشاد أمرا فى كل شئ وتبدل ذلك الاشراف تداخلا في
شئ واحتقر عمل المصرى وفكره وارادته في كل وظيفة ـ انقلبت صور الاشياء الى عك
المطلوب وضاعت مصلحة مصر تحت مواطئ أقدام الاثرة الانكليزية ضياعا تاما

أيها المعتمد الجديد قد كنت موظفا فى الحكومة المصرية غير بعيد عهدك وربما كنت
الداخلية أوفى المالية مستشارا تنازع الناظر سلطته لتلاشيها وتحب ان ينفذ أمرك على من دو
بلامراجعة فيقال لنا كيف تطلبون منه اليوم في أمر المستشارين مثلا مالم يكن يرضاه لنفسه أم

ولكن شتان بين ما كان عليه المعتمد الجديد أمس وما صار اليه اليوم . كان بالامس عاملا في وسط تشرف عليه تلك السلطة الكرومرية التي كان من مبادئها السياسية اطلاق العنان للموظف الانكليزي يعمل كما أراد ويميت من ارادة الموظف المصرى ما أراد فلم يكن له وهو في ذلك الوسط الا أن يأخذ شأنه بين أقرانه وحظه من وظيفته على الطريقة التي سنت له . وكان النصاب لم يبلغ الحد الذى بلغه الآن وبانت عواقبه سيئة للناظرين

أما اليوم وقد جاء السير غورست مدبرا أول لنظام الادارة المصرية مشرفا عليها من فوق تلك القمة العالية التي غررت بسلفه فتخيل نفسه فيها قيصرا — فعليه مسئولية المدبر الاول الذى يتعظ باغلاط من تقدمه فيرى من الواجب عليه أن يتجنب سيآته وينتفع بتجاربه الحسنة فيضاعف من حسناته

كان اللورد كرومر في مصر ينظر الى كل شئ يروقه فيها فيجده نتيجة عمله والى كل شخص من كبار الموظفين فيجده من صنائعه . ينظر الى الاشياء والاشخاص فتتيه نفسه عجبا ويتعالى علو الخالق فوق خلقه . وكل مخلوق تسامى به اعجابه بنفسه الى هذا الحد صغرت عنده الغلطات مهما كانت كبيرة وقل محاسبوه عليها وان كثروا . فله من اعجابه بنفسه سلطة ومن صغر نفوس كل من حوله بين يديه سلطة أخرى تضافان الى سلطة وظيفته فعمل بالسلطات الثلاث مارفع عمله عن بحث الباحثين واعتراض المعترضين في انكلترا ومصر معا

أما السير غورست فقد جاء مصر وأول مايرى فيها من المظاهر تلك الحفلة التي ستقام مساء يوم السبت المقبل اكراما لجناب اللورد كرومر فيقال فيها له مايقال في المعابد اجلالا وتمجيدا حتى يكاد القائلون يعزون مصر في فراقه لها عزاء وينعونها ببعده عنها نعيا . اذا تجلى له هذا المظهر كما هو علم أن مسئوليته في وظيفته الجديدة أضعاف مسئولية سلفه وانه ان نبا سهمه وكبا جواده فلا يقال له « لما من عثار »

اذا تجلى له هذا المظهر وكأنه في التياترو لتمثيل رواية خيالية لاحفلة حقيقية اذا قيس بالحركة الفكرية الموجودة في مصر غير راضية عن الرجل رضاء كاملا — تحقق ان السياسة الفضلى انما هي في اتخاذ منهج جديد غير المنهج الذى كان عليه سلفه في طرق الغاية التي

تسعى اليها انكلترا في وادى النيل

واذا تحقق هذا علم أن تلك السياسة الفضلى مع المصريين فيما قلناه أمس وصية له لسان اللورد كرومر

« احترم دين هذه الامة تملك أعنة قلوبها . أكرم رؤساءها تطأطئ لك هامات الشعب احتراما ومودة . ساعدها على الترقي الحقيقي والحكم الذاتي فانهاقادرة فى الحقيقة عليه . ولا تعارض الرأي العام بصلف وكبرياء فانك لا تستطيع أن تصده الا باللين وحسن المعاملة »

ذلك هو مجمل ما نريده من جناب السير غورست وسوف يأتي التفصيل والله ولى التوفيق والرشاد .

(المؤيد فى يوم الثلاثاء ١٧ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ــ ٣٠ ابريل سنة ١٩٠٧ ــ عدد ٥١٥٢)

حفلة وداع

اللورد كرومر

فى الاوبرة الخديوية

هذه صورة الخطب التى ألقيت مساء أمس (السبت ٤ مايو سنة ١٩٠٧) في الاوبرة الخديوية للاحتفال بوداع اللورد كرومر

خطبة الكونت دوسيون

ياجناب اللورد

ان اللجنة التى شكلت في اليوم التالى لليوم الذى أعلن فيه خبر سفركم تمثل جميع الذين جمعتهم جامعة الاسف الشديد والامتنان المزيد بلا تمييز بين الجنس والدين والمذهب وهم يرغبون فى ان يعلنوا على رؤوس الاشهاد الاستياء الذى يشعرون به لانقطاعكم لاسباب صحية عن عمل مجيد مرتبط تمام الارتباط مدة ثلاثين سنة بالبحث عن التقدم والنجاح من أى نوع كان والسعى فى تحقيقه كما تشهد به الآن سعادة القطر المصرى (تصفيق)

ان عطوفة مصطفى باشا فهى سيخاطبكم الآن باسم الوطنيين وموظفي الحكومة أما انا فأقول لكم نيابة عن اللجنة التى أشكرها من صميم فؤادي لانها عهدت الى ان اعرب عن عواطف أولئك الذين يهمهم ان يظهروا لكم أسفهم وامتنانهم وان كانوا غير مرتبطين بهذه البلاد رابطة الجنسية أوالوظائف العمومية

انكم لاتتوقعون منى ياسادتى ان أعدد لكم هنا الخدمات العديدة التى قام بها جناب اللورد كرومر لهذه البلاد من حين مادعى للمساعدة في ادارتها وعين عضواً في صندوق الدين الى هذه الساعة التى عزم علي مفارقتكم فيها مزودا باعجابنا واحترامنا اللذين يفوق معناهما جميع الالفاظ التى أستطيع استعمالها لوصف هذه الاعمال المجيدة التى صارت الآن من حقائق التاريخ (تصفيق طويل)

ولا أخشي ان اخرج عن الدائرة التى رسمت لى بتجديد ذكر الاعمال العظيمة التى امتازت بها مهمة اللورد كرومر في مصر لان جميع الذين أتكلم باسمهم استفادوا كما استفاد الرعايا المحليون من أعمال الاصلاح والتقدم التى لاتحصى والتى جعلت هذه البلاد من أسعد بلدان العالم ومن أكثرها تأهيلا بقاصديها (تصفيق) وعليه فيحق لهم بل يجب عليهم أن يشتركوا مع الذين يذكرون أعمال ذلك الرجل التى هى عجيبة بوحدتها وفاعليتها وقوتها وما بذل فيها من الهمة حتى يكون الشكر لها على قدر النفع (تصفيق)

هذا واننى لاأقصد الدخول في تفاصيل الاعمال المختلفة الانواع التى الفضل فيها لنصائح اللورد كرومر الرشيدة والتي سمحت على مانعلم جميعاً للاجانب المقيمين فى هذه البلاد بان يشتركوا في خيراتها وسعادتها في كنف الامن والتسامح اللذين ليس ثم مايعادلهما فى جهات العالم الاخرى

ولكن ليسمح لى أن أشير الى النظام الجديد الذى ولدته فكرة اللورد كرومر وتركه قبل ان يخرج الى حيز العمل . هذا وان جميع نزلاء مصر على اختلاف أجناسهم يؤملون تحقيق أمانيهم في هذا الموضوع. أقول ذلك ياحضرة اللورد ولكن لاأستطيع ان أؤكده تأكيد أقوالى السابقة ولالى صفة رسمية لذلك

أما الامر الذى أشعر أنى مفوض تمام التفويض بقوله هوأنهم جميعاً بلااستثناء سرور أعظم

سرور من الاهتمام الذى أبديتموه فى اعداد هذا المشروع للوقوف على آراء عدد عظيم من أصحاب الآراء فكان تأثيرذلك فى الاور بيين انهم أيقنوا بانكم تريدون أن تساعدوهم على تحسين حالتهم المادية والادبية زيادة عما تحسنت

لاتخافوا ياسادتي فانني لاأطيل الكلام في هذا الموضوع المتصل بالسياسة العليا رضيت بذلك أولم أرض ولم أنس اننا لم نجتمع هنا الا لنظهر لك ياجناب اللورد في حفلة جمعت جميع الاصناف والطبقات والطوائف فى ساعة مفارقتك لارض مصر الجميلة التى تفيض على أفضل كنوزها ـ ان الشكر الصادر عن الادراك وشرف النفس ينمو في هذه الارض تحت شمسها النافعة كثمار تربتها فنقدم لك فى هذه الساعة الجامعة بين الحزن والبهجة أجمل الثمار التى تسر بها نفسك (تصفيق)

ألا فاسمح لى ياحضرة اللورد ان أضم الى اسمكم اظهار أسفنا وميلنا واحترامنا اسم تلك التى ساعدت كثيرا بلطفها وفضائلها الكثيرة مافيك من صفات الحزم والعزم التى رفعت شأن مهمتك أعني بها المساعدة اللطيفة لاعمالكم التى تعملونها كل يوم لخير البلاد وسعادتها وهى لادى كرومر التى ستبقى صورتها حية في ذاكرتنا ممثلة الصلاح وجانحة على الدوام الى مساعدة الفقراء وتعزيتهم وتخفيف آلامهم (تصفيق)

وعليه فاننا نوجه اليها كما نوجه اليك الدعوات الصادرة من صميم أفئدتنا جميعا طالبين من الله سبحانه وتعالى أن يمن عليكم بالشفاء حتى اذا أجيبت دعواتنا تمتعتم زمانا طويلا بأحسن جزاء يجازى به الانسان في هذا العالم وهو السرور الذى يخامر فؤاد من يرى في اعتزاله الهنىء البذور التي زرعها تنتج ثمرا يانعا (تصفيق)

ياسادتى انى انتهيت من خطبتى ولكن ليسمح لى جناب اللورد ان أزيد كلمتين على ماقلته كلمتين فقط ولو كان فى ذلك اخلال لنظام البيان المرسوم لهذه الحفلة فقد تكلمت باسم اللجنة العمومية التى تألفت كما أشرت الى ذلك قبلا فانتهت مهمتى ولكن يلوح لى ياحضرة اللورد انى لم أنجزها كلها اذ لم أقدم لك احترام واكرام لجنة أخرى عينتنى رئيسا لها وهى تؤلف من أعيان الاوربيين في هذه العاصمة الذين لايشغلون وظائف رسمية ولكنها اعتمدت أن لاتظهر بل تقدم عليها هذه الحفلة التى هى أعم من سواها و بالتالى أقدر على

اظهار الاكرام الواجب لك وعليه فانى لاأخطب خطبة ثانية باسم تلك اللجنة اكرر فيها الاقوال التى قلتها فى خطبتى لان الحقيقة واحدة وجميع أنواع البيان التي استعملها للتفنن فى أساليب التعبير عن عواطفنا لاتزيد شيئاً على الكلمتين المهمتين.على الكلمتين اللتين نطلب منك ان تحفظهما في ذاكرتك كما نحفظهما نحن أيضا فى ذاكرتنا وهما الاسف والشكر (تصفيق طويل) واذا كنت قد تذرعت بصفتى خطيبا رسميا لارفع اليك هذه الامنية لخصوصية فما ذلك الاظنا منى بأنها ربما تزيد فى جزية الشكر الواجب الذى كلفت ان أرفعه اليك .

ثم ان كلمتى الثانية تتعلق بشخصى خاصة ياحضرة اللورد فانه يستحيل علىّ ان أعود الى مقعدى بعد ان تكلمت باسم الذين كلفونى ان أترجم لكم عن عواطفهم بدون ان اعلن سرورى من اناطة هذه المهمة التي انتدبت لها برجل فرنسوى . ويظهر لى اننى اكون شاكرا للجميل اذا لم أعلن على رؤوس الملا لزملائى أعضاء اللجنة التى أمثلها امتنانى وشكرى لهم على العناية التى حملتهم على اختيارى مندوبا لمخاطبة رجل حكومة مركزه في المقام الاول من الذين ساعدوا أعظم مساعدة على مااتفقوا ان يسموه بهذا الاسم اللطيف وهو الاتفاق الودادى (بين انكلترا وفرنسا)

خطبة اللورد كرومر

الفرنسوية

جناب الكونت وحضرات السادة الكرام

لست آسف في هذه الساعة من شئ سوى قصور معرفتى باللغة الفرنسوية البديعة عن التعبير اللائق عن كل ماأشعر به في قلبى فأرجو ياجناب الكونت أن تعتقدوا انى أشكركم خالص الشكر بالاصالة عن نفسى والنيابة عن اللادى كرومر على مافهتم به الآن من الكلام المتناهى في اللطف وحسن الانعطاف وماذا أقول أيها السادة فى مقابلتكم لخطبة الكونت دوسريون ومافيها من فرط المديح . انى أشعر كن كتف له سر عظيم اذ لم أكن أعلم ان لى اصدقاء هذا عددهم وهذا مقدار حلمهم وكرم أخلاقهم (تصفيق) . والذى يؤثر في

خصوصا أيها السادة ان هذه الحفلة جامعة لاناس من أمم عديدة فهي بهذا الاعتبار حف
مختلطة أودولية فاستميحكم استنتاج هذه النتيجة مما رأيت منكم فيها وهى أنى رغماء
الصعوبات الكثيرة التى لاتفارق مركزا مثل المركز الذى قضيت فيه ٢٤ سنة لم أكن
اعتبار جماعة من ذوى الرأى الصائب مثلكم بالرجل الرديء دوليا (ضحك) والواقع أ
كنت أقول فى نفسي دائمـا ان أول واجب عليّ هو فعل كل ما يطلب فعـله مني للدفا
عن مصالح بلادى ومصالح مصر . وانما وضعت بريطانيا العظمى ومصر فى كفة واحد
لانى آبى ان أعتبر كلا منهما على حـدة اذ كل من يدرك حقيقة مصالحهما يعـدها مص
واحدة

على اني علاوة على كوني انكليزيا ـ بل انكليزيا مصريا ـ لم أنس قط اني أور
أيضاً . وان رغد عيش الجاليات الاوربية العديدة المهمة النازلة في هذا القطر يعد مصلح
مصرية وبالتالى مصلحة بريطانية من الطبقة الاولى وأنا أعادر مصر مقتنعا بصحة هذ
القضية كل الاقتناع واذا سنحت فرصـة أو اقتضت ضرورة فلست أتغاضى عن
الدفاع عنها

هذا وأعيد لكم أيها السادة شكرى الصادر من صميم فؤادي راجيا أن تسبلوا
المعذرة على هذه العبارات المختصرة وسأتشرف بعدقليل بمخاطبتكم باللغة الانـكليزية

خطبة

عطوفة مصطفى باشا فهمى

ياجناب اللورد

بلسان الحكومة وبلسان السواد الاعظم من الامة المصرية أبدى لجنابكم شعائرالا
الاكيد على مفارقتكم هذه الديار أسف تتزايد شدته على الخصوص لعلمنا أن الباعث ا
أوجب هذا الرحيل هو اعتلال صحتكم التي ضحيتموها باحتمال المشاق ومواصلة الانه
في سبيل القيام بمـا فرضه عليكم حبكم لهذه البـلاد وتفانيكم في المساعدة على توطيدقواء
الثروة فيها بلا ملل ولا انقطاع عن العمل

ولم تنس مصر ان حسن الحال الذي وصلت اليه والذى استوجب الاعجاب العام هو نيجة ارشاداتكم السديدة وموازرتكم الاكيدة

نعم ان التاريخ خير كفيل بتسجيل ما أحرزته من أسباب التقدم والارتقاء و بتقدير هذه المآثر قدرها من الاكبار والاجلال ولكن لى كلمة أقولها الآن بوجه الاجمال وهى ان الفلاح المصري قد جنى ثمرات هذا الاصلاح وأحس بنعمة هذا الاسعاد ماديا وأدبياً أكثر من كل انسان سواه (تصفيق حاد)

هذا العمل المجيد سيخلد اسمكم الكريم و يدعو مصر اليوم كما انه يدعوها في مستقبل الايام الى الاعتراف لكم بهذا الجميل

وفي هذا المقام أعرب أيضا عن أسفنا لمفارقة اللادى كرومر التى استأسرت قلوب البائسين بحنانها واحسانها وخففت مصابهم بحسن مواساتها فاستحقت بهذا الصنيع شكر الخاص والعام (تصفيق شديد)

انكم ياجناب اللورد قد أخصلتم لمصر الودّ وجعلتم أجمل سنى حياتكم وقفاً على خدمتها فصرنا على يقين تام بأنكم ستوالوننا بعنايتكم على الدوام بما لنا على ذلك من الشواهد العديدة

ولا غرو اذا اغتنمنا هذه الفرصة لنعرب لكم فيها عن شدة تعلقنا بكم ولنقول انا لانزال نعتبركم كواحد منا (استحسان)

الخطبة الانكليزية

حضرات أصحاب السعادة والسادة الكرام

(الديباجه)

أرجو أن تقابلوا أقوالى بالحلم والاغضاء فان خطابى هذا يكلفنى جهدا عظيما جسديا أدبياً . أما جسدياً فلانه يلزمنى أن أجمع قوتى كلها لاخطب عليكم وأما أدبيا فلان اللطف الذى غمرنى به الناس على اختلاف طبقاتهم في الاسبوع الذى فات قد غلبني وحملنى جميلا كثيرا ولانى أشعر بألم الحزن الشديد فى نفسى على فراق هذه البلاد التى لى فيها

أصدقاء كثيرون وبها تقترن كل الحوادث التي حدثت لى في خدمتي العمومية وكذلك الافراح والاتراح التي أصابتني في حياتي المنزلية ومعيشتي العائلية مدة جيل تقريبا

(أسباب مفارقة هذا القطر)

اني لاأفارق هذا القطر أيها السادة لاسباب سياسية (تصفيق طويل حاد جدا) وانما أفارقه لان يد الدهر ابتدأت تثقل عليّ ولانى بعد ماقضيت في الخدمة العمومية نحو نصف قرن كنت في أكثره أكد كدا وأعدو عدوا يحق لى الآن أن أنال نصيبي من الراحة (استحسان) . ولانى أشعر أيضا ان المهام والمصالح العظيمة التى يطلب من وكيل الدولة البريطانية السهر عليها في هذا القطر يكون السهر عليها الآن أوفى وأتم اذا عين لها من هو أصغر سنا وفى ابان قوته ونشاطه عقلا وجسدا(اسمعوا اسمعوا)

(رد الثناء . واللادى كرومر)

أرى قبل التكلم في أمور أخرى أن أقول كلاماقليلا عن الاشارات اللطيفة والعبارات الرقيقة التى فاه بها جناب الكونت دوسربون وعطوفة رئيس النظار عن السيدة التى هى معينتى فى حياتى . فقد وقعت أقوالها وقعا شديدا فى نفسى ولا أشك انها وقعت كذلك في نفسها أيضا . وهذا موضوع لو أطلقت لنفسي العنان فيه لعدوت فى ميدان الفصاحة شوطا بعيدا (ضحك) ولكنى أملك عواطفي لاسباب ظاهرة وأكتفى بقولى انى لما كنت أصغي الى الخطبتين اللتين سمعناهما كنت أتمنى أن أكون مكان الخطيبين الكريمين وأطرى اللادى كرومر عوضا عن أن أرد على الثناء والاطراء (تصفيق وضحك) وربما جازلى في هذا المقام أن أقول انه كان من أقرب الامور الى قلب اللادى الاشتراك مع غيرها من السيدات المحسنات في تقليل الوفيات من الاطفال وتخفيف فتك الآفات بهم فتكاذر بما فمسى ان هذا العمل الذى ابتدأ ابتداء حسنا لايهمل فى المستقبل (تصفيق)

« المستر فندلى »

ولست أطيل الشرح أيها السادة فى تاريخ ما مضى ولا أستطيع أن أشير الى جميع الذين أسعدنى حظى بأن أكون شريكا لهم في انشاء مصر الجديدة وانما أقول اني

كنت دائماً أنال أكثر من نصيبي من مديح الناس على كل أمر حسن تم في هذه البلاد حديثاً والحال انى لولا مؤازرة غيرى من المصريين والاور بيين أبناء أمتى وأبناء الامم الاخرى لما استطعت أن أعمل شيأ مما عملناه وأقول انه لم يعمل أحد منهم عملا أنفع مما عمله المستر فندلى الذي كان ينوب عنى فى ظروف وأحوال لاتخلو من صعوبة خصوصية مدة غيابى فى السنوات الاخيرة (تصفيق)

(كثرة الاصدقاء)

لاريب عندي ان في الاربع والعشرين سنة التى قضيتها فى وظيفتى هنا ارتكبت خطأ كثيرا ويحتمل أن يكون قد عادانى أناس أيضا ولكنى أؤمل أن يكون وجودكم هنا اليوم دليلا على انى ربيت لى أصدقاء كثيرين أيضاً (تصفيق شديد وهتاف)

وقد أثر فيّ حضور كثيرين من رصفائى الاجانب الذين كانت العلاقات الشخصية بينى وبينهم على غاية الوداد كما كانت بينى وبين الذين سبقوهم أيضا

(المغفور له الخديو توفيق باشا)

قلت انى لا أستطيع أن أتكلم عن جميع الذين كانوا شركائى فى العمل لكن ذكر واحد أواثنين من أكابرهم يخطر الآن فى بالى وتتردد صورتهما بجلاء وقوة أمام ذهني حتى لايسعنى الا أن أذكر اسميهما فى هذا المقام . فأقول كلة أوكلتين عن شخص أرى ان الناس لم يعطوه حقه ولا أنصفوه وأريد به المغفور له سمو الخديو توفيق باشا (تصفيق) على انى لا أقصد أن أسرد ألفاظ المدح الفارغ أو أورد الاقوال والعبارات المصطلح عليها بلا نظر الى صحة معانيها بل انى أعنى ما أقول فتوفيق باشا كان يعرف بلاده ويعرف أهل بلاده أيضا حق المعرفة وكان شبه حلقة الاتصال بين المصلحين والشعب المصرى يلطف من شدة غيرة الاولين أحيانا ويبذل نفوذه مع الآخرين لنفى خوفهم من الاصلاح الذى كان حينئذ يفوق خوف المحافظين المتطرفين فالتاريخ يكون ظالما لا عادلا انلم يجعل لتوفيق باشا مقاما ذا شأن بين الغابرين من الملوك والامراء الشرقيين وهو لم يكن يشترك بنفسه كثيرا في اصلاح مصر وتجديدها ولكنه كان لحكمته وحسن فطنته ينشط ويؤيد الساعين

في تجديدها واصلاحها (تصفيق)

« المرحوم نوبار باشا »

وهناك شخص آخر من عظماء الزمن الماضي يخطر الآن على بالى وتتردد صورته في هذا المقام أمام ذهنى . فالذين يعرفون منكم أيها السادة تاريخ العهد الماضى فى مصر والذين قرؤا تقريري السنوى الحديث يعلمون ان ما اقترحته لتعديل نظام الامتيازات الاجنبية انما هو بمثابة تتمة للعمل العظيم الذي يحكي أعمال أرباب السياسة والذى خط المرحوم نوبار باشا خطته الاصلية « تصفيق كثير »

« دولة رياض باشا »

وأذكر أيضا اسم رجل آخر من أرباب السياسة وأنا مسرور بمشاهدته الآن بيننا ألا انه صديقي القديم المؤتمن دولة رياض باشا (تصفيق شديد طويل . وهنا أحنى دولة رياض باشا رأسه علامة الامتنان)

اننا أيها السادة في زمان لايحتاج فيه الشاب المصرى الذى يتظاهر بمظهر المصلحين الى شجاعة تذكر . ولكن ماهو كائن الآن لم يكن كذلك طول الزمان بل كان لاسماعيل باشا رحمه الله طرق عنيفة فى معاملة الذين لايطأطئون الرؤس أمامه ولا يعنون لهيبته (ضحك) ومع ذلك وقف رياض باشا منذ ٣٠ سنة واعترض بكل جرأة على سوء الادارة وأقام الحجة على فساد الاحكام الذى كان متغلبا على مصر فى تلك الايام . وعلق الجرس بعنق الهر (١) فأعجبت بشجاعته هذه حينئذ . وكثيرا ماوقع بينى و بين صديقى ورصيفي القديم خلاف بعد ذلك ولكنى لم أكف قط عن النظر اليه بعين الاعتبار بل بعين المحبة التى تستحقها صفاته العبقرية (تصفيق كثير)

(عطوفة مصطفى باشا فهمى)

وماذا أقول عن صديقى العزيز عليّ السامى المقام في عينى عطوفة مصطفى باشا فهمى (تصفيق حاد وطويل جدا) فقد قضينا السنين الطوال ونحن كلانا على أعظم صداقة

---

(١) المترجم أشبه بمثل يضرب فى الشجاعة

شخصية فأولا أقول انه من أعظم الذين التقيت بهم في حياتي لطفا وأكرمهم أخلاقا وأحسنهم مناقب (هتاف شديد وتصفيق حاد) امتاز بتمام الاخلاص والاستقامة والجرية والصدق في كل عمل من أعمال حياته (تصفيق) . وثانيا أقول انه خدم أهل بلاده أجل الخدم ولكن بطريقته المعهودة من السكينة والهدو والابتعاد عن التعرض لغيره والدخول فيما لايعنيه وأنا أعلم أن هذه الاقوال القليلة لاتوفي صفاته الجليلة بعض حقها (تصفيق) ولكنه لايزال لديّ قول كثير والوقت يقضي عليّ أن أقتصر فيما أقول

(سعادة بطرس باشا غالى)

ومما أوجب لى السرور العظيم انى عاشرت ناظر الخارجية المصرية سعادة بطرس باشا غالى معاشرة طويلة (تصفيق كثير) وكان يؤدي أعظم منفعة وأجل خدمة بما أوتي من ثاقب البصيرة وسعة الحيلة العقلية فى حل المشكلات التى تنجم عن حالة البلادالسياسية الخصوصية (تصفيق)

(سعادة سعد باشا زغلول)

وأذكر أخيرا أيها السادة اسم رجل لم أشتغل معه الا من عهدقريب لكن معاشرتي القصيرة له قد علمتنى أن أحترمه احتراما عظيما وان أصاب ظني أولم يخطيء كثيرا فسيكون امام ناظر المعارف الجديد سعادة سعد باشا زغلول مستقبل عظيم للمنفعة العمومية (تصفيق حاد طويل) لانه حائز لجميع الصفات اللازمة لخدمة بلاده فهو صادق مستقيم كفوء مقتدر شجاع فيما هو مقتنع به وقد احتمل الطعن والذم من كثيرين دونه فضلا بمراحل من أبناء وطنه فهذه صفات سامية فالواجب ان صاحبها يتقدم كثيرا (تصفيق كثير)

(السير كولن سكوت منكريف)

(والسير وليم جارستن والمسيو مسيرو)

أما شركائى فى العمل من الاوربيين فغاية ما أقوله عنهم انى أشكرهم من صميم فؤادى على مساعدتهم التى لاتثمن وعلى شدهم أزرى في أحوال محفوفة بمصاعب عظيمة ولا يسع المقام ذكرهم الآن كلهم بأسمائهم ولكن ان كان فيهم من يجب على أهل هذه البلاد أن يعزوا اسمه خصوصا فلعله السركولن منكريف والسيروليم جارستن وأعوانهما

تسعى اليها انكلترا في وادى النيل

واذا تحقق هذا علم أن تلك السياسة الفضلى مع المصريين فيما قلناه أمس وصية له لسان اللورد كرومر

« احترم دين هذه الامة تملك أعنة قلوبها . أكرم رؤساءها تطأطئ لك هامات الشعب احتراما ومودة . ساعدها على الترقي الحقيقي والحكم الذاتى فانهاقادرة فى الحقيقة عليه . ولا تعارض الرأي العام بصلف وكبرياء فانك لا تستطيع أن تصده الا باللين وحسن المعاملة »

ذلك هو مجمل ما نريده من جناب السير غورست وسوف يأتى التفصيل والله ولى التوفيق والرشاد .

(المؤيد فى يوم الثلاثاء ١٧ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ — ٣٠ ابريل سنة ١٩٠٧ — عدد ٥١٥٢)

حفلة وداع

اللورد كرومر

فى الاوبرة الخديوية

هذه صورة الخطب التى ألقيت مساء أمس (السبت ٤ مايو سنة ١٩٠٧) في الاوبرة الخديوية للاحتفال بوداع اللورد كرومر

خطبة الكونت دوسريون

ياجناب اللورد

ان اللجنة التى شكلت في اليوم التالى لليوم الذى أعلن فيه خبر سفركم تمثل جميع الذين جمعتهم جامعة الاسف الشديد والامتنان المزيد بلا تمييز بين الجنس والدين والمذهب وهم يرغبون فى ان يعلنوا على رؤوس الاشهاد الاستياء الذى يشعرون به لانقطاعكم لاسباب صحية عن عمل مجيد مرتبط تمام الارتباط مدة ثلاثين سنة بالبحث عن التقدم والنجاح من أى نوع كان والسعى فى تحقيقه كما نشهد به الآن سعادة القطر المصرى (تصفيق)

ان عطوفة مصطفى باشا فهمي سيخاطبكم الآن باسم الوطنيين وموظفي الحكومة أما انا فأقول لكم نيابة عن اللجنة التي أشكرها من صميم فؤادي لأنها عهدت الي ان اعرب عن عواطف أولئك الذين يهمهم ان يظهروا لكم أسفهم وامتنانهم وان كانوا غير مرتبطين بهذه البلاد رابطة الجنسية أو الوظائف العمومية

انكم لاتتوقعون مني ياسادتي ان أعدد لكم هنا الخدمات العديدة التي قام بها جناب اللورد كرومر لهذه البلاد من حين مادعي للمساعدة في ادارتها وعين عضواً في صندوق الدين الى هذه الساعة التي عزم علي مفارقتكم فيها مزودا باعجابنا واحترامنا اللذين يفوق معناهما جميع الالفاظ التي أستطيع استعمالها لوصف هذه الاعمال المجيدة التي صارت الآن من حقائق التاريخ (تصفيق طويل)

ولا أخشي ان اخرج عن الدائرة التي رسمت لي بتجديد ذكر الاعمال العظيمة التي امتازت بها مهمة اللورد كرومر في مصر لان جميع الذين أتكلم باسمهم استفادوا كما استفاد الرعايا المحليون من أعمال الاصلاح والتقدم التي لاتحصى والتي جعلت هذه البلاد من أسعد بلدان العالم ومن أكثرها تأهيلا بقاصديها (تصفيق) وعليه فيحق لهم بل يجب عليهم أن يشتركوا مع الذين يذكرون أعمال ذلك الرجل التي هي عجيبة بوحدتها وفاعليتها وقوتها وما بذل فيها من الهمة حتى يكون الشكر لها على قدر النفع (تصفيق)

هذا واني لاأقصد الدخول في تفاصيل الاعمال المختلفة الانواع التي الفضل فيها لنصائح اللورد كرومر الرشيدة والتي سمحت على مانعلم جميعاً للاجانب المقيمين في هذه البلاد بان يشتركوا في خيراتها وسعادتها في كنف الامن والتسامح اللذين ليس ثم مايعادلهما في جهات العالم الاخرى

ولكن ليسمح لي أن أشير الى النظام الجديد الذي ولدته فكرة اللورد كرومر وتركه قبل ان يخرج الى حيز العمل . هذا وان جميع نزلاء مصر على اختلاف أجناسهم يؤملون تحقيق أمانيهم في هذا الموضوع. أقول ذلك بحضرة اللورد ولكن لاأستطيع ان أؤكده تأكيد أقوالي السابقة ولالي صفة رسمية لذلك

• أما الامر الذي أشعر أني مفوض تمام التفويض بقوله هو أنهم جميعاً بلااستثناء سرور أعظم

سرور من الاهتمام الذى أبديتموه فى اعداد هذا المشروع للوقوف على آراء عـدد عظيم من أصحاب الآراء فكان تأثيرذلك فى الاوربيين انهم أيقنوا بانكم تريدون أن تساعدوهم على تحسين حالتهم المادية والادبية زيادة عما تحسنت

لاتخافوا ياسادتي فانى لاأطيـل الكلام في هـذا الموضوع المتصل بالسياسة العليا رضيت بذلك أولم أرض ولم أنس اننا لم نجتمع هنا الا لنظهر لك ياجناب اللورد في حفـلة جمعت جميع الاصناف والطبقات والطوائف فى ساعـة مفارقتك لارض مصر الجميلة التى تفيض على أفضل كنوزها ـ ان الشكر الصادر عن الادراك وشرف النفس ينمو فيهـذه الارض تحت شمسها النافعة كثمار تربتها فنقـدم لك فى هذه الساعة الجامعـة بين الحزن والبهجة أجمل الثمار التى نسر بها نفسك (تصفيق)

ألا فاسمح لى ياحضرة اللورد ان أضم الى اسمكم اظهار أسفنا وميلنا واحترامنا اسم تلك التى ساعدت كثيرا بلطفها وفضائلها الكثيرة مافيك من صـفات الحزم والعزم التى رفعت شأن مهمتك أعني بها المساعدة اللطيفة لاعمالـكم التى تعملونها كل يوم لخير البلاد وسعادتها. وهى لادى كرومر التي ستبقى صورتها حية في ذاكرتنا ممثلة الصلاح وجانحة على الدوام الى مساعدة الفقراء وتعزيتهم وتخفيف آلامهم (تصفيق)

وعليه فاننا نوجه اليها كما نوجه اليك الدعوات الصادرة من صميم أفئدتنا جميعا طالبين من الله سبحانه وتعالى أن يمن عليكم بالشفاء حتى اذا أجيبت دعواتنا تتمتم زمانا طويلا بأحسن جزاء يجازى به الانسان في هذا العالم وهو السرور الذى يخامر فؤاد من يرى في اعتزاله الهنيء البذور التي زرعها تنتج ثمرا يانعا (تصفيق)

ياسادتى انى انتهيت من خطبتى ولكن ليسمح لى جناب اللورد ان أزيد كلمتين على ماقلتـه كلمتين فقط ولو كان فى ذلك اخلال لنظام البيان المرسوم لهذه الحفلة فقد تـكلمت باسم اللجنة العمومية التى تألفت كما أشرت الى ذلك قبـلا فانتهت مهمتى ولكن يلوح لى ياحضرة اللورد انى لم أنجزها كلها اذ لم أقدم لك احترام واكرام لجنة أخرى عينتنى رئيساً لها وهى تؤلف من أعيان الاوربيين فيهذه العاصمة الذين لايشغلون وظائف رسمية ولكنها اعتمدت أن لاتظهر بل تقدم عليها هذه الحفلة التى هى أعم من سواها وبالتالى أقدر على

ظهار الاكرام الواجب لك وعليه فانني لأخطب خطبة ثانية باسم تلك اللجنة اكرر فيها
لاقوال التى قلتها فى خطبتى لان الحقيقة واحدة وجميع أنواع البيان التي استعملها للتفنن
ن أساليب التعبير عن عواطفنا لاتزيد شيئاً على الكلمتين المهمتين.على الكلمتين اللتين
طلب منك ان تحفظهما فيذاكرتك كما نحفظهما نحن أيضا فى ذاكرتنا وهما الاسف والشكر
تصفيق طويل) واذا كنت قد تذرعت بصفتى خطيبا رسميا لارفع اليك هذه الامنية
لخصوصية فما ذلك الاظنا مني بانها ربما تزيد فى جزية الشكر الواجب الذى كلفت
ن أرفعه اليك .

ثم ان كلمتى الثانية تتعلق بشخصى خاصة ياحضرة اللورد فانه يستحيل عليّ ان أعود
لى مقعدى بعد ان تكلمت باسم الذين كافونى ان أترجم لكم عن عواطفهم بدون ان
علن سرورى من اناطة هذه المهمة التي انتدبت لها برجل فرنسوى . ويظهر لى انني اكون
كرا للجميل اذا لم أعلن على رؤوس الملا لزملائى أعضاء اللجنة التى أمثلها امتنانى وشكرى
م علي العناية التى حملتهم على اختيارى مندوباً لمخاطبة رجل حكومة مركزه في المقام الاول
ن الذين ساعدوا أعظم مساعدة على ماتفقوا ان يسموه بهذا الاسم اللطيف وهو الاتفاق
ودادى (بين انكلترا وفرنسا)

خطبة اللورد كرومر

الفرنسوية

جناب الكونت وحضرات السادة الكرام

لست آسف في هذه الساعة من شئ سوى قصور معرفتى باللغة الفرنسوية البديعة عن
تعبير اللائق عن كل ماأشعر به في قلبى فأرجو ياجناب الكونت أن تعتقدوا انى أشكركم
خالص الشكر بالاصالة عن نفسى والنيابة عن اللادى كرومر علىمافهتم به الآن من الكلام
متناهى في اللطف وحسن الانعطاف وماذا أقول أيها السادة فى مقابلتكم لخطبة الكونت
سريون ومافيها من فرط المديح . انى أشعر كمن كشف له سر عظيم اذ لم اكن أعلم ان لى
صدقاء هذا عددهم وهذا مقدار حبهم وكرم أخلاقهم (تصفيق) . والذى يؤثر فيّ

خصوصا أيها السادة ان هذه الحفلة جامعة لاناس من أمم عديدة فهي بهذا الاعتبار حف
مختلطة أودولية فاستميحكم استنتاج هـذه النتيجة مما رأيت منكم فيها وهى أنى رغماء
الصعوبات الكثيرة التى لا تفارق مركزا مثل المركز الذى قضيت فيه ٢٤ سنة لم أكن
اعتبار جماعة من ذوى الرأى الصائب مثلكم بالرجل الرديء دوليا (ضحك) والواقع
كنت أقول فى نفسي دائما ان أول واجب علىّ هو فعل كل ما يطلب فعله منى للدفا
عن مصالح بلادى ومصالح مصر . وانما وضعت بريطانيا العظمى ومصر فى كفة واحد
لانى آبى ان أعتبر كلا منهما على حدة اذ كل من يدرك حقيقة مصالحهما يعدها مص
واحدة

على اني علاوة على كوني انكليزيا ـ بل انكليزيا مصريا ـ لم أنس قط اني أور
أيضاً . وان رغد عيش الجاليات الاوربية العديدة المهمة النازلة في هذا القطر يعد مصلح
مصرية وبالتالى مصلحة بريطانية من الطبقة الاولى وأنا أغادر مصر مقتنعا بصحة هـ
القضية كل الاقتناع واذا سنحت فرصة أو اقتضت ضرورة فلست أتغاضى عن
الدفاع عنها

هذا وأعيد لكم أيها السادة شكرى الصادر من صميم فؤادي راجيا أن تسبلوا
المعذرة على هذه العبارات المختصرة وسأتشرف بعد قليل بمخاطبتكم باللغة الانكليزية

خطبة

عطوفة مصطفى باشا فهمى

ياجناب اللورد

بلسان الحكومة وبلسان السواد الاعظم من الامة المصرية أبدى لجنابكم شعائر الا
الاكيد على مفارقتكم هذه الديار أسف تتزايد شدته على الخصوص لعلمنا أن الباعث ا
أوجب هذا الرحيل هو اعتلال صحتكم التي ضحيتموها باحتمال المشاق ومواصلة الا
في سبيل القيام بما فرضه عليكم حبكم لهذه البلاد وتفانيكم في المساعدة على توطيد قوا
الثروة فيها بلا ملل ولا انقطاع عن العمل

ولم تنس مصر ان حسن الحال الذي وصلت اليه والذى استوجب الاعجاب العام هو
ة بجة ارشاداتكم السديدة وموازرتكم الاكيدة

نعم ان التاريخ خير كفيل بتسجيل ما أحرزته من أسباب التقدم والارتقاء و بتقدير
ـه المآثر قدرها من الاكبار والاجلال ولكن لى كلمة أقولها الآن بوجه الاجمال وهى
ا الفلاح المصري قد جنى ثمرات هذا الاصلاح وأحس بنعمة هذا الاسعاد ماديا وأدبياً
و بكثر من كل انسان سواه (تصفيق حاد)

هذا العمل المجيد سيخلد اسمكم الكريم و يدعو مصراليوم كما انه يدعوها في مستقبل
ا يام الى الاعتراف لكم بهذا الجميل

وفي هذا المقام أعرب أيضا عن أسفنا لمفارقة اللادى كرومر التى استأسرت قلوب
ا ئسين بحنانها واحسانها وخففت مصابهم بحسن مواساتها فاستحقت بهذا الصنيع شكر
ا ص والعام (تصفيق شديد)

انكم ياجناب اللورد قد أخصلتم لمصر الودّ وجعلتم أجمل سنى حياتكم وقفاً على
ـ دمتها فصرنا على يقين تام بأنكم ستوالوننا بعنايتكم على الدوام بمالنا على ذلك من
ا واهد العديدة

ولا غرو اذا اغتنمنا هذهالفرصة لنعرب لكم فيها عن شدة تعلقنا بكم ولنقول انا لانزال
ة ركم كواحد منا (استحسان)

الخطبة الانكليزية

حضرات أصحاب السعادة والسادة الكرام

(الديباجه)

أرجو أن تقابلوا أقوالى بالحلم والاغضاء فان خطابى هذا يكلفنى جهدا عظيما جسديا
و دبياً . أما جسدياً فلانه يلزمنى أن أجمع قوتى كلها لاخطب عليكم وأما أدبيا فلان اللطف
ا ى غمرنى به الناس على اختلاف طبقاتهم في الاسبوع الذى فات قد غلبني وحملنى
يلا كثيرا ولانى أشعر بألم الحزن الشديد فى نفسى على فراق هذه البلاد التى لى فيها

أصدقاء كثيرون و بها تقترن كل الحوادث التي حدثت لي في خدمتي العمومية وكذلك الافراح والاتراح التي أصابتني في حياتي المنزلية ومعيشتي العائلية مدة جيل تقريبا

(أسباب مفارقة هذا القطر)

اني لا أفارق هذا القطر أيها السادة لاسباب سياسية (تصفيق طويل حاد جدا) وانما أفارقه لان يد الدهر ابتدأت تثقل عليّ ولاني بعد ماقضيت في الخدمة العمومية نحو نصف قرن كنت في أكثره أكد كدا وأعدو عدوا يحق لي الآن أن أنال نصيبي من الراحة (استحسان) . ولاني أشعر أيضا ان المهام والمصالح العظيمة التي يطلب من وكيل الدولة البريطانية السهر عليها في هذا القطر يكون السهر عليها الآن أوفى وأتم اذا عين لها من هو أصغر سنا وفي ابان قوته ونشاطه عقلا وجسدا (اسمعوا اسمعوا)

(رد الثناء . واللادي كرومر)

أرى قبل التكلم في أمور أخرى أن أقول كلاما قليلا عن الاشارات اللطيفة والعبارات الرقيقة التي فاه بها جناب الكونت دوسربون وعطوفة رئيس النظار عن السيدة التي هي معينتي في حياتي . فقد وقعت أقوالها وقعا شديدا في نفسي ولا أشك انها وقعت كذلك في نفسها أيضا . وهذا موضوع لو أطلقت لنفسي العنان فيه لعدوت في ميدان الفصاحة شوطا بعيدا (ضحك) ولكني أملك عواطفي لاسباب ظاهرة وأكتفي بقولي اني لما كنت أصغي الى الخطبتين اللتين سمعناهما كنت أتمنى أن أكون مكان الخطيبين الكريمين وأطرى اللادي كرومر عوضا عن أن أرد على الثناء والاطراء (تصفيق وضحك) وربما جازلي في هذا المقام أن أقول انه كان من أقرب الامور الى قلب اللادي الاشتراك مع غيرها من السيدات المحسنات في تقليل الوفيات من الاطفال وتخفيف فتك الآفات بهم فتكاذريعا فعسى ان هذا العمل الذى ابتدأ ابتداء حسنا لا يهمل في المستقبل (تصفيق)

« المستر فندلى »

ولست أطيل الشرح أيها السادة في تاريخ ما مضى ولا أستطيع أن أشير الى جميع الذين أسعدني حظي بأن أكون شريكا لهم في انشاء مصر الجديدة وانما أقول اني

كنت دائماً أنال أكثر من نصيبي من مديح الناس على كل أمر حسن تم في هذه البلاد حديثاً والحال انى لولا مؤازرة غيرى من المصريين والاور بيين أبناء أمتى وأبناء الامم الاخرى لما استطعت أن أعمل شيأ مما عملناه وأقول انه لم يعمل أحد منهم عملا أنفع مما عمله المستر فندلى الذي كان ينوب عنى فى ظروف وأحوال لاتخلو من صعوبة خصوصية مدة غيابى فى السنوات الاخيرة (تصفيق)

(كثرة الاصدقاء)

لاريب عندي ان في الاربع والعشرين سنة التى قضيتها فى وظيفتى هنا ارتكبت خطأ كثيرا ويحتمل أن يكون قد عادانى أناس أيضا ولكنى أؤمل أن يكون وجودكم هنا اليوم دليلا على اني ربيت لى أصدقاء كثيرين أيضاً (تصفيق شديد وهتاف)

وقد أثر في حضور كثيرين من رصفائى الاجانب الذين كانت العلاقات الشخصية بينى وبينهم على غاية الوداد كما كانت بينى وبين الذين سبقوهم أيضا

(المغفور له الخديو توفيق باشا)

قلت انى لا أستطيع أن أتكلم عن جميع الذين كانوا شركائى فى العمل لكن ذكر واحد أواثنين من أكابرهم يخطر الآن فى بالى وتتردد صورتهما بجسلاء وقوة أمام ذهني حتى لايسعنى الا أن أذكر اسميهما فى هذا المقام . فأقول كلمة أوكلمتين عن شخص أرى ان الناس لم يعطوه حقــه ولا أنصفوه وأريد به المغفور له سمو الخديو توفيق باشا (تصفيق) على انى لا أقصد أن أسرد ألفاظ المدح الفارغ أو أورد الاقوال والعبارات المصطلح عليها بلا نظر الى صحة معانيها بل انى أعنى ما أقول فتوفيق باشا كان يعرف بلاده و يعرف أهل بلاده أيضا حق المعرفة وكان شبه حلقة الاتصال بين المصلحين والشعب المصرى يلطف من شدة غيرة الاولين أحيانا و يبذل نفوذه مع الآخرين لنفى خوفهـم من الاصلاح الذى كان حينئذ يفوق خوف المحافظين المتطرفين فالتاريخ يكون ظالما لا عادلا ان لم يجعل لتوفيق باشا مقاما ذا شأن بين الغابرين من الملوك والامراء الشرقيين وهو لم يكن يشترك بنفسه كثيرا في اصلاح مصر وتجديدها ولكنه كان لحكمته وحسن فطنته ينشط و يؤيد الساعين

في تجديدها واصلاحها (تصفيق)

« المرحوم نوبار باشا »

وهناك شخص آخر من عظماء الزمن الماضي يخطر الآن على بالى وتتردد صورته في هذا المقام أمام ذهني . فالذين يعرفون منكم أيها السادة تاريخ العهد الماضى فى مصر والذين قرؤا تقريري السنوى الحديث يعلمون ان ما اقترحته لتعديل نظام الامتيازات الاجنبية انما هو بمثابة تتمة للعمل العظيم الذي يحكي أعمال أرباب السياسة والذى خط المرحوم نوبار باشا خطته الاصلية « تصفيق كثير »

« دولة رياض باشا »

وأذكر أيضا اسم رجل آخر من أرباب السياسة وأنا مسرور بمشاهدته الآن بيننا ألا انه صديقي القديم المؤتمن دولة رياض باشا (تصفيق شديد طويل . وهنا أحنى دولة رياض باشا رأسه علامة الامتنان)

اننا أيها السادة في زمان لايحتاج فيه الشاب المصرى الذى يتظاهر بمظهر المصلحين الى شجاعة تذكر . ولكن ماهو كائن الآن لم يكن كذلك طول الزمان بل كان لاسماعيل باشا رحمه الله طرق عنيفة فى معاملة الذين لا يطأطئون الرؤس أمامه ولا يعنون لهيبته (ضحك) ومع ذلك وقف رياض باشا منذ ٣٠ سنة واعترض بكل جرأة على سوء الادارة وأقام الحجة على فساد الاحكام الذى كان متغلبا على مصر فى تلك الايام . وعلق الجرس بعنق الهر (١) فأعجبت بشجاعته هذه حينئذ . وكثيرا ماوقع بينى وبين صديقي ورصيفي القديم خلاف بعد ذلك ولكنى لم أكف قط عن النظر اليه بعين الاعتبار بل بعين المحبة التى تستحقها صفاته العبقرية (تصفيق كثير)

(عطوفة مصطفى باشا فهمى)

وماذا أقول عن صديقي العزيز عليّ السامى المقام في عينى عطوفة مصطفى باشا فهمى (تصفيق حاد وطويل جدا) فقد قضينا السنين الطوال ونحن كلانا على أعظم صداقة

---

(١) المترجم أشبه بمثل يضرب فى الشجاعة

شخصية فأولا أقول أنه من أعظم الذين التقيت بهم في حياتي لطفا وأكرمهم أخلاقا وأحسنهم مناقب (هتاف شديد وتصفيق حاد) امتاز بتمام الاخلاص والاستقامة والحرية والصدق في كل عمل من أعمال حياته (تصفيق) . وثانيا أقول انه خدم أهل بلاده أجل الخدم ولكن بطريقته المعهودة من السكينة والهدو والابتعاد عن التعرض لغيره والدخول فيما لايعنيه وأنا أعلم أن هذه الاقوال القليلة لاتوفي صفاته الجليلة بعض حقها (تصفيق) ولكنه لايزال لديّ قول كثير والوقت يقضي عليّ أن أقتصر فيما أقول

(سعادة بطرس باشا غالى)

ومما أوجب لى السرور العظيم انى عاشرت ناظر الخارجية المصرية سعادة بطرس باشا غالى معاشرة طويلة (تصفيق كثير) وكان يؤدي أعظم منفعة وأجل خدمة بما أوتي من ثاقب البصيرة وسعة الحيلة العقلية فى حل المشكلات التى تنجم عن حالة البلادالسياسية الخصوصية (تصفيق)

(سعادة سعد باشا زغلول)

وأذكر أخيرا أيها السادة اسم رجل لم أشتغل معه الا من عهدقريب لكن معاشرتي القصيرة له قد علمتنى أن أحترمه احتراما عظيما وان أصاب ظني أولم يخطيء كثيرا فسيكون امام ناظر المعارف الجديد سعادة سعد باشا زغلول مستقبل عظيم للمنفعة العمومية (تصفيق حاد طويل) لانه حائز لجميع الصفات اللازمة لخدمة بلاده فهو صادق مستقيم كفؤ مقتدر شجاع فيما هو مقتنع به وقد احتمل الطعن والذم من كثيرين دونه فضلا براحل من أبناء وطنه فهذه صفات سامية فالواجب ان صاحبها يتقدم كثيرا (تصفيق كثير)

(السير كولن سكوت منكريف)

(والسير وليم جارستن والمسيو مسير و)

أما شركائى فى العمل من الاوربيين فغاية ما أقوله عنهم انى أشكرهم من صميم فؤادى على مساعدتهم التى لاتثمن وعلى شدهم أزرى في أحوال محفوفة بمصاعب عظيمة ولا يسع المقام ذكرهم الآن كلهم بأسمائهم ولكن ان كان فيهم من يجب على أهل هذه البلاد أن يعزوا اسمه خصوصا فلعله السركولن منكريف والسير وليم جارستن وأعوانهما

الذين أعطوا المصريين أعظم مايحتاجون اليه وهو ماء الرى . وأضيف الى اسميهما اسم رجل فرنساوى شهير جليل وهو المسيو مسبرو الذى أكسبته ابحاثه العلمية فى تاريخ مصر القديم ماهو حقيق به من الصيت الطائر في الآفاق

(السر رجينلد ونجت باشا)

أخيرا أيها السادة أقول انه لم يكن يهمني و يلذلى من كل واجباتى أكثر من واجباتي المختصة بالسودان وسأعد اشتراكى مع السر رجينلد ونجت واعوانه الغيورين الا كفاء في الاصلاح العظيم الجارى فى تلك البلاد منذ أعوام مصدرا أستمد منه الفخر والسرور كل ايام حياتى (تصفيق كثير)

(حسن ظنه بالمصريين وحسن اعتذاره عنهم)

فبمساعدة الذين ذكرتهم ومساعدة كثيرين غيرهم اظن اننا عملنا عملا غير ردىء في ربع قرن من الزمن وان يكن فيه مافيه من القصور والتقصير ولكن يقول لى قوم كثيرون ان المصريين بوجه الاجمال لايعترفون كثيرا بالجميل و بالمنافع والفوائد التى لاشك في أنها منحت لهم. فأجيب على ذلك انى لا أعرف مايشعر به المصريون من هذا القبيل ولكن فيلسوفا فرنساويا قال قولا أو رد معناه ولست أجزم باقتباس مبناه قال اذا قاسى شعب آلام الظلم والضيم طويلا لم يكد يبقى له طاقة على شكر الذين يخلصونه منها

ولا ريب ان أهل مصر قسوا كثيرا فى ماضى زمانهم ومهما كان شعور المصريين وكانت حاساتهم ومهما برهن لى المبرهنون وأقاموا علىّ الحجة والدليل فلست بتاركهم يحجونني ليخرجوني من الوهم الشريف الذى أنا فيه ان صح أنه وهم لاحقيقة . وأعني بذلك أنه لايمكن أن أصدق ان المصريين ــ أوأحسنهم على كل حال ــ ينكرون أن التمدن الغربي التى كانت تستعملها انكلترا لعمل عملها فى الخمس والعشرين سنة الماضية التى انتشلتهم من بالوعة اليأس بعد ماألقاهم دهرهم فيها . وهب انى اقتنعت ــ وما أنا بمقتنع مطلقا ــ ان أبناء الجيل الحاضر لايعترفون بهذه الحقيقة الجلية فاني لاأزال أؤمل مع ذلك ان نسلهم يعترف بها اذ المعتاد ان أولاد العميان يكونون من المبصرين (ضحك)

(الغرض السياسى)

أيها السادة لما أتيت هذه الديار لاتقلد وظيفتي الحالية فيها وضعت نصب عيني غرضين وجعلت أسعى اليهما دواما مدة أعوم طويلة أحدهما سياسى والآخر ادارى

فالغرض السياسى الذى وضعته نصب عينى هو أن أكون من جملة المساعدين على اعادة ذلك الاتفاق الذي قضت الاحوال بعه بين فرنسا وانكلترا ولم تقض بذلك مقاصد حكامهما وأهاليهما ولا مطامعهم . قال السياسى الطائر الصيت المسيو غمبتا الذى كانت ارادته المتسلطة على العقول مدة تقلده منصبه تؤثر فى سير تاريخ مصر تأثيرا دائما يوصى أهل بلاده اياكم وان تقطعوا حبل المحالفة الانكليزية ومذهبى فى السياسة الدولية الذى يشاركنى عدد عظيم من أهل بلادى فيه يمكن أن يعبر عنه بهذه العبارة : اياكم وأن تقطعوا حبل الاتفاق الفرنسوي (تصفيق) فنهذا الاتفاق الذى أشار اليه الكونت دوسريون بعباراته المطبقة مبنى على اشتراك الفريقين فى المصلحة . وعلى قرب الجوار وتشابه النظامات السياسية واحترام كل فريق للآخر احتراما ناتجا عن تلاقيهما فىساحات الوغى كثيراً واقتتالهما فيها شديداً وعلى كون خصائص كل منهماوصفاته مكملة لخصائص الآخر وصفاته. وزد على ذلك كله انه ليس في هذا الاتفاق تهديد لاحد وانما هو صادر عن رغبة الفريقين فىحفظ السلام فى العالم فان كان في العالم امتنان تقضى عليهما الاحوال والظروف بأن تتصادقا وتتحابا فانماهما أمتا فرنسا وانكلترا (تصفيق)

فلا يخفى على أقل مبتدىء في السياسة انه مادامت هذه القرحة المصرية تنز فصداقة تينك الامتين لابد وأن تمس ولذلك لما أتيت مصر سنة ١٨٨٣ عقدت نيتى على أن اسعى فى سد هذه الثغرة بقدر مايمكننى دائرة وظيفتى . وكان ذلك سعيا شاقا كسعى الطالع جبلا حاملا ثقلا . فان الامتين قضتا الاعوام وكل منهما تنظر الى الاخرى شزراً وقد دارت بينهما المضاربة والملاكمة القاسية ولكنهالم تتمد والحمد لله حد الكلام ونلت أنا نصيبي منها فقد ظلت زمناً والجرائد الفرنسوية تذكر اسمى منعوتا بنعوت الذم الا نادأً وأظن أن أكثرها كان يلقبني بكرومر الوحش (Le brutal Cromer) (قهقهة) وقد شبهتني مرة على

ماأتذكر بأعظم آلهة الوثنيين حبا لشرب الدماء حيث لقبتني بمولوك (قهقهة) (١) . ولكن مداعبات الجرائد هـذه هي في المناقشات السياسـية كالافاويه والتوابل في الطعام فتكسبه حياة وتزيدها نكهة ورونقا فلا يحسـن بالانسان ان يحفل بها كثيرا لاسيا وان زمانها قد مضي لحسن الحظ وانقضى وتغيرت لهجة الجرائد الفرنسوية حتى لقبتني مرة في هذه الايام بهذا الشيخ الجليل Cet illustre viellard (قهقهة) على انى أفرغت الجهد مدة أعوام كثيرة في المساعدة على عقد الاتفاق بين الامتين وأقول الآن ان أسعد يوم من أيام خدمتي في مصر كان يوم ٦ ابريل سنة ١٩٠٤ الذى وقع فيه الاتفاق الانكليزى الفرنسوى لست أدعى أنى كنت من أشهر واضعي ذلك الاتفاق بـل أعترف ان الفضـل فى عقده كان لارباب السياسـة المتولين زمام الامور الخارجية ومثلى في باريس ولندن وربما جاز لى من غير ان أمس واجب الاكرام والاحـترام ان أضيف اليهم مليكنا السامى النهى العظيم المواهب العقلية الذى نلت الفخر والامتياز بخدمته السنية (تصفيق) ولكن يسوغ لى ان أقول ان الجهد المتواصل الذى بذله أولو الشأن فى مصر مدة أعوام طويلة لاجتناب كل مايمكن اجتنابه من المنازعات ولفض كل الدعاوى والشكاوى الصغيرة التى تنجت عن احتلال بريطانيا العظمى لمصر ـ هذا كله مهد طريق الاتفاق وسهل الامر على المتفاوضين فيه

(الغرض الادارى)

وأتكلم الآن عن الغرض الادارى الذى وضـعته نصب عنى فأقول اني سمعت في هذه الايام لغطًا ولغواً كثيراً عن ان حكومـة مصر مستبدة ظالمة فلا يهمنى ان اطيـل فى الرد على مثل هذا الكلام بالتطويل بل أقول انى أفرغت جهدى مدة خـدمتي كلها بمصر فى بث روح الحرية فى نظام حكومة اقتضت الضرورة ان تكون حكومةً «بيروقراطية» (٢) ولكني لم أدخر وسعا في الاطلاع على حقيقة الرأى العام سواء كان أوربيا أو محليًا واعطائه حقه من

(١) هى التى تنحصر في طبقات من الموظفين الذين لايسئلون عما يفعلون لغير رؤسائهم ولهم السلطة على الامة في كل امورها العمومية والخصوصية

(٢) هو كبير آلهة الفينيقيين وقد ذكر فى التوراة وكانت تقدم له الضحايا البشرية

الاعتبار والاهتمام وحسبي أن أترك لغيرى الحكم في مقدار نجاحى من هذا القبيل (اسمعوا)

﴿ الارتقاء الادبى والعقلى ﴾

ثم التفت الى أمر آخر وهو أنى أسمع قوما يقولون ان مصر ارتقت ارتقاء ماديا عجيبا في الاعوام الاخيرة ولكن لم يعمل فيها شئ لترقية أهلها أدبيا وعقليا . عجبا أيها السادة كيف يقال ان مصر لم ترتق أدبيا ؟ هل الحكم فيها اليوم للكرباج وحده كما كان في الايام الغابرة ؟ هل السخرة (العونة) باقية فيها ولم تطو الايام عليها ؟ هل لعنة الرق لاتزال حالة عليها ولم تزل عنها ؟ أليس كل شخص فيها من الامير الى الصعلوك الحقير سواء امام القانون ؟ ألم ينشط الناس فيها الى السعى والكسب ؟ أليس أصغر الناس فيها يجنون اليوم ثمار سعيهم ويتمتعون بما يحصلونه بعرق جبينهم ؟ أليس من الحقائق المقررة ان العدالة لاتشرى وتباع اليوم وان كل انسان حر — بل ربما ظن قوم أنه حر أكثر مما يجب أن يكون — في المجاهرة بآرائه والتعبير عما في ضميره . وان سلطان « البخشيش » قد ثل عرشه وعزل عن مقاماته العليا في الحكومة ولم يبق له أثر الا في أخرياتها وضواحيها وان ماء النيل الذى يحيي الاراضى و يأتيها بالخصب يوزع على الامير الخطير والفلاح الفقير بالقسط والعدل وان المرضى يمرضون و يعالجون الآن فى مستشفيات مستكملة العدد ووسائط الراحة . وان المجرمين والمجانين لا يعاملون الآن معاملة الوحوش الضارية حتى الحيوان الاعجم لم يفت الرفق به عناية المصلحين . وان اشتراك الحكام والمحكومين في المصالح أصبح أمرا مقررا عند الفريقين قولا وفعلا . وان كل عمل تعمله الادارة وان كان خطأ — اذ العصمة لله وحده — تكون آثار حسن القصد بادية عليه و رغبة الحكومة في خير الاهالى ظاهرة منه وان الاموال التى تؤخذ من جيوب الذين يدفعون الضرائب والتى قلت كثيرا عما كانت عليه تصرف الآن فى الوجوه النافعة للبلاد بعد ما كان معظمها يصرف على بناء قصور لا منفعة لها ونحو ذلك من الامور التى لم تكن تهم السكان بوجه من الوجوه فان كانت هذه الامور كلها وكان غيرها مما يمكنني ان أذكر منه كثيرا لاتعد ترقية أدبية فالحق يقال انى لا أعلم بعد ذلك ما المراد من قولهم آداب وأدبيات (تصفيق طويل وهتاف شديد)

(تعليم البنات)

ولكن يقول قوم ان عقول المصريين وآدابهم لم ترتق . فأنكر هذا القول أيضا انكارا باتا

انظروا الى تعليم البنات فهل يظن عاقل انه يمكن لهذه البلاد أن تتشرب روح التمدن الحقيقي مادام مقام المرأة غير متغير فيها ان كان أحد يظن ذلك فانى أخالفه في ظنه كل المخالفة . ومع ذلك فانه منذ بضع سنين ــ والعهد غير بعيد ــ لم يكن أحد يهتم بهذه المسألة غير صديقى سعادة يعقوب باشا ارتين وعزتلو قاسم بك أمين وآخرين قليلين وأما بقية الاهالى فلم يكونوا يبالون بذلك بل انهم كانوا ضده فانظروا التغيير الذى حصل الآن لم يبق عند الحكومة المصرية مدارس تسع كل البنات اللواتى يروم والدوهن تعليمهن (اسمعوا واسمعوا)

(التعليم الابتدائى)

وانظروا أيضا الى التعليم الابتدائى فان النظام الذى كان متبعا قبل الاحتلال البريطانى لم يكن يصلح لشيء ثم تغير ذلك أيضا تغيرا عظيما لان الكتاتيب تنشأ في كل جهة من جهات القطر بعناية كثيرين من أعيان البلاد المستنيرين . وقد ابتدأت حركة أخرى تستحق الذكر لتعليم الصنائع للاهالين

(التعليم العالى وسمو الامير)

أما تعليم العلوم العالية وأعنى بها الحقوق والطب والهندسة وماشا كل فالتقدم فيها كلها مستمر مطرد منذ أعوام

نعم انه لو تيسر للحكومة المال الوافر منذ عشرين سنة لكان قدتم أكثر مماتم الآن كثيرا ولكن عقدة القضية المصرية أن المال الذى كان للحكومة سبيل اليه لم يكن وافرا بل لم يكد يكون كافيا مدة أعوام كثيرة لسد حاجاتها الضرورية

على انى لا أنكر أن البلاد لاتزال مفتقرة الى تقدم كثير أدبيا وعقليا وأنا واثق ان المعارف ستتقدم وترتقى سريعا على يد ناظر المعارف الحالى وجناب المستردنلوب مستشاره

(تصفيق) لاسيما وانه قد نزل بالامس الى الميدان حليف كفؤ على الشان فاني قرأت منذ برهة يسيرة حديثا جرى لسمو الخديو مع مكاتب احدى الجرائد الفرنسوية . وقد قال سموه فيه « ان الهم الدولى بأمر الدين المصرى قد مضى وانتهى . وأقول فى سياق الكلام ان هذا القول مطابق للواقع الآن ولكنى واثق انه لو كانت الحكومة تنفذ كل مشروع من مشروعات الاصلاح الغربية التى تكاثر سمعنا لها في هذه الايام لكان الهم الدولى بمالية مصر لايلبث أن يعود ويحيا في الحال (ضحك) ولكنى لا أطيل الكلام من هذا القبيل

ثم قال سموه « وقد حان لنا أن نبذل جهدنا ليس فى خير الاهالى المادى فقط بل في سد حاجاتهم العقلية والادبية أيضا وأنا لا يهمنى أمر أكثر مما يهمنى هذا الامر » فأرحب بأقوال سموه هذه من صميم فؤادى وأقول ان سموه خصوصا يقدر أن يرقى شعبه كثيرا من الجهة الادبية فهو قادر على ابطال فضائح ديوان الاوقاف وتطهيره من الادران المفسدة للآداب والاخلاق فى هذه البلاد وقادر أن يظهر لاهل دينه انه يمكن اصلاح المحاكم الشرعية من غير مس لاصول الديانة الاسلامية . وقادر على احباط أعمال أولئك المتزلفين لقضاء مآربهم الخصوصية الذين يثيرون ولا يتحملون مسؤلية بل يتألبون حول كل معية شرقية ويكون نفوذهم كله شرا ووبالا على الآداب العمومية . وقادر على استعمال نفوذه وهيبته لشد ازر المصلحين الحقيقيين الذين يريدون الخير للبلاد قلبا وقالبا وتنشيطهم فى سعيهم فان كان سموه يفعل هذه الاشياء كما هو مأمول نال الشكر وعظيم الاحترام من كل طبقة من طبقات الامة (تصفيق طويل)

(دوام نظام الاحكام الحالى)

أخاف ان اكون قد اتعبتكم أيها السادة بطول الكلام ولكن كل ماقلته كان عن الماضي فاذا تكرمتم على بالاصغاء فانى أقول شيئا عن المستقبل

ماهى حقائق الحالة المصرية الآن . أولاها فى أن الاحتلال البريطانى يدوم الى ماشاء الله وقد قالت لنا حكومة جلالة الملك ذلك رسميا . وثانيتها هى أنه مادام الاحتلال باقيا فالحكومة البريطانية تكون بالضرورة مسؤلة عن الخطة التى تجري عليها الادارة المصرية لاتفصيلا بل اجمالا . ولا يكن عند أحد أقل ريب فى هذه الحقيقة الثانية . والنتيجة التي استنتجها من هاتين المقدمتين هى ان نظام الحكومة الحالى دائم رغما عما يعتريه من العيوب

والشواذ الكثيرة التي لا يعترف بها أحد أكثر مني وأظن انه ليس في الناس من هو أقدر على ضمان الدوام لهذا النظام من جناب السر الدن غورست خلفي المقتدر البارع (تصفيق طويل)

جناب السير الدن غورست

كلكم تعرفون مقدرة السر الدن غورست ومزاياه فلا حاجة بي الى اطالة الكلام في شرح أوصافه الجليلة وانما أقول اني سررت أعظم سرور بتعيينه في مكاني لان الصداقة بيني وبينه عظيمة ولان ثقتي به تامة ثم اني أرى من أقوال الجرائد الاوربية والمحلية انها تشير على السر الدن غورست باتباع ماتسميه سياستي

الجري على سياستي

فرأيت أن أوضح ماذا كانت « سياستي » هذه ويكفي لايضاحها كلمات قليلة وهي ان سياستي كانت قول الحق وأنا عالم أن السر الدن غورست يجري على هذه السياسة ولا ريب عندي انه يجد في القيام بواجباته الشاقة من أبناء بلاده وغيرهم من التأييد الخالص الفعال ما كنت أنا أجده منهم دائما . ولا تنسوا أيها السادة أن مبدأ الاتحاد قوة يجب أن يتبع أتم اتباع في هذا القطر اذا أردنا أن نحصل على أتم النفع منه

ليس من المحتمل أيها السادة ان يكون لي دخل عظيم في السياسة في المستقبل ولكني لا أكف عن الاهتمام بأمور مصر علي قدر ماتسمح به قوتي وعافيتي . فأبذل كل مايمكنني بذله من نفوذي في ترقية هذه البلاد علي الخطة الموضوعة الآن لترقيتها ولا أمدح تغييرا فجائيا فيها ولا أشير بكل خروج عنيف عن المناهج الحالية الى منهاج جديد واذا اقتضي الامر فاني سأطلب وألح خصوصا بان هذه الحركة الكاذبة المفتعلة لانشاء مجالس نيابية سريعاً لا تعامل الا بقدر ماتستحق وان سألتموني أيها السادة عما تستحق قلت لكم انها لا تستحق شيئاً لانها لا تعبر في الحقيقة عن رأي المتنورين من سكان القطر المصري أوروبيين كانوا أو مصريين بل انه متى زال كل مايقال الآن من الهذيان والمبالغة كان الاختلاف في الرأي بيني و بين خصومي وخصوصاً الذين في بلاد الانكليز منهم اختلافا في الدرجة لا في المبدأ فهم يريدون أن يعدوا عدوا سريعاً جداً وأنا أرى أن الخبب أحسن سير يوافق مصلحة البلاد فان هذا السير هو الذي نفع معنا في الماضي وهو الذي أشير بدوامه فلا يبطئ حتى

يصير مشينا ثقيلا ولا يسرع حتى يصير عدوا زميلا . لاقتناعي انه اذا أسرع كثيرا خيف أن جواد مصر يكبو فيقع ويكسر ركبتيه (ضحك كثير)

(لماذا أرى هذه الآراء)

وأخبركم الآن أيها السادة لماذا أرى هذه الآراء وأذكرها الآن . لا أراها لان من ورائها مزايا سياسية لوطني ولا لاني أعتقد ان جميع الاذكياء من الاوربيين والمصريين في هذه البلاد يشاركونني فيها . كلا بل لاني أؤمل ان ما أقوله لحضراتكم الآن يترجم الى لغة أهل البلاد ويبلغ مسامع الملايين الذين لايسمع لهم صوت ــ أولئك الفلاحين اللابسين الجلابيات الزرقاء الذين يتوقف تقدم البلاد في الثروة واليسر على تعبهم فأنا ــ الذي يعد نفسه دائماً صديقهم الحقيقي ــ أحذرهم من أن يغتروا ويضلوا بأقوال الذين يدعون كذبا بأنهم ينوبون عنهم وينطقون بلسانهم وينقلون عنهم بلا اذن ولا توكيل منهم آراء لايرونها بل لايفهمونها ولا يدركونها ويطلبون أمورا سياسية لو أجيبوا اليها حالا لعادت بالضرر على مصالح الناس عموما وعلى مصالح أفقر أهالى القطر خصوصا (اسمعوا . اسمعوا)

ولو كنت أتحول عن الدفاع عن هذا النظام الذى دام نحو ربع قرن الآن الى انتقاده لكان أول ما أنتقده فيه ان التقدم كان سريعاً جدا فيه عوضاً عن أن يقال انه كان بطيئاً جدا وانه لمزيد سرعته لم يتيسر بعد لعامة الناس أن يقتبسوا ويألفوا الاصلاحات التى تمت فيه

نصيحة أخرى

بقى لى نصيحة أخرى أحب أن أقولها قبل ان أجلس في مكاني وهى ان قولهم «الاتحاد قوة» لايصدق على الذين هم في خدمة الحكومة فقط بل على جميع الذين يهمهم ادخال التمدن الحقيقى الى هذه البلاد. فالواجب عليهم أن يتحدوا معاً ولا أعنى بذلك ان الانكليز والفرنسويين والالمان وسائر الاوربيين فقط يطرحون عنهم ما بينهم من المناظرة والمنافسة ويتحدون معاً فى مصلحة واحدة بل ان جميع الذين يريدون أن تكون الحكومة حكومة عقل وأن يكون تقدم البلاد مستمرا دائما يتحدون جميعهم معا سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أوروبيين

في تجديدها واصلاحها (تصفيق)

« المرحوم نوبار باشا »

وهناك شخص آخر من عظماء الزمن الماضي يخطر الآن على بالى وتتردد صورته في هذا المقام أمام ذهنى . فالذين يعرفون منكم أيها السادة تاريخ العهد الماضى فى مصر والذين قرؤا تقريري السنوى الحديث يعلمون ان ما اقترحته لتعديل نظام الامتيازات الاجنبية انما هو بمثابة تتمة للعمل العظيم الذي يحكي أعمال أرباب السياسة والذى خط المرحوم نوبار باشا خطته الاصلية « تصفيق كثير »

« دولة رياض باشا »

وأذكر أيضا اسم رجل آخر من أرباب السياسة وأنا مسرور بمشاهدته الآن بيننا ألا انه صديقى القديم المؤتمن دولة رياض باشا (تصفيق شديد طويل. وهنا أحنى دولة رياض باشا رأسه علامة الامتنان)

اننا أيها السادة في زمان لايحتاج فيه الشاب المصرى الذى يتظاهر بمظهر المصلحين الى شجاعة تذكر . ولكن ماهو كائن الآن لم يكن كذلك طول الزمان بل كان لاسماعيل باشا رحمه الله طرق عنيفة فى معاملة الذين لا يطأطئون الرؤس أمامه ولا يعنون لهيبته (ضحك) ومع ذلك وقف رياض باشا منذ ٣٠ سنة واعترض بكل جرأة على سوء الادارة وأقام الحجة على فساد الاحكام الذى كان متغلبا على مصر فى تلك الايام . وعلق الجرس بعنق الهر (١) فأعجبت بشجاعته هذه حينئذ . وكثيرا ماوقع بينى و بين صديقى و رصيفي القديم خلاف بعد ذلك ولكنى لم أكف قط عن النظر اليه بعين الاعتبار بل بعين المحبة التى تستحقها صفاته العبقرية (تصفيق كثير)

(عطوفة مصطفى باشا فهمى)

وماذا أقول عن صديقى العزيز عليّ السامى المقام في عينى عطوفة مصطفى باشا فهمى (تصفيق حاد وطويل جدا) فقد قضينا السنين الطوال ونحن كلانا على أعظم صداقة

---

(١) المترجم أشبه بمثل يضرب فى الشجاعة

شخصية فأولا أقول انه من أعظم الذين التقيت بهم في حياتي لطفا وأ كرمهم أخلاقا وأحسنهم مناقب (هتاف شديد وتصفيق حاد) امتاز بتمام الاخلاص والاستقامة والحرية والصدق في كل عمل من أعمال حياته (تصفيق) . وثانيا أقول انه خدم أهل بلاده أجل الخدم ولكن بطريقته المعهودة من السكينة والهدو والابتعاد عن التعرض لغيره والدخول فيما لايعنيه وأنا أعلم أن هذه الاقوال القليلة لاتوفي صفاته الجليلة بعض حقها (تصفيق) ولكنه لايزال لدىّ قول كثير والوقت يقضى علىّ أن أقتصر فيما أقول

(سعادة بطرس باشا غالى)

ومما أوجب لى السرور العظيم انى عاشرت ناظر الخارجية المصرية سعادة بطرس باشا غالى معاشرة طويلة (تصفيق كثير) وكان يؤدي أعظم منفعة وأجل خدمة بما أوتي من ثاقب البصيرة وسعة الحيلة العقلية فى حل المشكلات التى تنجم عن حالة البلاد السياسية الخصوصية (تصفيق)

(سعادة سعد باشا زغلول)

وأذكر أخيرا أيها السادة اسم رجل لم أشتغل معه الا من عهد قريب لكن معاشرتي القصيرة له قد علمتني أن أحترمه احتراما عظيما وان أصاب ظني أولم يخطيء كثيرا فسيكون امام ناظر المعارف الجديد سعادة سعد باشا زغلول مستقبل عظيم للمنفعة العمومية (تصفيق حاد طويل) لانه حائز لجميع الصفات اللازمة لخدمة بلاده فهو صادق مستقيم كفؤ مقتدر شجاع فيما هو مقتنع به وقد احتمل الطعن والذم من كثيرين دونه فضلا بمراحل من أبناء وطنه فهذه صفات سامية فالواجب ان صاحبها يتقدم كثيرا (تصفيق كثير)

(السير كولن سكوت منكريف)

(والسير وليم جارستن والمسيو مسيرو)

أما شركائى فى العمل من الاوربيين فغاية ما أقوله عنهم انى أشكرهم من صميم فؤادى على مساعدتهم التى لاتثمن وعلى شدهم أزرى في أحوال محفوفة بمصاعب عظيمة ولا يسع المقام ذكرهم الآن كلهم بأسمائهم ولكن ان كان فيهم من يجب على أهل هذه البلاد أن يعزوا اسمه خصوصا فلعله السر كولن منكريف والسير وليم جارستن وأعوانهما

الذين أعطوا المصريين أعظم مايحتاجون اليه وهو ماء الرى . وأضيف الى اسميهما اسم رجل فرنساوى شهير جليل وهو المسيو مسبرو الذى أكسبته ابحاثه العلمية فى تاريخ مصر القديم ماهو حقيق به من الصيت الطائر في الآفاق

(السر رجينلد ونجت باشا)

أخيرا أيها السادة أقول انه لم يكن يهمني و يلذلى من كل واجباتى أكثر من واجباتي المختصة بالسودان وسأعد اشتراكى مع السر رجينلد ونجت واعوانه الغيورين الاكفاء في الاصلاح العظيم الجارى فى تلك البلاد منذ أعوام مصدرا أستمد منه الفخر والسرور كل ايام حياتى (تصفيق كثير)

(حسن ظنه بالمصريين وحسن اعتذاره عنهم)

فبمساعدة الذين ذكرتهم ومساعدة كثيرين غيرهم اظن اننا عملنا عملا غير ردىء في ربع قرن من الزمن وان يكن فيه مافيه من القصور والتقصير ولكن يقول لى قوم كثيرون ان المصريين بوجه الاجمال لايعترفون كثيرا بالجميل وبالمنافع والفوائد التى لاشك في أنها منحت لهم. فأجيب على ذلك اني لا أعرف مايشعر به المصريون من هذا القبيل ولكن فيلسوفا فرنساويا قال قولا أورد معناه ولست أجزم باقتباس مبناه قال اذا قاسى شعب آلام الظلم والضيم طويلا لم يكد يبقى له طاقة على شكر الذين يخلصونه منها

ولا ريب ان أهل مصر قسوا كثيرا فى ماضى زمانهم ومهما كان شعور المصريين وكانت حاساتهم ومهما برهن لى المبرهنون وأقاموا علىّ الحجة والدليل فلست بتاركهم يحجونني ليخرجونى من الوهم التريف الذى أنا فيه ان صح أنه وهم لاحقيقة . وأعنى بذلك أنه لايمكن أن أصدق ان المصريين ـ أوأحسنهم على كل حال ـ ينكرون أن يد التمدن الغربى التى كانت تستعملها انكلترا لعمل عملها فى الخمس والعشرين سنة الماضية هى التى انتشلتهم من بالوعة اليأس بعد ماألقاهم دهرهم فيها . وهب انى اقتنعت ـ وما أنا بمقتنع مطلقا ـ ان أبناء الجيل الحاضر لايعترفون بهذه الحقيقة الجلية فاني لاأزال أؤمل مع ذلك ان نسلهم يعترف بها اذ المعتاد ان أولاد العميان يكونون من المبصرين (ضحك)

(الغرض السياسى)

أيها السادة لما أتيت هذه الديار لاتقلد وظيفتي الحالية فيها وضعت نصب عيني غرضين وجعلت أسعى اليهما دواما مدة أعوم طويلة أحدهما سياسى والآخر ادارى

فالغرض السياسى الذى وضعته نصب عينى هو أن أكون من جملة المساعدين على اعادة ذلك الاتفاق الذي قضت الاحوال بمسه بين فرنسا وانكلترا ولم تقض بذلك مقاصد حكامهما وأهاليهما ولا مطامعهم . قال السياسى الطائر الصيت المسيو غمبتا الذى كانت ارادته المتسلطة على العقول مدة تقلده منصبه تؤثر فى سير تاريخ مصر تأثيرا دائما يوصى أهل بلاده اياكم وان تقطعوا حبل المحالفة الانكليزية ومذهبى فى السياسة الدولية الذى يشاركنى عدد عظيم من أهل بلادى فيه يمكن أن يعبر عنه بهذه العبارة : اياكم وأن تقطعوا حبل الاتفاق الفرنسوي (تصفيق) فانهذا الاتفاق الذى أشار اليه الكونت دوسريون بعباراته المطبقة مبنى على اشتراك الفريقين فى المصلحة . وعلي قرب الجوار وتشابه النظامات السياسية واحترام كل فريق للآخر احتراما ناتجا عن تلاقيهما فى ساحات الوغى كثيراً واقتتالهما فيها شديداً وعلى كون خصائص كل منهما وصفاته مكملة لخصائص الآخر وصفاته. وزد على ذلك كله انه ليس في هذا الاتفاق تهديد لاحد وانما هو صادر عن رغبة الفريقين فى حفظ السلام فى العالم فان كان في العالم امتان تقضى عليهما الاحوال والظروف بأن تتصادقا وتتحابا فانماهما أمتا فرنسا وانكلترا (تصفيق)

فلا يخفى على أقل مبتدىء في السياسة انه مادامت هذه القرحة المصرية تنز فصداقة تينك الامتين لا بد وأن تمس ولذلك لما أتيت مصر سنة ١٨٨٣ عقدت نيتى على أن اسعى فى سد هذه الثغرة بقدر ما تمكننى دائرة وظيفتى . وكان ذلك سعيا شاقا كسعى الطالع جبلا حاملا ثقلا . فان الامتين قضتا الاعوام وكل منهما تنظر الى الاخرى شزراً وقد دارت بينهما المضاربة والملاكمة القاسية ولكنها لم تتعد والحمد لله حد الكلام ونلت أنا نصيبي منها فقد ظلت زمنا والجرائد الفرنسوية تذكر اسمى منعوتا بنعوت الذم الا نادراً وأظن أن أكثرها كان يلقبنى بكرومر الوحش (Le brutal Cromer) (قهقهة) وقد شبهتنى مرة على

ماأتذكر بأعظم آلهة الوثنيين حبا لشرب الدماء حيث لقبتني بمولوك (قهقهة) (١) . ولكن مداعبات الجرائد هذه هي في المناقشات السياسية كالافاويه والتوابل في الطعام فتكسبها حياة وتزيدها نكهة ورونقا فلا يحسن بالانسان ان يحفل بها كثيرا لاسيا وان زمانها قد مضي لحسن الحظ وانقضى وتغيرت لهجة الجرائد الفرنسوية حتى لقبتني مرة في هذه الايام بهذا الشيخ الجليل Cet illustre viellard (قهقهة) على انى أفرغت الجهد مدة أعوام كثيرة في المساعدة على عقد الاتفاق بين الامتين وأقول الآن ان أسعد يوم من أيام خدمتي في مصر كان يوم ٦ ابريل سنة ١٩٠٤ الذى وقع فيه الاتفاق الانكليزى الفرنسوى لست أدعي أنى كنت من أشهر واضعي ذلك الاتفاق بل أعترف ان الفضل فى عقده كان لارباب السياسة المتولين زمام الامور الخارجية ومئذ فى باريس ولندن وربما جاز لى من غير ان أمس واجب الاكرام والاحترام ان أضيف اليهم مليكنا السامى النهى العظيم المواهب العقلية الذى نلت الفخر والامتياز بخدمته السنية (تصفيق) ولكن يسوغ لى ان أقول ان الجهد المتواصل الذى بذله أولو الشأن فى مصر مدة أعوام طويلة لاجتناب كل مايمكن اجتنابه من المنازعات ولفض كل الدعاوى والشكاوى الصغيرة التى نتجت عن احتلال بريطانيا العظمى لمصر ـ هذا كله مهد طريق الاتفاق وسهل الامر على المتفاوضين فيه

(الغرض الادارى)

وأتكلم الآن عن الغرض الادارى الذى وضعته نصب عني فأقول انى سمعت في هذه الايام لغطًا ولغواً كثيراً عن ان حكومة مصر مستبدة ظالمة فلا يهمنى ان اطيل فى الرد على مثل هذا الكلام بالتطويل بل أقول انى أفرغت جهدى مدة خدمتي كلها بمصر فى بث روح الحرية فى نظام حكومة اقتضت الضرورة ان تكون حكومة «بيروقراطية» (٢) ولكني لم أدخر وسعا في الاطلاع على حقيقة الرأى العام سواء كان أوربيا أو محليا واعطائه حقه من

---

(١) هى التى تنحصر في طبقات من الموظفين الذين لايسئلون عما يفعلون لغير رؤسائهم ولهم السلطة على الامة في كل امورها العمومية والخصوصية

(٢) هو كبير آلهة الفينيقيين وقد ذكر فى التوراة وكانت تقدم له الضحايا البشرية

الاعتبار والاهتمام وحسبي أن أترك لغيرى الحكم في مقدار نجاحى من هذا القبيل (اسمعوا)

﴿ الارتقاء الادبي والعقلى ﴾

ثم التفت الى أمر آخر وهو أنى أسمع قوما يقولون ان مصر ارتقت ارتقاء مادياً عجيبا في الاعوام الاخيرة ولكن لم يعمل فيها شئ لترقية أهلها أدبيا وعقليا . عجبا أيها السادة كيف يقال ان مصر لم ترتق أدبيا ؟ هل الحكم فيها اليوم للكرباج وحده كما كان في الايام غابرة ؟ هل السخرة (العونة) باقية فيها ولم تطو الايام عليها ؟ هل لعنة الرق لا تزال حالة عليها ولم تزل عنها ؟ أليس كل شخص فيها من الامير الى الصعلوك الحقير سواء امام القانون ؟ لم ينشط الناس فيها الى السعى والكسب ؟ أليس أصغر الناس فيها يجنون اليوم ثمار سعيهم ويتمتعون بما يحصلونه بعرق جبينهم ؟ أليس من الحقائق المقررة ان العدالة لا تشرى وتباع اليوم وان كل انسان حر — بل ربما ظن قوم أنه حر أكثر مما يجب أن يكون — في المجاهرة بآرائه والتعبير عما في ضميره . وان سلطان « البخشيش » قد ثل عرشه وعزل عن مقاماته العليا في الحكومة ولم يبق له أثر الا في أخرياتها وضواحيها وان ماء النيل الذى يحيي الاراضى ويأتيها بالخصب يوزع على الامير الخطير والفلاح الفقير بالقسط والعدل وان المرضى يمرضون ويعالجون الآن فى مستشفيات مستكملة العدد ووسائط الراحة . وان المجرمين والمجانين لا يعاملون الآن معاملة الوحوش الضارية حتى الحيوان الاعجم لم يفت الرفق به عناية المصلحين . وان اشتراك الحكام والمحكومين في المصالح أصبح أمرا مقررا عند الفريقين قولا وفعلا . وان كل عمل تعمله الادارة وان كان خطأ — اذ العصمة لله وحده — تكون آثار حسن القصد بادية عليه ورغبة الحكومة في خير الاهالى ظاهرة منه وان الاموال التى تؤخذ من جيوب الذين يدفعون الضرائب والتى قلت كثيرا عما كانت عليه تصرف الآن فى الوجوه النافعة للبلاد بعد ما كان معظمها يصرف على بناء قصور لا منفعة لها ونحو ذلك من الامور التى لم تكن تهم السكان بوجه من الوجوه فان كانت هذه الامور كلها وكان غيرها مما يمكنني ان أذكر منه كثيرا لا تعد ترقية أدبية فالحق يقال انى لا أعلم بعد ذلك ما المراد من قولهم آداب وأدبيات (تصفيق طويل وهتاف شديد)

(تعليم البنات)

ولكن يقول قوم ان عقول المصريين وآدابهم لم ترتق . فأنكر هذا القول أيضا انكارا باتا

انظروا الى تعليم البنات فهل يظن عاقل انه يمكن لهذه البلاد أن تتشرب روح التمدن الحقيقي مادام مقام المرأة غير متغير فيها ان كان أحد يظن ذلك فانى أخالفه في ظنه كل المخالفة . ومع ذلك فانه منذ بضع سنين ــ والعهد غير بعيد ــ لم يكن أحد يهتم بهذه المسألة غير صديقى سعادة يعقوب باشا ارتين وعزتلو قاسم بك أمين وآخرين قليلين وأما بقية الاهالى فلم يكونوا يالون بذلك بل أنهم كانوا ضده فانظروا التغيير الذى حصل الآن لم يبق عند الحكومة المصرية مدارس تسع كل البنات اللواتى يروم والدوهن تعليمهن (اسمعوا واسمعوا)

(التعليم الابتدائى)

وانظروا أيضا الى التعليم الابتدائى فان النظام الذى كان متبعا قبل الاحتلال البريطانى لم يكن يصلح لشيء ثم تغير ذلك أيضا تغيرا عظيما لان الكتاتيب تنشأ في كل جهة من جهات القطر بعناية كثيرين من أعيان البلاد المستنيرين . وقد ابتدأت حركة أخرى تستحق الذكر لتعليم الصنائع للاهلين

(التعليم العالى وسمو الامير)

أما تعليم العلوم العالية وأعنى بها الحقوق والطب والهندسة وماشا كل فالتقدم فيها كلها مستمر مطرد منذ أعوام

نعم انه لو تيسر للحكومة المال الوافر منذ عشرين سنة لكان قدتم أكثر مما تم الآن كثيرا ولكن عقدة القضية المصرية أن المال الذى كان للحكومة سبيل اليه لم يكن وافراً بل لم يكد يكون كافيا مدة أعوام كثيرة لسد حاجاتها الضرورية

على انى لا أنكر أن البلاد لاتزال مفتقرة الى تقدم كثير أدبيا وعقليا وأنا واثق ان المعارف ستتقدم وترتقى سريعا على يد ناظر المعارف الحالى وجناب المستردنلوب مستشاره

(تصفيق) لاسيما وانه قد نزل بالامس الى الميدان حليف كفوء على الشان فاني قرأت منذ برهة يسيرة حديثا جرى لسمو الخديو مع مكاتب احدى الجرائد الفرنسوية . وقد قال سموه فيه « ان الهم الدولى بأمر الدين المصرى قد مضى وانتهى . وأقول فى سياق الكلام ان هذا القول مطابق للواقع الآن ولكنى واثق انه لو كانت الحكومة تنفذ كل مشروع من مشروعات الاصلاح الغربية التى تكاثر سمعنا لها في هذه الايام لكان الهم الدولى بمالية مصر لايلبث أن يعود ويحيا في الحال (ضحك) ولكنى لاأطيل الكلام من هذا القبيل

ثم قال سموه « وقد حان لنا أن نبذل جهدنا ليس فى خير الاهالى المادى فقط بل في سد حاجاتهم العقلية والادبية أيضا وأنا لايهمنى أمر أكثر مما يهمنى هذا الامر » فأرحب باقوال سموه هذه من صميم فؤادى وأقول ان سموه خصوصا يقدر أن يرقى شعبه كثيرا من الجهة الادبية فهو قادر على ابطال فضائح ديوان الاوقاف وتطهيره من الادران المفسدة للآداب والاخلاق فى هذه البلاد وقادر أن يظهر لاهل دينه انه يمكن اصلاح المحاكم الشرعية من غير مس لاصول الديانة الاسلامية . وقادر على احباط أعمال أولئك المتزلفين لقضاء مآربهم الخصوصية الذين يثيرون ولا يتحملون مسؤلية بل يتألبون حول كل معية شرقية ويكون نفوذهم كله شرا ووبالا على الآداب العمومية . وقادر على استعمال نفوذه وهيبته لشد ازر المصلحين الحقيقيين الذين يريدون الخير للبلاد قلبا وقالبا وتنشيطهم فى سعيهم فان كان سموه يفعل هذه الاشياء كما هو مأمول نال الشكر وعظيم الاحترام من كل طبقة من طبقات الامة (تصفيق طويل)

(دوام نظام الاحكام الحالى)

أخاف ان اكون قد اتعبتكم أيها السادة بطول الكلام ولكن كل ماقلته كان عن الماضي فاذا تكرمتم على بالاصغاء فانى أقول شيئا عن المستقبل

ماهى حقائق الحالة المصرية الآن . أولاها فى أن الاحتلال البريطانى يدوم الى ماشاء الله وقد قالت لنا حكومة جلالة الملك ذلك رسميا . وثانيتها هى أنه مادام الاحتلال باقيا فالحكومة البريطانية تكون بالضرورة مسؤلة عن الخطة التى تجري عليها الادارة المصرية لاتفصيلا بل اجمالا . ولا يكن عند أحد أقل ريب فى هذه الحقيقة الثانية . والنتيجة التي استنتجها من هاتين المقدمتين هى ان نظام الحكومة الحالى دائم رغما عما يعتريه من العيوب

والشواذ الكثيرة التى لايعترف بها أحد أكثر منى وأظن انه ليس فى الناس من هو أقدر على ضمان الدوام لهذا النظام من جناب السر الدن غورست خلق المقتدر البارع (تصفيق طويل)

جناب السير الدن غورست

كالكم تعرفون مقدرة السر الدن غورست ومزاياه فلا حاجة بي الى اطالة الكلام في شرح أوصافه الجليلة وانما أقول اني سررت أعظم سرور بتعيينه فى مكانى لان الصداقة بينى و بينه عظيمة ولان ثقتى به تامة ثم انى أرى من أقوال الجرائد الاوربية والمحلية انها تشير على السر الدن غورست باتباع ماتسميه سياستى

الجري على سياستى

فرأيت أن أوضح ماذا كانت « سياستى » هذه ويكفى لايضاحها كلمات قليلة وهى ان سياستى كانت قول الحق وأنا عالم أن السر الدن غورست يجرى على هذه السياسة ولاريب عندى انه يجد في القيام بواجباته الشاقة من أبناء بلاده وغيرهم من التأييد الخالص الفعال ما كنت أنا أجده منهم دائما . ولا تنسوا أيها السادة أن مبدأ الاتحاد قوة يجب أن يتبع أتم اتباع في هذا القطر اذا أردنا أن نحصل على أتم النفع منه

ليس من المحتمل أيها السادة ان يكون لى دخل عظيم في السياسة فى المستقبل ولكنى لاأكف عن الاهتمام بأمور مصر علي قدر ماتسمح به قوتى وعافيتى . فأبذل كل مايمكننى بذله من نفوذى في ترقية هذه البلاد علي الخطة الموضوعة الآن لترقيتها ولا أمدح تغييرا فجائيا فيها ولاأشير بكل خروج عنيف عن المناهج الحالية الى منهاج جديد واذا اقتضى الامر فاني سأطلب وألح خصوصا بان هذه الحركة الكاذبة المفتعلة لانشاء مجالس نيابية سريعاً لاتعامل الا بقدر ماتستحق وان سألتموني أيها السادة عما تستحق قلت لكم انها لاتستحق شيئاً لانها لاتعبر في الحقيقة عن رأي المتنورين من سكان القطر المصري أوروبيين كانوا أومصريين بل انه متى زال كل مايقال الآن من الهذيان والمبالغة كان الاختلاف في الرأى بينى و بين خصومى وخصوصاً الذين في بلاد الانكليز منهم اختلافا في الدرجة لافي المبدأ فهم يريدون أن يعدوا عدوا سريعاً جداً وأنا أرى أن الخبب أحسن سير يوافق مصلحة البلاد فان هذا السير هو الذى نفع معنا فى الماضي وهو الذي أشير بدوامه فلا يبطئ حتى

يصير مشينا ثقيلا ولا يسرع حتى يصير عدوا زميلا . لاقتناعي انه اذا أسرع كثيرا خيف أن جواد مصر يكبو فيقع ويكسر ركبتيه (ضحك كثير)

(لماذا أرى هذه الآراء)

وأخبركم الآن أيها السادة لماذا أرى هذه الآراء وأذكرها الآن . لا أراها لان من ورائها مزايا سياسية لوطني ولا لاني أعتقد ان جميع الاذكياء من الاوربيين والمصريين في هذه البلاد يشاركونني فيها . كلا بل لاني أؤمل ان ما أقوله لحضراتكم الآن يترجم الى لغة أهل البلاد ويبلغ مسامع الملايين الذين لا يسمع لهم صوت ــ أولئك الفلاحين اللابسين الجلابيات الزرقاء الذين يتوقف تقدم البلاد في الثروة واليسر على تعبهم فأنا ــ الذي يعد نفسه دائماً صديقهم الحقيقي ــ أحذرهم من أن يغتروا ويضلوا بأقوال الذين يدعون كذبا بأنهم ينوبون عنهم وينطقون بلسانهم وينقلون عنهم بلا اذن ولا توكيل منهم آراء لا يرونها بل لا يفهمونها ولا يدركونها ويطالبون أمورا سياسية لو أجيبوا اليها حالا لعادت بالضرر على مصالح الناس عموما وعلى مصالح أفقر أهالي القطر خصوصا (اسمعوا . اسمعوا)

ولو كنت أتحول عن الدفاع عن هذا النظام الذي دام نحو ربع قرن الآن الى انتقاده لكان أول ما أنتقده فيه ان التقدم كان سريعاً جدا فيه عوضاً عن أن يقال انه كان بطيئاً جدا وانه لمزيد سرعته لم يتيسر بعد لعامة الناس أن يقتبسوا ويألفوا الاصلاحات التي تمت فيه

نصيحة أخرى

بقي لي نصيحة أخرى أحب أن أقولها قبل ان أجلس في مكاني وهي ان قولهم «الاتحاد قوة» لا يصدق على الذين هم في خدمة الحكومة فقط بل على جميع الذين يهمهم ادخال التمدن الحقيقي الى هذه البلاد. فالواجب عليهم أن يتحدوا معاً ولا أعني بذلك ان الانكليز والفرنسويين والالمان وسائر الاوربيين فقط يطرحون عنهم ما بينهم من المناظرة والمنافسة ويتحدون معاً في مصلحة واحدة بل ان جميع الذين يريدون أن تكون الحكومة حكومة عقل وأن يكون تقدم البلاد مستمرا دائما يتحدون جميعهم معا سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أوروبيين

او أفريقيين أو اسويين ويقاومون القوات المجاهدة في سبيل التأخر والتقهقر حقيقة سواء كان جهادها عن جهل أوعن عمد وقصد (اسمعوا . وتصفيق)

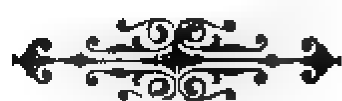
وأشكركم أيها السادة في الختام على اصغائكم الىّ بالصبر وطول الاناة هذه المدة التى قلت فيها كل ما أردت قوله

ولا شك عندى ان الصعوبات لاتزال كثيرة فى سبيل المصلح المصرى وخصوصاً السر الدن غورست ولكن آخر كلمة أقولها له ولكم كالكم هى كلمة كان عباد الآلهة ايزيس في هذه البلاد كثيرا ماينقشونها على قبورهم بلغة القوم الذين هم أصل التمدن الاوربي والذين استوطن أناس كثيرون من ذريتهم هذه البلاد لخيرها والذين أعد منهم أصدقاء كثيرين لى - وأعنى بها لغة اليونان . ومعنى تلك اللفظة اليونانية تشجعوا (تصفيق)

فأودعكم أيها السادة وأنا واثق ثقة تامة بمستقبل هذه البلاد التى كانت موطنا لى سنين هذا عددها والتى تأصلت جراثيم التمدن الحقيق فيها على ما أرجو حتى صار يعسر استئصالها . أودعكم على الكره منى وأستودعكم الله (تصفيق طويل وهتاف شديدمتكرر)

ثم صدحت الموسيقى بالسلام الخديوى وكانت الساعه ٧ والدقيقة ١٠ مساء

(المؤيد في ٢٢ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ - ٥ مايو سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٥٦)



حفلة الوداع
وخطبة اللورد كرومر

تقفون والفلك المحرك دائر * وتقدرون فتضحك الاقدار

وقف الخطباء مساء السبت الماضي موقف الممثلين فى دار التمثيل الكبرى (الاوبرةالخديوية) يحكمون على الماضي والمستقبل حكم الاقدار في الكائنات . ويبرمون وينقضون ويرفعون ويخفضون والناس يسمعون مختارين أومكرهين لان فرسان ميدان الخطابة كانوا ثلاثة لا يزيدون ولا ينقصون ولو أن الموقف كان حراً لكل قائل لسمعوا مايكرهون كما قالوا مايحبون

قلنا انهم وقفوا موقف الممثلين لانهم كذلك فى حقيقةالواقع وقدمثلوا آخر فصل من رواية كثيرة الحوادث عديدة الفصول طويلة الزمان بطل وقائعها وفارس معمعانها ذلك الذى كان آخر الخطباء في الحفلة كلاما وأشدهم ايلاماً وأكثرهم آلاماً

وقف ليمثل آخر سلطة له في هذه الديار ولسان حاله يقول

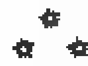
« ما في وقوفك ساعة من باس »

مثلهافى مكان هو أليق ما كان عظة لقائل ومظهراً لسلطان راحل ومجدزائل وأصدق ماضرب له من الامثال « لكل مقام مقال »

وقبل أن نذكر شيأ عن الخطباء وخطبهم يجدر بنا أن نذكر شيأعن هذا الاسلوب الذي اختير من أساليب الوداع ولماذا فضلت حفلة الاوبرةعلى المأدبة

التي كان يراد عملها في أول الامر ؟؟ .فضلت لان القوم لم يريدوا مظهر اكرام الرجل الراحل اكراما معتاداً فى مثل هذا المقام ولكنهم أرادوا مظاهرة سياسية أساسها سلطة الحكومة وأساطينها قوى الاحتلال بعيدة عن الامة والامة بعيدة عنها. وقد بالغوا فيها ماشاؤا وما استطاعوا أن يبالغوا في هذه المظاهرة بقصد أن يذهب من نفوس المصريين كل أثر للظن بأن اللورد مستقيل لاسباب سياسية وحتى يستقر فيها أن اعتلال صحته هو الباعث الأول بل والآخر على استقالته من وظيفته ولو أنهم أحسنوا الصنيع معه لتركوا هذه المظاهرات التي حملت كل النـاس بكل ماجرى فيها على فهم ان الرجل راحل طبق المثل « مكره أخاك بطل »

وفوق هـذا أنهم لسوء الحظ لم ينجحوا في القيام بالمظاهرة السياسية كما أرادوا منها بل فشـلوا في تكوينها من الامـة وقد حاولوا ذلك بواسطة سلطة الحـكومة المخلوطة بقوى الاحتلال وانعكست الآية عليهم فلم يكن من الوطنيين في هذه المظاهرة سوى نفر قليل يعرفون بسيماهم ويكادون يعدون على أصابع اليدين والرجلين وسوى رجال الحـكومة الذين هم صنائع اللورد الذين يمن هو عليهم بوجودهم فى هيكلها . ولم يكن من الاوربيين سوى بعض الرجال الرسميين ونفر ممن حسنت حالهم على يد اللورد بمناسبات شتى أو ممن جذبتهم جاذبية حب الظهور فوق المراسح والحشر فى غمرات المجامع من النقيض الى النقيض وما أكثر المتحذلقين لذلك بين الناس



كان الداعى لهـذا الاحتفال باسمه من أول الامر صاحب العطوفة رئيس النظار وهذا نص الدعوة التى وزعت على كبراء السراة والاعيان ليكونوا من

أعضاء اللجنة العاملة . ونحن نذكر هنا نص ورقة الدعوة الاولى بعنوانها لان الكتاب يقرأ من عنوانه . وهو بحروفه

« احتشاد للاحتفال بجناب اللورد كرومر »

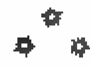
جار تشكيل لجنة تحت رئاسة صاحب العطوفة مصطفى باشا فهمى للقيام بمظاهرة نحو جناب اللورد كرومر بمناسبة قرب رحيله من القطر المصرى وللاقرار فيما بعد على الطريقة المؤدية لتخليد أثر جنابه وقد تقرر القاء خطبة تتضمن تقديم الشكر لجنابه في بهو تياترو الاوبرة الخديوية فى يوم السبت ٤ مايو القادم وقد كلفتنى اللجنة بأن أرجوكم التكرم بافادتى عما اذا كنتم تقبلون اضافة اسمكم الكريم الى الاسماء المدرجة بالقائمة المرفقة بهذا سكرتير اللجنة

في ٢٥ ابريل سنة ٩٠٧ العنوان المستر يورك بنظارة المالية يورك

بعث بهذه الدعوة الى المئات من كبار الوطنيين والاجانب ولم يترك المدعوون أحرارا يجيبون أو لا يجيبون بمحض ارادتهم واختيارهم بل كان الكثيرون من رجال الحكومة وأصحاب السلطة العالية فيها يذهبون بأنفسهم لبعض المدعوين أو يرسلون رسلهم اليهم يلحون عليهم كل الالحاح بالقبول . ومع كل ما بذلت الحكومة بعناصرها المختلفة لم يشترك فى لجنة التأسيس من سراة الوطنيين غير الموظفين ونحو بضعة عشر شخصاً بعضهم ممن عرفوا اللورد شخصيا ودامت بينهم وبينه صلة التزاور لتكافؤ فى المقام الذاتى وبعضهم ممن غمرهم اللورد بفضله يداً بيد وبعضهم لا في العير ولا في النفير ولكنهم ليعرفوا فى أمثال هذه المظاهرة تلى ولاء للمحتلين وأحدهم سئل كيف وجدت في اللجنة ولست على شاكلة أعضائها مكانة أو جاها فأجاب على ملأ من الناس « كنت على وشك أن أعزل من وظيفتى منذ أشهر فلم يحفظنى فيها سوى اشارة جاءت الى الحقانية من جانب اللورد فلماذا لا أعرف له هذا الجميل »

واذا كان مايبذل من الجهد والعناء فى سبيل الوصـول الى الغرض المعيار الحقيق للفوز أو الفشل فان مابذلته الحـكومة وعناصرها المختلفة في سبيل جعل هـذه المظاهرة السياسية ممثلة للامة المصرية بجذافيرها وعنوانا كاملا على قدر شكر الامـة للرجل الراحل جاء دليلا على أن الفشل كان أعظم مايمكن أن يقدر لعمل العاملين . وعلى هذا القياس كان الفشل أيضا في الدعوة العمومية لحضور غير المشتركين في الاحتفال اياه فان بعض المديرين كانوا يسوقون الاعيان سوقا الى القـاهرة ويصحبونهم بالرسل في مجيئهم حـتى اذا جاؤا اليها أبى أكثرهم الخروج من الفنادق التى نزلوا بها ليلة الاحتفال

ولا تفسير لذلك الفشل العظيم وهذا الاباء الذى عم المدن والقرى الا أن اللورد ولو أنه أحسن كثيرا فى هـذه البلاد فقد أساء كثيرا فيها وكانت سيئاته الـكبرى فى أخريات أيامه فلم ينسها الناس لانه لم يترك في جعاب تقريره الاخير سهاما مؤذية الا سددها نحو مصر والمصريين وفى مبادئهم وعقائدهم والذكرى تغلب بالسيئ من الاقوال والعبرة بالخواتيم من الاعمال



أما الاحتفال نفسه فلم يكن مظاهرة سياسية لاكرام الرجل عند رحيله كما أرادوا ولكنه انقلب بما جرى فيه مظهرا عدائيًا من اللورد لم ير الراؤون ولم يرو الراوون مثله فى مقام وداع كهذا المقام

دعنا من كون رئيس الاحتفال أخطأ في أنه لم يكن المتكلم الاول وما عرف حتى الآن أن رئيس احتفال ورئيس وزارة معا يقدم عليه سواه فى الـكلام . ودعنا من كونه خطب بالفرنساوية ولم يجعل للغة البلاد نصيبا من كلامه فياحتفال

كهذا . ودعنا من زعمه أنه يمثل مع الحكومة فى موقفه السواد الاعظم من الامة المصرية والسواد الاعظم يخالفه فى الرأى والقول . ودعنا من كون الكونت دي سريون يتكلم عن فئة من الاوروبيين بما تشعر من حسنات الاحتلال عليها أو هو أراد انجاح السفارة الانكليزية بباريس في وساطة له لدى حكومة الجمهورية بعد ماحالت هذه الحكومة دون انعام ملك اسبانيا وكل انعام تلاه من الدول الاجنبية عليه وهو ينتظر الاجيون دي نور بصبر نافد

دعنا من كل هذا وانظر الى خطبة اللورد السياسية التى جعلها بمثابة وصيته الاخيرة وخاتمة اعماله في مصر

فبينما كانت الامة المصرية واقفة موقف الآمل منتظرة من ذلك الراحل العظيم والشيخ الحكيم أن يصلح ما فرط منه نحو الشريعة الاسلامية بما قضى عليها من الجمود الابدى ونحو الامة المصرية بما وصفها به من العقم السرمدي . بينما هى ترجو من جنابه أن يغتنم هذه الفرصة السانحة ليأسو الجراح التي جرحها ويضمد الكلوم التي فتحها فى جسمها بما تقدم وبما أراد أن يجعل وطنيتها أعجوبة بين الوطنيات وجامعتها كشكولا بين الجامعات . وبينما كان سمو أمير البلاد يتعطف ويتلطف ويبالغ في اكرام الراحل عند رحيله متناسيا الحزازات السياسية التى طالما كان اللورد مهاجما فيها غير عادل ولا متلطف

بينما كان كل هذا اذا ببركان « البيروقراطية » التى نشأ عليها اللورد ومارسها كل حياته حتى برز فيها أكثر من كل مبرز من تواريخ الحكومات المطلقة قد انفجرت نيرانه وقذف بلظاه على الاحياء والاموات

وقف اللورد خطيبا وهو يدافع كيد السقام ويجاذب داعى الخصام فجال فى خاطره انه مفارق قصرا تجري من تحته الانهار وملكا خضع له فيه الليل

والنهار وتارك خصوما قد يتوهمون أنهم نازلوه فغلبوه أو يتوهم هو أنه حانهم فأغضبوه

وقف اللورد وله نفسان نفس نزاعة الى حب البقاء وأخرى تقول كيف البقاء بعد الاستعفاء

وقد ذكر أصدقاءه القليلين كما يعلم وأعداءه الكثيرين كما يتوهم فسر وساء وترخص وتشدد وعدد وندد ووعد وتوعد وأرغى وأزبد وحذر وأنذر وحكم وقدر

ربما أخرج الحزين جوى الحز ن الى غير لائق بالسداد
مثلما فاتت الصلاة سليما ن فأنحى على رقاب الجياد

وقف اللورد خطيبا راحلا عن بلاد أقام فيها أكثر سني حياته فظن الناس أنه محسن وداعه لها ذاكر جميل أهليها معه فى ماضيه الطويل ليذكروا جميلهم معه بعد فراقه فاذا هو قد جمع في ساعة واحدة كل أغلاطه الماضية ومثل في هذه الساعة الزائلة كل مظاهر السلطة والاستبداد التى عرفت عنه وزاد عليها أضعاف أضعافها

وعجيب أن الانسان يقدر أن يسيء الى أمة بأسرها في ماضيها وحاضرها وأحيائها وأمواتها كما فعل جناب اللورد في ساعة وداعه . فانه فى هذه الساعة بل في نصف ساعة بالتحديد طعن على أمير البلاد طعنا جارحا لعواطف الامة كما طعن على بصائرها فقال انهم « عميان » ومجد سكرتيره المستر فندلى الذى نقل من مصر بعد ما أساء للامة في حادثة دنشواى المحزنة أعظم اساءة مشيرا الى أنه عمل فيها أنفع عمل مع أنه هو الذي رمى الامة بالتعصب ورمى جرائدها بارتكاب الرشوة كذبا

طمن اللورد في نصف ساعة على الاحياء والاموات فرشق المرحوم اسماعيل باشا وهو في قبره بسهام جارحة كان الامير حسين باشا نجله الا كبر فى غنى عن سماعها لو لم يتفضل بحضور الاحتفال بوداعه . هذا الامير الجليل الذي والى جناب اللورد بالصداقة زمنا طويلا وخصه باحترامه دائما وكان له في عهده أعظم أثر في خدمة البلاد معه خدمة حقيقية بأخذه الجمعية الزراعية الخديوية تحت رئاسته وبذل عنايته الجليلة في ترقية شؤونها بنفسه وماله ومع ذلك لم ير اللورد انه خليق بكلمة ثناء يوجهها اليه في جنب ماوجه من عبارات الثناء لغيره من الاحياء والاموات

لم يكتف اللورد فى أن يجبه الامراء من العائلة الخديوية جبها في « اسماعيل » بل قال عن المرحوم « توفيق » قولا أشبه بالمديح فى أسلوبه وهو عين الهجاء . قال عنه « انه لم يكن يشترك كثيرا فى أمور اصلاح مصر » وأثنى عليه بأنه كان بذلك يعرف قدره ومركزه تعريضا بالجناب العالى الخديوى الذى لم يكفه منه هذا التعريض بل طعن عليه بعد ذلك طعنا صريحا وكاد يسبه سبا

خص اللورد أشخاصا ممدودين بثنائه فذكر فى أولهم الطيب الذكر نوبار باشا ولكنه لم يذكر أثرا طيبا له يستحق به هذا الثناء سوى أنه كان المخطط الاول لخطة تعديل نظام الامتيازات الاجنبية . ولكن الخطيب لو أنصف الرجل فى قبره لقال ان مشروعه فى تعديل الامتيازات كان مخالفاً لهذا المشروع الجديد لان نوبار باشا انما كان يطلب تعديلها باعطاء المحاكم المختلطة سلطة الحكم في الجنايات والجنح كما طلبت الجمعية العمومية منذ سنين وكان أشد الناس اعتراضا له في طريق نجاح هذا المشروع اللورد كرومر الذى يزعم اليوم أنه متمم عمله العظيم

ذكر بعد ذلك رياض باشا وأطرى شجاعته التى اشتهر بها في زمن اسماعيل

والشواذ الكثيرة التي لا يعترف بها أحد أكثر مني وأظن انه ليس في الناس من هو أقدر على ضمان الدوام لهذا النظام من جناب السر الدن غورست خلفي المقتدر البارع (تصفيق طويل)

جناب السير الدن غورست

كلكم تعرفون مقدرة السر الدن غورست ومزاياه فلا حاجة بي الى اطالة الكلام في شرح أوصافه الجليلة وانما أقول اني سررت أعظم سرور بتعيينه في مكاني لان الصداقة بيني وبينه عظيمة ولان ثقتي به تامة ثم اني أرى من أقوال الجرائد الاوربية والمحلية انها تشير على السر الدن غورست باتباع ماتسميه سياستي

الجري على سياستي

فرأيت أن أوضح ماذا كانت « سياستي » هذه ويكفي لايضاحها كلمات قليلة وهي ان سياستي كانت قول الحق وأنا عالم أن السر الدن غورست يجرى على هذه السياسة ولا ريب عندي انه يجد في القيام بواجباته الشاقة من أبناء بلاده وغيرهم من التأييد الخالص الفعال ما كنت أنا أجده منهم دائما . ولا تنسوا أيها السادة ان مبدأ الاتحاد قوة يجب أن يتبع أتم اتباع في هذا القطر اذا أردنا أن نحصل على أتم النفع منه

ليس من المحتمل أيها السادة ان يكون لي دخل عظيم في السياسة في المستقبل ولكني لا أكف عن الاهتمام بأمور مصر علي قدر ماتسمح به قوتي وعافيتي . فأبذل كل مايمكنني بذله من نفوذي في ترقية هذه البلاد علي الخطة الموضوعة الآن لترقيتها ولا أمدح تغييرا فجائيا فيها ولا أشير بكل خروج عنيف عن المناهج الحالية الى منهاج جديد واذا اقتضي الامر فاني سأطلب وألح خصوصا بان هذه الحركة الكاذبة المفتعلة لانشاء مجالس نيابية سريعاً لا تعامل الا بقدر ماتستحق وان سألتموني أيها السادة عما تستحق قلت لكم انها لا تستحق شيئاً لانها لا تعبر في الحقيقة عن رأي المتنورين من سكان القطر المصري أوروبيين كانوا أو مصريين بل انه متى زال كل مايقال الآن من الهذيان والمبالغة كان الاختلاف في الرأى بيني و بين خصومي وخصوصاً الذين في بلاد الانكليز منهم اختلافا في الدرجة لا في المبدأ فهم يريدون أن يعدوا عدوا سريعاً جداً وأنا أرى أن الخبب أحسن سير يوافق مصلحة البلاد فان هذا السير هو الذي نفع معنا في الماضي وهو الذي أشير بدوامه فلا يبطئ حتى

يصير مشينا ثقيلا ولا يسرع حتى يصير عدوا زميلا . لاقتناعى انه اذا أسرع كثيرا خيف أن جواد مصر يكبو فيقع ويكسر ركبتيه (ضحك كثير)

(لماذا أرى هذه الآراء)

وأخبركم الآن أيها السادة لماذا أرى هذه الآراء وأذكرها الآن . لا أراها لان من ورائها مزايا سياسية لوطنى ولا لانى أعتقد ان جميع الاذكياء من الاوربيين والمصريين فى هذه البلاد يشاركوننى فيها . كلا بل لانى أؤمل ان ما أقوله لحضراتكم الآن يترجم الى لغة أهل البلاد ويبلغ مسامع الملايين الذين لايسمع لهم صوت — أولئك الفلاحين اللابسين الجلابيات الزرقاء الذين يتوقف تقدم البلاد في الثروة واليسر على تعبهم فأنا — الذى يعد نفسه دائماً صديقهم الحقيقي — أحذرهم من أن يغتروا ويضلوا بأقوال الذين يدعون كذبا بأنهم ينوبون عنهم وينطقون بلسانهم وينقلون عنهم بلا اذن ولا توكيل منهم آراء لايرونها بل لايفهمونها ولا يدركونها ويطالبون أمورا سياسية لو أجيبوا اليها حالا لعادت بالضرر على مصالح الناس عموما وعلى مصالح أفقر أهالى القطر خصوصا (اسمعوا . اسمعوا)

ولو كنت أتحول عن الدفاع عن هذا النظام الذى دام نحو ربع قرن الآن الى انتقاده لكان أول ما أنتقده فيه ان التقدم كان سريعاً جدا فيه عوضاً عن أن يقال انه كان بطيئاً جدا وانه لمزيد سرعته لم يتيسر بعد لعامة الناس أن يقتبسوا ويألفوا الاصلاحات التى تمت فيه

نصيحة أخرى

بقى لى نصيحة أخرى أحب أن أقولها قبل ان أجلس في مكاني وهى ان قولهم «الاتحاد قوة» لا يصدق على الذين هم في خدمة الحكومة فقط بل على جميع الذين يهمهم ادخال التمدن الحقيق الى هذه البلاد . فالواجب عليهم أن يتحدوا معاً ولا أعنى بذلك ان الانكليز والفرنسويين والالمان وسائر الاوربيين فقط يطرحون عنهم ما بينهم من المناظرة والمنافسة ويتحدون معاً فى مصلحة واحدة بل ان جميع الذين يريدون أن تكون الحكومة حكومة عقل وأن يكون تقدم البلاد مستمرا دائما يتحدون جميعهم معا سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أوروبيين

او أفريقيين أو اسيويين ويقاومون القوات المجاهدة في سبيل التأخر والتقهقر حقيقة سواء كان جهادها عن جهل أو عن عمد وقصد (اسمعوا . وتصفيق)

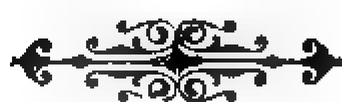
وأشكركم أيها السادة في الختام على اصغائكم الىّ بالصبر وطول الاناة هذه المدة التى قلت فيها كل ما أردت قوله

ولا شك عندى ان الصعوبات لا تزال كثيرة فى سبيل المصلح المصرى وخصوصاً السر الدن غورست ولكن آخر كلمة أقولها له ولكم كلكم هى كلمة كان عباد الآلهة ايزيس في هذه البلاد كثيرا ماينقشونها على قبورهم بلغة القوم الذين هم أصل التمدن الاوربي والذين استوطن أناس كثيرون من ذريتهم هذه البلاد لخيرها والذين أعد منهم أصدقاء كثيرين لى ـ وأعنى بها لغة اليونان . ومعنى تلك اللفظة اليونانية تشجعوا (تصفيق)

فأودعكم أيها السادة وأنا واثق ثقة تامة بمستقبل هذه البلاد التى كانت موطنا لي سنين هذا عددها والتى تأصلت جراثيم التمدن الحقيق فيها على ما أرجو حتى صار يعسر استئصالها . أودعكم علي الكره منى وأستودعكم الله (تصفيق طويل وهتاف شديد متكرر

ثم صدحت الموسيقى بالسلام الخديوى وكانت الساعه ٧ والدقيقة ١٠ مساء

(المؤيد في ٢٢ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ـ ٥ مايو سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٥٦)



حفلة الوداع
وخطبة اللورد كرومر

تقفون والفلك المحرك دائر * وتقدرون فتضحك الاقدار

وقف الخطباء مساء السبت الماضى موقف الممثلين فى دار التمثيل الكبرى (الاوبرة الخديوية) يحكمون على الماضى والمستقبل حكم الاقدار في الكائنات . ويبرمون وينقضون ويرفعون ويخفضون والناس يسمعون مختارين أومكرهين لان فرسان ميدان الخطابة كانوا ثلاثة لا يزيدون ولا ينقصون ولو أن الموقف كان حراً لكل قائل لسمعوا مايكرهون كما قالوا مايحبون

قلنا انهم وقفوا موقف الممثلين لانهم كذلك فى حقيقة الواقع وقد مثلوا آخر فصل من رواية كثيرة الحوادث عديدة الفصول طويلة الزمان بطل وقائعها وفارس معمعانها ذلك الذى كان آخر الخطباء في الحفلة كلاما وأشدهم ايلاماً وأكثرهم آلاماً

وقف ليمثل آخر سلطة له في هذه الديار ولسان حاله يقول

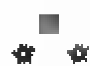
« ما في وقوفك ساعة من باس »

مثلها فى مكان هو أليق ما كان عظة لقائل ومظهراً لسلطان راحل ومجد زائل وأصدق ماضرب له من الامثال « لكل مقام مقال »

وقبل أن نذكر شيأ عن الخطباء وخطبهم يجدر بنا أن نذكر شيأعن هذا الاسلوب الذى اختير من أساليب الوداع ولماذا فضلت حفلة الاوبرة على المأدبة

التي كان يراد عملها في أول الامر ؟؟ . فضلت لان القوم لم يريدوا مظهر اكرام الرجل الراحل اكراما معتاداً فى مثل هذا المقام ولكنهم أرادوا مظاهرة سياسية أساسها سلطة الحكومة وأساطينها قوى الاحتلال بعيدة عن الامة والامة بعيدة عنها . وقد بالغوا فيها ماشاؤا وما استطاعوا أن يبالغوا في هذه المظاهرة بقصد أن يذهب من نفوس المصريين كل أثر للظن بأن اللورد مستقيل لاسباب سياسية وحتى يستقر فيها أن اعتلال صحته هو الباعث الأول بل والآخر على استقالته من وظيفته ولو أنهم أحسنوا الصنيع معه لتركوا هذه المظاهرات التي حملت كل الناس بكل ماجرى فيها على فهم ان الرجل راحل طبق المثل « مكره أخاك بطل »

وفوق هـذا أنهم لسوء الحظ لم ينجحوا في القيام بالمظاهرة السياسية كما أرادوا منها بل فشـلوا في تكوينها من الامـة وقد حاولوا ذلك بواسطة سلطة الحـكومة المخلوطة بقوى الاحتلال وانعكست الآية عليهم فلم يكن من الوطنيين في هذه المظاهرة سوى نفر قليل يعرفون بسيماهم ويكادون يعدون على أصابع اليدين والرجلين وسوى رجال الحـكومة الذين هم صنائع اللورد الذين يمن هو عليهم بوجودهم فى هيكلها . ولم يكن من الاوربيين سوى بعض الرجال الرسميين ونفر ممن حسنت حالهم على يد اللورد بمناسبات شتى أو ممن جذبتهم جاذبية حب الظهور فوق المراسح والحشر فى غمرات المجامع من النقيض الى النقيض وما أكثر المتحذلقين لذلك بين الناس



كان الداعى لهـذا الاحتفال باسمه من أول الامر صاحب العطوفة رئيس النظار وهذا نص الدعوة التي وزعت على كبراء السراة والاعيان ليكونوا من

أعضاء اللجنة العاملة . ونحن نذكر هنا نص ورقة الدعوة الاولى بعنوانها لان الكتاب يقرأ من عنوانه . وهو بحروفه

« احتشاد للاحتفال بجناب اللورد كرومر »

جار تشكيل لجنة تحت رئاسة صاحب العطوفة مصطفى باشا فهمى للقيام بمظاهرة نحو جناب اللورد كرومر بمناسبة قرب رحيله من القطر المصرى وللاقرار فيما بعد على الطريقة المؤدية لتخليد أثر جنابه وقد تقرر القاء خطبة تتضمن تقديم الشكر لجنابه في بهو تياترو الاوبرة الخديوية فى يوم السبت ٤ مايو القادم وقد كلفتنى اللجنة بأن أرجوكم التكرم بافادتى عما اذا كنتم تقبلون اضافة اسمكم الكريم الى الاسماء المدرجة بالقائمة المرفقة بهذا سكرتير اللجنة

في ٢٥ ابريل سنة ٩٠٧ العنوان المستر يورك بنظارة المالية يورك

بعث بهذه الدعوة الى المئات من كبار الوطنيين والاجانب ولم يترك المدعوون أحرارا يجيبون أولا يجيبون بمحض ارادتهم واختيارهم بل كان الكثيرون من رجال الحكومة وأصحاب السلطة العالية فيها يذهبون بأنفسهم لبعض المدعوين أو يرسلون رسلهم اليهم يلحون عليهم كل الالحاح بالقبول . ومع كل مابذلت الحكومة بعناصرها المختلفة لم يشترك فى لجنة التأسيس من سراة الوطنيين غير الموظفين ونحو بضعة عشر شخصاً بعضهم ممن عرفوا اللورد شخصيا ودامت بينهم وبينه صلة التزاور لتكافؤ فى المقام الذاتى وبعضهم ممن غمرهم اللورد بفضله يدا بيد وبعضهم لافي العير ولافي النفير ولكنهم ليعرفوا فى أمثال هذه المظاهرة على ولاء للمحتلين وأحدهم سئل كيف وجدت في اللجنة ولست على شاكلة أعضائها مكانة أو جاها فأجاب على ملأ من الناس « كنت على وشك أن أعزل من وظيفتى منذ أشهر فلم يحفظنى فيها سوى اشارة جاءت الى الحقانية من جانب اللورد فلماذا لا أعرف له هذا الجميل »

واذا كان مايبذل من الجهد والعناء فى سبيل الوصـول الى الغرض المعيار الحقيق للفوز أو الفشل فان مابذلته الحكومة وعناصرها المختلفة في سبيل جعل هـذه المظاهرة السياسية ممثلة للامة المصرية بحذافيرها وعنوانا كاملا على قدر شكر الامـة للرجل الراحل جاء دليلا على أن الفشل كان أعظم مايمكن أن يقدر لعمل العاملين . وعلى هذا القياس كان الفشل أيضا في الدعوة العمومية لحضور غير المشتركين في الاحتفال اياه فان بعض المديرين كانوا يسوقون الاعيان سوقا الى القـاهرة ويصحبونهم بالرسل في مجيئهم حـتى اذا جاؤا اليها أبى أكثرهم الخروج من الفنادق التى نزلوا بها ليلة الاحتفال

ولا تفسير لذلك الفشل العظيم وهذا الاباء الذى عم المدن والقرى الا أن اللورد ولو أنه أحسن كثيرا فى هـذه البلاد فقد أساء كثيرا فيها وكانت سيئاته الـكبرى فى أخريات أيامه فلم ينسها الناس لانه لم يترك في جعاب تقريره الاخير سهاما مؤذية الا سددها نحو مصر والمصريين وفى مبادئهم وعقائدهم والذكرى تغلب بالسيئ من الاقوال والعبرة بالخواتيم من الاعمال

***

أما الاحتفال نفسه فلم يكن مظاهرة سياسية لاكرام الرجل عند رحيله كما أرادوا ولـكنه انقلب بما جرى فيه مظهرا عدائيًا من اللورد لم ير الراؤون ولم يرو الراوون مثله فى مقام وداع كهذا المقام

دعنا من كون رئيس الاحتفال أخطأ في أنه لم يكن المتكلم الاول وما عرف حتى الآن أن رئيس احتفال ورئيس وزارة معا يقدم عليه سواه فى الـكلام . ودعنا من كونه خطب بالفرنساوية ولم يجعل للغة البلاد نصيبا من كلامه في احتفال

كذا . ودعنا من زعمه أنه يمثل مع الحكومة فى موقفه السواد الاعظم من الامة المصرية والسواد الاعظم يخالفه فى الرأى والقول . ودعنا من كون الكونت دي سريون يتكلم عن فئة من الاوروبيين بما تشمر من حسنات الاحتلال عليها أو هو أراد انجاح السفارة الانكليزية بباريس في وساطة له لدى حكومة الجمهورية بعد ماحالت هذه الحكومة دون انعام ملك اسبانيا وكل انعام تلاه من الدول الاجنبية عليه وهو ينتظر اللاجيون دي نور بصبر نافد

دعنا من كل هذا وانظر الى خطبة اللورد السياسية التي جعلها بمثابة وصيته الاخيرة وخاتمة اعماله في مصر

فبينما كانت الامة المصرية واقفة موقف الآمل منتظرة من ذلك الراحل العظيم والشيخ الحكيم أن يصلح ما فرط منه نحو الشريعة الاسلامية بما قضى عليها من الجمود الابدى ونحو الامة المصرية بما وصفها به من العقم السرمدي . بينما هى ترجو من جنابه أن يغتنم هذه الفرصة السانحة ليأسو الجراح التي جرحها ويضمد الكلوم التي فتحها فى جسمها بما تقدم وبما أراد أن يجعل وطنيتها أعجوبة بين الوطنيات وجامعتها كشكولا بين الجامعات . وبينما كان سمو أمير البلاد يتعطف ويتلطف ويبالغ في اكرام الراحل عند رحيله متناسيا الحزازات السياسية التى طالما كان اللورد مهاجما فيها غير عادل ولا متلطف

بينما كان كل هذا اذا ببركان « البيروقراطية » التى نشأ عليها اللورد ومارسها كل حياته حتى برز فيها أكثر من كل مبرز من تواريخ الحكومات المطلقة قد انفجرت نيرانه وقذف بلظاه على الاحياء والأموات

وقف اللورد خطيبا وهو يدافع كيد السقام ويجاذب داعى الخصام فجال فى خاطره انه مفارق قصرا تجري من تحته الانهار وملكا خضع له فيه الليل

والنهار وتارك خصوما قد يتوهمون أنهم نازلوه فغلبوه أو يتوهم هو أنه حالهم فأغضبوه

وقف اللورد وله نفسان نفس نزاعة الى حب البقاء وأخرى تقول كيف البقاء بعد الاستعفاء

وقد ذكر أصدقاءه القليلين كما يعلم وأعداءه الكثيرين كما يتوهم فسر وساء وترخص وتشدد وعدد وندد ووعد وتوعد وأرغى وأزبد وحذر وأنذر وحكم وقدر

ربما أخرج الحزين جوى الحز ن الى غير لائق بالسداد
مثلما فاتت الصلاة سليما ن فأنحى على رقاب الجياد

وقف اللورد خطيبا راحلا عن بلاد أقام فيها أكثر سني حياته فظن الناس أنه محسن وداعه لها ذاكر جميل أهليها معه في ماضية الطويل ليذكروا جميلهم معه بعد فراقه فاذا هو قد جمع في ساعة واحدة كل أغلاطه الماضية ومثل في هذه الساعة الزائلة كل مظاهر السلطة والاستبداد التي عرفت عنه وزاد عليها أضعاف أضعافها

وعجيب أن الانسان يقدر أن يسيء الى أمة بأسرها في ماضيها وحاضرها وأحيائها وأمواتها كما فعل جناب اللورد في ساعة وداعه . فانه في هذه الساعة بل في نصف ساعة بالتحديد طعن على أمير البلاد طعنا جارحا لعواطف الامة كما طعن على بصائرها فقال انهم « عميان » ومجد سكرتيره المستر فندلى الذى نقل من مصر بعد ما أساء للامة في حادثة دنشواى المحزنة أعظم اساءة مشيرا الى أنه عمل فيها أنفع عمل مع أنه هو الذي رمى الامة بالتعصب ورمى جرائدها بارتكاب الرشوة كذبا

طعن اللورد في نصف ساعة على الاحياء والاموات فرشق المرحوم اسماعيل باشا وهو في قبره بسهام جارحة كان الامير حسين باشا نجله الا كبر فى غنى عن سماعها لو لم يتفضل بحضور الاحتفال بوداعه . هذا الامير الجليل الذي والى جناب اللورد بالصداقة زمنا طويلا وخصه باحترامه دائما وكان له في عهده أعظم أثر في خدمة البلاد معه خدمة حقيقية بأخذه الجمعية الزراعية الخديوية تحت رئاسته وبذل عنايته الجليلة في ترقية شؤونها بنفسه وماله ومع ذلك لم ير اللورد انه خليق بكلمة ثناء يوجهها اليه في جنب ماوجه من عبارات الثناء لغيره من الاحياء والاموات

لم يكتف اللورد فى أن يجبه الامراء من العائلة الخديوية جبها في « اسماعيل » بل قال عن المرحوم « توفيق » قولا أشبه بالمديح فى أسلوبه وهو عين الهجاء . قال عنه « انه لم يكن يشترك كثيرا فى أمور اصلاح مصر » وأثنى عليه بأنه كان بذلك يعرف قدره ومركزه تعريضا بالجناب العالى الخديوى الذى لم يكفه منه هذا التعريض بل طعن عليه بعد ذلك طعنا صريحا وكاد يسبه سبا

خص اللورد أشخاصا ممدودين بثنائه فذكر فى أولهم الطيب الذكر نوبار باشا ولكنه لم يذكر أثرا طيبا له يستحق به هذا الثناء سوى أنه كان المخطط الاول لخطة تعديل نظام الامتيازات الاجنبية . ولكن الخطيب لو أنصف الرجل فى قبره لقال ان مشروعه فى تعديل الامتيازات كان مخالفاً لهذا المشروع الجديد لان نوبار باشا انما كان يطلب تعديلها باعطاء المحاكم المختلطة سلطة الحكم في الجنايات والجنح كما طلبت الجمعية العمومية منذ سنين وكان أشد الناس اعتراضا له في طريق نجاح هذا المشروع اللورد كرومر الذى يزعم اليوم أنه متمم عمله العظيم

ذكر بعد ذلك رياض باشا وأطرى شجاعته التى اشتهر بها في زمن اسماعيل

باشا قائلا ـ انه علق الجرس بعنق الهر ـ ومغزى هذا المثل أنه لم يكن يبالى اذا
أن يصيبه مكروه من ذلك المستبد الذى كانت تعنو لهيبته الوجوه . ولكن اللور
لم يقل ان رياض باشا لما أراد في زمنه هو أن يعلق الجرس فى عنق الهر قطع
هذه العنق وحلف اللورد أن لايعود الى خدمة الحكومة مادام هو فى البلا
وزاده عقوبة أن رفت ابنه من وكالة الداخلية فى اليوم التالى من استقالة أبيه
الوزارة فكان المستبد اسماعيل أخف وطأة على رياض باشا من المستبد كرومر

ذكر بعد رياض باشا مصطفى فهمى باشا صديق اللورد العزيز الذى كان
ينتظر الناس أن يقول عنه ماقال وأضافه ذلك الصديق العزيز الذي حلف له بو
عاد الى رئاسة النظار في سنة ١٨٩٥ أن يبقى فيها مادام حيا وما بقى اللورد في مص
وقد بر في يمينه كما بر في يمينه عن رياض باشا . ولكن الناس لايحكمون لمصطف
باشا حكم اللورد له في كل ماقاله عنه بل يقولون عنه انه أنكر نفسه وعرف اللور
فاستحق أن يكون سامى المقام فى عينيه لافي عينى الامة المصرية

ذكر بعده بطرس باشا فمدحه بسعة الحيلة العقلية فى حل المشكلات وه
كلمة صغيرة جداً فى جنب ما أدى من الخدم الجليلة للبلاد في حل المشكلات
بين اللورد والجناب العالى من جهة وبينه وبين قناصل الدول من جهة أخرى

ثم ذكر من بعده سعد باشا زغلول ـ بالمدح والاطراء الكثير ويسرنا أ
مدة تجربته كانت قصيرة عند جناب اللورد فصرنا نؤمل أن يدخل في مناص
الحكومة العليا كثيرون من أمثاله القادرين على العمل بعد ما كان اللورد يتهد
بأنه ان لم يؤد مدة التجربة بنجاح يضطر الى أن يسلم كل أعمال الحكومة العا
للانكليز ويقول على المصريين فيها السلام

على أن اللورد بعد أن ذكر هؤلاء الثلاثة من النظار أعرض عن ذكر ب

الاربعة الباقين فلم يشر اليهم بأقل اشارة كأنهم ليسوا نظاراً فى الحكومة ولا عمل لهم مطلقا فيها فتساءل الناس . أليس هؤلاء من صنائع اللورد أيضا . أولم يكونوا مثل مصطفى فهمى باشا يخدمون بلادهم بالسكوت عنده

أو كما قال هو « بالسكينة والهدو والابتعاد عن التعرض للغير والدخول فيما لا يعنى » أوهم كانوا على غير هذه الخطة فلم يكونوا محسنين عملا . ان كان الامر كذلك فلماذا هو أبقاهم في مناصبهم مدة اثنتى عشرة سنة لا يعملون عملا يليق أن يذكروا به في مثل هذه الحفلة . تساءل الناس كثيرا عن اغضاء اللورد عن ذكرهم ونحن مثلهم لا نعرف له سببا ولعل حضرات النظار المسكوت عنهم يعرفون هذا السبب

ولقد ذهب بعضهم بهذا الصنيع من اللورد الى أكثر مما يظن حتى قالت « الجريدة » فى العدد الذي نشرت فيه خطبة اللورد تحت عنوان (تغيير في الوزارة) ما يأتي — ليس من البعيد أن يحصل تغيير فى رجال الوزارة المصرية يكون من شأنه اسناد بعض النظارات الى رجال مسئولين — كأنما في بعض النظارات اليوم رجال من الذاهلين أو المتوهين . ونحن نعرف أنه لا أصل لهذا الخبر الآن ولكن الذى أوجد هذا القيل والقال سكوت اللورد عن بعض النظار في معرض الحصر والتعداد سكوتا مهينا أو قريبا من ذلك

وبعد ماقال عن بعض كبار الانكليز مدحا وثناء واعجابا واطراء عاد الى المصريين فذكرهم بمنن الاحتلال عليهم وقال انى لا أصدق مايقال عنهم من انهم ناكرو الجميل كافرو النعم ولكن اذا صح مايقال عنهم من هذا القبيل فهو ينتظر شكران نعم الاحتلال من أولاد هؤلاء العميان

وبعد أن رمى المصريين بهذا السهم الجارح انتقل الى بيان (الغرض السياسى)

الذي زعم انه كان نصب عينيه منذ قلد وظيفته فى مصر وهو أن يسعى الى اعادة الاتفاق الفرنساوى الانكليزى الى ما كان عليه والذى كان يوصى به على الدوام ذلك السياسى الطائر الصيت (غامبتا) قائلا (اياكم وأن تقطعوا حبل المحالفة الانكليزية) كذلك هو يوصى قومه اليوم (اياكم وأن تقطعوا حبل الاتفاق الفرنساوى) كأنما اللورد الذى ينسى التاريخ يظن أن جميع الناس ينسون التاريخ مثله فينسون تلك الخشونة السياسية أو الجلافة العسكرية التي كان يقابل السير افلن بارنج بها خصومه الفرنساويين في مصر على الدوام . وأنه كان يحارب النفوذ الفرنساوى في كل مصلحة وفي كل طريق . وأنه هو الذى أمحى على العلوم والآداب واللغة الفرنساوية فى مدارس الحكومة المصرية . وكانت نبراساً للناشئين وأنه هو الذى أقفل جريدتى الاهرام والبسفور لكونهما فرنساويتين وما عادتا الى الظهور الا بأمر من لندرة وأنه وأنه الخ لا حبا في مصلحة مصر ولكن ليحل محل كل قدم فرنساوية قدما انكليزية وكل شيء فرنساوى مثله انكليزياً لتدخل سياسة الاحتلال على المصريين من كل باب.

يوهم اللورد كرومر أنه كان من أصحاب السعي والعمل لذلك الاتفاق الفرنساوى الانكليزى لمصلحة فرنسا وانكلترا معاً فى مصر مع أنه هو القائم بعد عقد هذا الاتفاق بمشروع الغاء الامتيازات الاجنبية الذى لا معنى له الا أن تصير هذه الامتيازات واسطة من جملة وسائط تقرير السيادة الانكليزية المطلقة على مصر وجميع سكانها . وان هذه الكلمات الحلوة التي يفوه بها تزلفا واسترضاء واستمالة للفرنساويين لا تستر ما وراءها من المقاصد السياسية الكبرى التي هى ضد مصلحة فرنسا كما هى ضد مصلحة بقية الدول ومصر معا

* * *

أراد اللورد بعد كل ما تقدم أن يمدد منته على مصر والمصريين من الوجهتين المادية والادبيـة فذكر التقدم المالى اجمالا لعامه أن الناس مجمعون على الاعتراف بفضله فى بابه ثم ذكر التقـدم الادبى تفصيلا فأخذ يمـدد للناس فصوله قائلا — هل السخرة باقية فى مصر . هل لعنة الرق لا تزال حالةعليها . أليس كل شخص فيها من الامير الى الصعلوك الحقير أمام القانون سواء . ألم ينشط الناس الى العمل والكسب . أليس صغار الناس يجنون اليوم ثمار كدهم الخ الخ .

وقد فات اللورد أن حكومة مصر كانت قد قررت قرارها في أمر العونة قبـل الاحتلال وكانت سائرة في طريق التنفيذ . وأن أول معاهدة للرق كانت بينها وبين انكلترا قبـل عهد اللورد بسنين . وأن النظامات القانونية التى سوت بين الامير والحقير فى النهاية لم يضع أساسها فيمصر اللورد ولا قومه . وأن الناس نشطوا الى الكسب والعمل وأخذوا يجنون ثمار أعمالهم من يوم بدىء برفع أثقال الضرائب الشاذة عن كواهلهم وأن ما رفع من هذه الاثقال فى سنتى ٨٠و٨١ قد بلغ أكثر من مليونى جنيه مع أن ما رفع من هذه الاثقال فى زمن الاحتلال كله لم يزد عن ٦٠٠ ألف جنيه سنويا . وأن كل شىء كان سائرا بطبيعته الى التحسين والكمال بحيث لولم يكن في البلاد احتلال لما وقفنا عند ذلك الحال الذى تركنا عليه الخديو الاسبق . وهب أن ماوصلنا اليه في عهد ٢٥ سنة كنامدركيه فى مدى ثلاثين مثلا فالتقدم حاصل بطبيعة الوجود وسنة الارتقاء في الاعمـال . ولكن الارتقاء الادبى لم يكن يبقى واقفا عند الحد السلبي الذى من علينا به اللورد كرومر فان هذه الوجوه التى ذكرها سلبية أى من لوازم رفع أشياء نشأعن رفعها عدم وجود لوازم ماقبلها لا ايجابيـة كبث أنوار العلوم فى البلاد وكتأهيـل المصريين لان يحكموا أنفسهم بأنفسهم وهما العاملان القويان في ترقية الامم من الوجهة الادبية .

التي كان يراد عملها في أول الامر ؟؟ . فضلت لان القوم لم يريدوا مظهر اكرام الرجل الراحل اكراما معتاداً في مثل هذا المقام ولكنهم أرادوا مظاهرة سياسية أساسها سلطة الحكومة وأساطينها قوى الاحتلال بعيدة عن الامة والامة بعيدة عنها . وقد بالغوا فيها ماشاؤا وما استطاعوا أن يبالغوا في هذه المظاهرة بقصد أن يذهب من نفوس المصريين كل أثر للظن بأن اللورد مستقيل لاسباب سياسية وحتى يستقر فيها أن اعتلال صحته هو الباعث الاول بل والآخر على استقالته من وظيفته ولو أنهم أحسنوا الصنيع معه لتركوا هذه المظاهرات التي حملت كل النـاس بكل ماجرى فيها على فهم ان الرجل راحل طبق المثل « مكره أخاك بطل »

وفوق هـذا أنهم لسوء الحظ لم ينجحوا في القيام بالمظاهرة السياسية كما أرادوا منها بل فشلوا في تكوينها من الامـة وقد حاولوا ذلك بواسطة سلطة الحكومة المخلوطة بقوى الاحتلال وانعكست الآية عليهم فلم يكن من الوطنيين في هذه المظاهرة سوى نفر قليل يعرفون بسيماهم ويكادون يعدون على أصابع اليدين والرجلين وسوى رجال الحكومة الذين هم صنائع اللورد الذين يمن هو عليهم بوجودهم في هيكلها . ولم يكن من الاوربيين سوى بعض الرجال الرسميين ونفر ممن حسنت حالهم على يد اللورد بمناسبات شتى أو ممن جذبتهم جاذبية حب الظهور فوق المراسح والحشر في غمرات المجامع من النقيض الى النقيض وما أكثر المتحذلقين لذلك بين الناس

***

كان الداعي لهـذا الاحتفال باسمه من أول الامر صاحب العطوفة رئيس النظار وهذا نص الدعوة التي وزعت على كبراء السراة والاعيان ليكونوا من

أعضاء اللجنة العاملة . ونحن نذكر هنا نص ورقة الدعوة الاولى بعنوانها لان الكتاب يقرأ من عنوانه . وهو بحروفه

« احتشاد للاحتفال بجناب اللورد كرومر »

جار تشكيل لجنة تحت رئاسة صاحب العطوفة مصطفى باشا فهمى للقيام بمظاهرة نحو جناب اللورد كرومر بمناسبة قرب رحيله من القطر المصرى وللاقرار فيما بعد على الطريقة المؤدية لتخليد أثر جنابه وقد تقرر القاء خطبة تتضمن تقديم الشكر لجنابه في بهو تياترو الاوبرة الخديوية فى يوم السبت ٤ مايو القادم وقد كلفتنى اللجنة بأن أرجوكم التكرم بافادتى عما اذا كنتم تقبلون اضافة اسمكم الكريم الى الاسماء المدرجة بالقائمة المرفقة بهذا   سكرتير اللجنة

في ٢٥ ابريل سنة ٩٠٧   العنوان المستر يورك بنظارة المالية   يورك

بعث بهذه الدعوة الى المئات من كبار الوطنيين والاجانب ولم يترك المدعوون أحرارا يجيبون أولا يجيبون بمحض ارادتهم واختيارهم بل كان الكثيرون من رجال الحكومة وأصحاب السلطة العالية فيها يذهبون بأنفسهم لبعض المدعوين أو يرسلون رسلهم اليهم يلحون عليهم كل الالحاح بالقبول . ومع كل مابذلت الحكومة بعناصرها المختلفة لم يشترك فى لجنة التأسيس من سراة الوطنيين غير الموظفين ونحو بضعة عشر شخصاً بعضهم ممن عرفوا اللورد شخصيا ودامت بينهم وبينه صلة التزاور لتكافؤ فى المقام الذاتى وبعضهم ممن غمرهم اللورد بفضله يدا بيد وبعضهم لافي العير ولافي النفير ولكنهم ليعرفوا فى أمثال هذه المظاهرة على ولاء للمحتلين وأحدهم سئل كيف وجدت في اللجنة ولست على شاكلة أعضائها مكانة أو جاها فأجاب على ملأ من الناس « كنت على وشك أن أعزل من وظيفتى منذ أشهر فلم يحفظنى فيها سوى اشارة جاءت الى الحقانية من جانب اللورد فلماذا لا أعرف له هذا الجميل »

واذا كان مايبذل من الجهد والعناء فى سبيل الوصـول الى الغرض المعيار الحقيق للفوز أو الفشل فان مابذلته الحـكومة وعناصرها المختلفة في سبيل جعل هـذه المظاهرة السياسية ممثلة للامة المصرية بحذافيرها وعنوانا كاملا على قدر شكر الامـة للرجل الراحل جاء دليلا على أن الفشل كان أعظم مايمكن أن يقدر لعمل العاملين . وعلى هذا القياس كان الفشل أيضا في الدعوة العمومية لحضور غير المشتركين في الاحتفال اياه فان بعض المديرين كانوا يسوقون الاعيان سوقا الى القـاهرة ويصحبونهم بالرسل في مجيئهم حـتى اذا جاؤا اليها أبى أكثرهم الخروج من الفنادق التى نزلوا بها ليلة الاحتفال

ولا تفسير لذلك الفشل العظيم وهذا الاباء الذى عم المدن والقرى الا أن اللورد ولو أنه أحسن كثيرا فى هـذه البلاد فقد أساء كثيرا فيها وكانت سيئاته الـكبرى فى أخريات أيامه فلم ينسها الناس لانه لم يترك في جعاب تقريره الاخير سهاما مؤذية الا سددها نحو مصر والمصريين وفى مبادئهم وعقائدهم والذكرى تغلب بالسيئ من الاقوال والعبرة بالخواتيم من الاعمال

***

أما الاحتفال نفسه فلم يكن مظاهرة سياسية لاكرام الرجل عند رحيله كما أرادوا ولكنه انقلب بما جرى فيه مظهرا عدائيًا من اللورد لم ير الراؤون ولم يرو الراوون مثله فى مقام وداع كهذا المقام

دعنا من كون رئيس الاحتفال أخطأ في أنه لم يكن المتكلم الاول وما عرف حتى الآن أن رئيس احتفال ورئيس وزارة مما يقدم عليه سواه فى الـكلام. ودعنا من كونه خطب بالفرنساوية ولم يجعل للغة البلاد نصيبا من كلامه في احتفال

كهذا . ودعنا من زعمه أنه يمثل مع الحكومة فى موقفه السواد الاعظم من الامة المصرية والسواد الاعظم يخالفه فى الرأى والقول . ودعنا من كون الكونت دي سريون يتكلم عن فئة من الاوروبيين بما تشعر من حسنات الاحتلال عليها أو هو أراد انجاح السفارة الانكليزية بباريس في وساطة له لدى حكومة الجمهورية بعد ماحالت هذه الحكومة دون انعام ملك اسبانيا وكل انعام تلاه من الدول الاجنبية عليه وهو ينتظر اللاجيون دي نور بصبر نافد

دعنا من كل هذا وانظر الى خطبة اللورد السياسية التي جعلها بمثابة وصيته الاخيرة وخاتمة اعماله في مصر

فبينما كانت الامة المصرية واقفة موقف الآمل منتظرة من ذلك الراحل العظيم والشيخ الحكيم أن يصلح ما فرط منه نحو الشريعة الاسلامية بما قضى عليها من الجمود الابدى ونحو الامة المصرية بما وصفها به من العقم السرمدي . بينما هى ترجو من جنابه أن يغتنم هذه الفرصة السانحة ليأسو الجراح التي جرحها ويضمد الكلوم التي فتحها فى جسمها بما تقدم وبما أراد أن يجعل وطنيتها أعجوبة بين الوطنيات وجامعتها كشكولا بين الجامعات . وبينما كان سمو أمير البلاد يتعطف ويتلطف ويبالغ في اكرام الراحل عند رحيله متناسيا الحزازات السياسية التى طالما كان اللورد مهاجما فيها غير عادل ولا متلطف

بينما كان كل هذا اذا ببركان « البيروقراطية » التى نشأ عليها اللورد ومارسها كل حياته حتى برز فيها أكثر من كل مبرز من تواريخ الحكومات المطلقة قد انفجرت نيرانه وقذف بلظاه على الاحياء والأموات

وقف اللورد خطيبا وهو يدافع كيد السقام ويجاذب داعى الحِمام فجال فى خاطره انه مفارق قصرا تجري من تحته الانهار وملكا خضع له فيه الليل

والنهار وتارك خصوما قد يتوهمون أنهم نازلوه فغلبوه أو يتوهم هو أنه حالمهم فأغضبوه

وقف اللورد وله نفسان نفس نزاعة الى حب البقاء وأخرى تقول كيف البقاء بعد الاستعفاء

وقد ذكر أصدقاءه القليلين كما يعلم وأعداءه الكثيرين كما يتوهم فسر وساء وترخص وتشدد وعدد وندد ووعد وتوعد وأرغى وأزبد وحذر وأنذر وحكم وقدر

ربما أخرج الحزين جوى الحز ن الى غير لائق بالسداد
مثلما فاتت الصلاة سليما ن فأنحى على رقاب الجياد

وقف اللورد خطيبا راحلا عن بلاد أقام فيها أكثر سني حياته فظن الناس أنه محسن وداعه لها ذاكر جميل أهليها معه في ماضية الطويل ليذكروا جميلهم معه بعد فراقه فاذا هو قد جمع في ساعة واحدة كل أغلاطه الماضية ومثل في هذه الساعة الزائلة كل مظاهر السلطة والاستبداد التي عرفت عنه وزاد عليها أضعاف أضعافها

وعجيب أن الانسان يقدر أن يسيء الى أمة بأسرها في ماضيها وحاضرها وأحيائها وأمواتها كما فعل جناب اللورد في ساعة وداعه . فانه في هذه الساعة بل في نصف ساعة بالتحديد طعن على أمير البلاد طعنا جارحا لعواطف الامة كما طعن على بصائرها فقال انهم « عميان » ومجد سكرتيره المستر فندلي الذى نقل من مصر بعد ما أساء للامة في حادثة دنشواى المحزنة أعظم اساءة مشيرا الى أنه عمل فيها أنفع عمل مع أنه هو الذي رمى الامة بالتعصب ورمى جرائدها بارتكاب الرشوة كذبا

طمن اللورد في نصف ساعة على الاحياء والاموات فرشق المرحوم اسماعيل باشا وهو في قبره بسهام جارحة كان الامير حسين باشا نجله الا كبر فى غنى عن سماعها لو لم يتفضل بحضور الاحتفال بوداعه . هذا الامير الجليل الذي والى جناب اللورد بالصداقة زمنا طويلا وخصه باحترامه دائما وكان له في عهده أعظم أثر في خدمة البلاد معه خدمة حقيقية بأخذه الجمعية الزراعية الخديوية تحت رئاسته وبذل عنايته الجليلة في ترقية شؤونها بنفسه وماله ومع ذلك لم ير اللورد انه خليق بكلمة ثناء يوجهها اليه في جنب ما وجهه من عبارات الثناء لغيره من الاحياء والاموات

لم يكتف اللورد فى أن يجبه الامراء من العائلة الخديوية جبها في « اسماعيل » بل قال عن المرحوم « توفيق » قولا أشبه بالمديح فى أسلوبه وهو عين الهجاء . قال عنه « انه لم يكن يشترك كثيرا فى أمور اصلاح مصر » وأثنى عليه بأنه كان بذلك يعرف قدره ومركزه تعريضا بالجناب العالى الخديوى الذى لم يكفه منه هذا التعريض بل طعن عليه بعد ذلك طعنا صريحا وكاد يسبه سبا

خص اللورد أشخاصا معدودين بثنائه فذكر فى أولهم الطيب الذكر نوبار باشا ولكنه لم يذكر أثرا طيبا له يستحق به هذا الثناء سوى أنه كان المخطط الاول لخطة تعديل نظام الامتيازات الاجنبية . ولكن الخطيب لو أنصف الرجل فى قبره لقال ان مشروعه فى تعديل الامتيازات كان مخالفاً لهذا المشروع الجديد لان نوبار باشا انما كان يطلب تعديلها باعطاء المحاكم المختلطة سلطة الحكم في الجنايات والجنح كما طلبت الجمعية العمومية منذ سنين وكان أشد الناس اعتراضا له في طريق نجاح هذا المشروع اللورد كرومر الذى يزعم اليوم أنه متمم عمله العظيم

ذكر بعد ذلك رياض باشا وأطرى شجاعته التى اشتهر بها في زمن اسماعيل

باشا قائلا ـ انه علق الجرس بعنق الهر ـ ومغزى هذا المثل أنه لم يكن يبالى اذا
أن يصيبه مكروه من ذلك المستبد الذى كانت تعنو لهيبته الوجوه . ولكن اللور
لم يقل ان رياض باشا لما أراد في زمنه هو أن يعلق الجرس فى عنق الهر قطع
هذه العنق وحلف اللورد أن لا يعود الى خدمة الحكومة مادام هو فى البلا
وزاده عقوبة أن رفت ابنه من وكالة الداخلية فى اليوم التالى من استقالة أبيه
الوزارة فكان المستبد اسماعيل أخف وطأة على رياض باشا من المستبد كرومر

ذكر بعد رياض باشا مصطفى فهمى باشا صديق اللورد العزيز الذى كان
ينتظر الناس أن يقول عنه ماقال وأضعافه ذلك الصديق العزيز الذي حلف له يو
عاد الى رئاسة النظار في سنة ١٨٩٥ أن يبقى فيها مادام حيا وما بقى اللورد في مص
وقد بر في يمينه كما بر في يمينه عن رياض باشا . ولكن الناس لايحكمون لمصط
باشا حكم اللورد له في كل ماقاله عنه بل يقولون عنه انه أنكر نفسه وعرف اللور
فاستحق أن يكون سامى المقام فى عينيه لافي عيني الامة المصرية

ذكر بعده بطرس باشا فمدحه بسمة الحيلة العقلية فى حل المشكلات وه
كلمة صغيرة جداً فى جنب ما أدى من الخدم الجليلة للبلاد في حل المشكلا
بين اللورد والجناب العالى من جهة و بينه وبين قناصل الدول من جهة أخرى

ثم ذكر من بعده سعد باشا زغلول ـ بالمدح والاطراء الكثير ويسرنا أ
مدة تجربته كانت قصيرة عند جناب اللورد فصرنا نؤمل أن يدخل في مناص
الحكومة العليا كثيرون من أمثاله القادرين على العمل بعد ما كان اللورد يتهد
بأنه ان لم يؤد مدة التجربة بنجاح يضطر الى أن يسلم كل أعمال الحكومة العا
للانكليز ويقول على المصريين فيها السلام

على أن اللورد بعد أن ذكر هؤلاء الثلاثة من النظار أعرض عن ذكر ة

الاربعة الباقين فلم يشر اليهم بأقل اشارة كأنهم ليسوا نظاراً فى الحكومة ولاعمل لهم مطلقا فيها فتساءل الناس . أليس هؤلاء من صنائع اللورد أيضا . أولم يكونوا مثل مصطفى فهمى باشا يخدمون بلادهم بالسكوت عنده

أو كما قال هو « بالسكينة والهدو والابتعاد عن التعرض للغير والدخول فيما لايعنى » أوهم كانوا على غير هذه الخطة فلم يكونوا محسنين عملا . ان كان الامر كذلك فلماذا هو أبقاهم في مناصبهم مدة اثنتى عشرة سنة لا يعملون عملا يليق أن يذكروا به في مثل هذه الحفلة . تساءل الناس كثيرا عن اغضاء اللورد عن ذكرهم ونحن مثلهم لا نعرف له سببا ولعل حضرات النظار المسكوت عنهم يعرفون هذا السبب

ولقد ذهب بعضهم بهذا الصنيع من اللورد الى أكثر مما يظن حتى قالت « الجريدة » فى العدد الذي نشرت فيه خطبة اللورد تحت عنوان (تغيير في الوزارة) ما يأتى — ليس من البعيد أن يحصل تغيير فى رجال الوزارة المصرية يكون من شأنه اسناد بعض النظارات الى رجال مسئولين — كأنما في بعض النظارات اليوم رجال من الذاهلين أو المتوهمين . ونحن نعرف أنه لا أصل لهذا الخبر الآن ولكن الذى أوجد هذا القيل والقال سكوت اللورد عن بعض النظار في معرض الحصر والتعداد سكوتا مهينا أو قريبا من ذلك

وبعد ماقال عن بعض كبار الانكليز مدحا وثناء واعجابا واطراء عاد الى المصريين فذكرهم بمن الاحتلال عليهم وقال انى لا أصدق مايقال عنهم من انهم ناكرو الجميل كافرو النعم ولكن اذا صح مايقال عنهم من هذا القبيل فهو ينتظر شكران نعم الاحتلال من أولاد هؤلاء العميان

وبعد أن رمى المصريين بهذا السهم الجارح انتقل الى بيان (الغرض السياسى)

الذي زعم انه كان نصب عينيه منذ قلد وظيفته فى مصر وهو أن يسعى الى اعادة الاتفاق الفرنساوى الانكليزى الى ما كان عليه والذى كان يوصى به على الدوام ذلك السياسى الطائر الصيت (غامبتا) قائلا (اياكم وأن تقطعوا حبل المحالفة الانكليزية) كذلك هو يوصى قومه اليوم (اياكم وأن تقطعوا حبل الاتفاق الفرنساوى) كأنما اللورد الذى ينسى التاريخ يظن أن جميع الناس ينسون التاريخ مثله فينسون تلك الخشونة السياسية أو الجلافة العسكرية التى كان يقابل السير افلن بارنج بها خصومه الفرنساويين في مصر على الدوام . وأنه كان يحارب النفوذ الفرنساوى في كل مصلحة وفي كل طريق . وأنه هو الذى أنحى على العلوم والآداب واللغة الفرنساوية فى مدارس الحكومة المصرية . وكانت نبراساً للناشئين وأنه هو الذى أقفل جريدتى الاهرام والبسفور لكونهما فرنساويتين وما عادتا الى الظهور الا بأمر من لندرة وأنه وأنه الخ لا حبا في مصلحة مصر ولكن ليحل محل كل قدم فرنساوية قدما انكليزية وكل شيء فرنساوى مثله انكليزياً لتدخل سياسة الاحتلال على المصريين من كل باب.

يوهم اللورد كرومر أنه كان من أصحاب السعى والعمل لذلك الاتفاق الفرنساوى الانكليزى لمصلحة فرنسا وانكلترا معاً فى مصر مع أنه هو القائم بعد عقد هذا الاتفاق بمشروع الغاء الامتيازات الاجنبية الذى لا معنى له الآن تصير هذه الامتيازات واسطة من جملة وسائط تقرير السيادة الانكليزية المطلقة على مصر وجميع سكانها . وان هذه الكلمات الحلوة التى يفوه بها تزلفا واسترضاء واستمالة للفرنساويين لا تستر ما وراءها من المقاصد السياسية الكبرى التى هى ضد مصلحة فرنسا كما هى ضد مصلحة بقية الدول ومصر معا

* * *

أراد اللورد بعد كل ما تقدم أن يعدد منته على مصر والمصريين من الوجهتين المادية والادبية فذكر التقدم المالي اجمالا لعلمه أن الناس مجمعون على الاعتراف بفضله في بابه ثم ذكر التقدم الادبي تفصيلا فأخذ يعدد للناس فصوله قائلا — هل السخرة باقية في مصر . هل لعنة الرق لا تزال حالة عليها . أليس كل شخص فيها من الامير الى الصعلوك الحقير أمام القانون سواء . ألم ينشط الناس الى العمل والكسب . أليس صغار الناس يجنون اليوم ثمار كدهم الخ الخ .

وقد فات اللورد أن حكومة مصر كانت قد قررت قرارها في أمر العونة قبل الاحتلال وكانت سائرة في طريق التنفيذ . وأن أول معاهدة للرق كانت بينها وبين انكلترا قبل عهد اللورد بسنين . وأن النظامات القانونية التي سوت بين الامير والحقير في النهاية لم يضع أساسها في مصر اللورد ولا قومه . وأن الناس نشطوا الى الكسب والعمل وأخذوا يجنون ثمار أعمالهم من يوم بدىء برفع أثقال الضرائب الشاذة عن كواهلهم وأن ما رفع من هذه الاثقال في سنتي ٨٠ و ٨١ قد بلغ أكثر من مليوني جنيه مع أن ما رفع من هذه الاثقال في زمن الاحتلال كله لم يزد عن ٦٠٠ ألف جنيه سنويا . وأن كل شيء كان سائرا بطبيعته الى التحسين والكمال بحيث لو لم يكن في البلاد احتلال لما وقفنا عند ذلك الحال الذي تركنا عليه الخديو الاسبق . وهب أن ما وصلنا اليه في عهد ٢٥ سنة كنا مدركيه في مدى ثلاثين مثلا فالتقدم حاصل بطبيعة الوجود وسنة الارتقاء في الاعمال . ولكن الارتقاء الادبي لم يكن يبقى واقفا عند الحد السلبي الذي من علينا به اللورد كرومر فان هذه الوجوه التي ذكرها سلبية أي من لوازم رفع أشياء نشأ عن رفعها عدم وجود لوازم ماقبلها لا ايجابية كبث أنوار العلوم في البلاد وكتأهيل المصريين لان يحكموا أنفسهم بأنفسهم وهما العاملان القويان في ترقية الامم من الوجهة الادبية .

فأما مايوجد في البلاد الآن من هـذين النوعين فمن عمل الشعب لامن عمـل الاحتلال ولا من تشجيعه فالاندفاع في طريق التعلم وتحصيل المعارف للذكور والاناث ليس من عمل الاحتلال الذى لواستطاع أن يوقف هـذا التيار القوى المتدفق فى وادى النيل من رغبات أهـله لفعل . وأن الميل الشـديد الى العمل والكسب والاشتغال بالمهن الحرة وما أشبه ذلك مما يعد من قبيل تأهيل المصريين للارتقاء الذاتى انمـا جاء كله من طبيعة قوة احتكاك الاقوام النازلة في البـلاد وتشعب طرق العمل فيها لا بعمل الانكليز ولكن بواسطة قوة الامتيازات التى جعلت الاجانب من كل أمة فيها أسوة الانكليز في العمل والكسب ولواستطاع هؤلاء أن يقطعوا طريق الكسب على النزلاء سواهم ليحصروه في أنفسهم لما تأخروا طرفة عين

وهل ينسى أحد في البلاد خطة اللورد كرومر فى التعليم وسياسته العملية فى نظارة المعارف الـتى حصرها في أمرين . نشر التعليم الابتـدائى البسيط بقـدر الامكان. وقصر التعليم الوسـط والعالى مما على غرض واحـد هو أن يصنع من الناشئة المصرية القدر اللازم لوظائف الحكومة فقط

* * *

أراد اللورد بعد هذا كله أن يحي الامة المصرية بكلمتين. احـداهما موجها لاميرها المعظم . والاخرى موجهة اليها بالذات ليدلها على مستقبلها

استطرد من ذكر الارتقاء الادبى الى التعليم العالى الى ذكر الجناب العالى الخديوى فبعد أن أشار الى كل الذين شاركوه فى العمل وساعـدوه على ترقيـة البلاد من الاحياء والاموات وقـد انتظر سامعوه أن يأتى على ذكر أمير البلاد بما يليق به من التجلة والاعظام وبالقسط الذى يناسبه من الثناء والاطراء على ماجرى بواسطة

وعلى يديه من الاعمال التى تعزى الى عهد الاحتلال وكلها بأوامر من الجناب العالى وبمشاركة له محسوسة في العمل . بينما كان الناس ينتظرون أقواله عن سموه اذا هو قد خرج من ذكر نعم الاحتلال على مصر الى التهكم على أمير البلاد وتقريعه بعبارة مملوءة بالاحقاد وخالية من كل ذوق وأدب

ذكره بالحديث الذى نشرته جريدة الطان فى الشهر الماضي عن سموه وكأنه لم يعرف للجناب العالى عملا في مصر ولا شأنا يعرف به سوى ذلك الحديث

ذكر اللورد نظارة المعارف وأمله العظيم في ارتقائها وتقدمها على يدى ناظرها الجديد ومستشارها العنيد ثم قال « لا سيما وقد نزل بالامس الى الميدان حليف كفؤ عالى الشان فانى قرأت منذ برهة يسيرة حديثا جرى لسمو الخديو مع مكاتب احدى الجرائد الفرنساوية » ثم أشار الى بعض ما تضمنه ذلك الحديث وخرج منه الى ذلك التهكم المسيء بل الى ذلك الطعن الصريح الذي كاد يكون سبابا .

مضى على الجناب العالى الخديوى جالسا على عرش أجداده العظام خمسة عشر عاما وكسر يرأس مجلس النظار ويناقش اللورد ويجادله فى المشروعات ولا يظهر منها الا ما يوافق عليه وكم له من وقفة حالت دون أخطار كبار . مضى عليه ذلك الامد الطويل وهو يصدر الاوامر العلية على كل نظامات القضاء والادارة والمالية متوجا عمل المصلحين الذين يستمدون السلطة الشرعيـة منه بامضائه الشريف . مضى عليه ذلك العهد المديد وهو يعلم الناس كيف يتقدمون شأنا ويسبقون شأوا في الاعمال الزراعية والمشروعات الاقتصادية الكبرى باحياء الموات من الاراضي الواسعة واستثمارها حتى أنه أحيا جانباً من الصحراء تؤسس اليوم فيها حكومة سية شاسعة الاطراف وسيكون لعمله العظيم في استعمار ما بين مريوط ومرسى مطروح أعظم ذكري تاريخية . الخ الخ . ولكن جناب اللورد لم يكتشف وجود

الجناب العالى فى مصر الا من ذلك الحديث الذي اطلع عليه صدفة فى بعض الصحف الفرنساوية وما كاد يذكر اسمه الكريم بعد هذا الاكتشاف حتى عير بالفضائح التى تجرى بين يديه في ديوان الاوقاف قائلا انسموه قادر على أن يطهر هذه الفضائح في الديوان وان يطهره من الادران المفسدة للآداب والاخلاق

وان الذي يسمع هذا يخيل له أمران . الاول أن ديوان الاوقاف ليس الا قارورة أقذار تزكم بروائحها المنتنة خياشيم المارة عليه ومصدر فضائح لاتقف عند حد الرشوة المفسدة للاخلاق بل هناك أدران تفسد الآداب العمومية أيضا ولا ندرى ما الذي كان يمكن أن يعبر به اللورد لوحاول أن يصف مواخير الفسق والفجور بأكثر مما عبر به عن ديوان الاوقاف . والثانى أن الذي يسمع قوله هذا يتوهم أن بين رجال الاحتلال وأعمالهم وبين ديوان الاوقاف ألف حاجز حصين مانعة لهم من الاطلاع على ما يجرى في ذلك الديوان والاقتراب منه لاصلاحه ولكن هل استطاع اللورد أن يذكر لنا ماهى تلك الفضائح والادران المفسدة للاخلاق والآداب العمومية في ديوان الاوقاف العمومية بأكثر مما يشاع عن نظارة الاشغال والصحة العمومية مثلا . أليس كل مايقال عن ديوان الاوقاف أن فيه بعض موظفين يتهمون بالرشوة ؛ أليس هذا القول نفسه هو الذي يقال بأكثر منه عن تينك المصلحتين

ألم يشع قبل عشر سنوات أن أموال الاوقاف تصرف في سبيل الرسائل السياسية في أوروبا وتعطى منها المرتبات لمصطفى كامل وأضرابه . وقد اتخذ اللورد تلك الاشاعات ذريعة الى التداخل في شؤن الاوقاف

ألم يتقرر لنظارة المالية من سنة ١٨٩٥ أن تشرف بسبب تلك الاشاعات على ديوان الاوقاف وتراقب حسابات دخله وخرجه

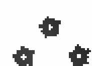
ألم يمعن النظر ويدقق البحث موظفو نظارة المالية في دفاتر الاوقاف ويقلبوا
راقها ظهراً لبطن حتى يروا مسوغا لتلك الاشاعات الباطلة فلم يجدوا شيأ . ألم
بع نظارة المالية طريقة لضبط حسابات الديوان موردا ومصرفا قد جرى عليها
مل بعد ذلك الى الآن تحت مراقبة النظارة واشرافها . ألم تنسخ الطرق القديمة
سابات الاوقاف المختلفة وتستبدل بطرق أخرى من عمل نظارة المالية قد وحدتها
در مايجيز الشرع الشريف توحيدها

فاذا كان الامر كذلك فى الديوان فما هى اذن تلك الفضائح التى يلوكها اللورد
سانه ويعلأ بها ماضغيه

ألم يمن الجناب العالى الخديوي بانتخاب خير الرجال وأنزههم لتعيينهم مديرين
وقاف العمومية تاركا لهم الحرية المطلقة في انتخاب العمال واختيارهم على طريقة
خاب الاصلح فالاصلح من كل وجه

ألم يكن المدير السابق لعموم الاوقاف ذلك الرجل العامل النزيه عدلى باشا
ن وقد أصلح ما أراد وقدر عليه في طبقة العمال وانتخب المفتشين من المشهورين
فة والنزاهة

ألم يكن المدير الخلف لهذا الديوان ذلك العالم العامل النزيه المستقل حسين
سدى باشا الذى كانت تضرب بعدله وفضله الامثال فى القضاء



فكيف سوغ اللورد لنفسه وهو رجل شريف مؤدب أن يقول عن ديوان
وقاف ما لايقال أفظع منه عن مواخير الفسق وحانات الفجور لا لسبب غير
ن الاوقاف مصلحة اسلامية صرفة

عير اللورد الجناب العالى الخديوى بأنه لم يعمل شيأ ما لاصلاح المحاكم

الشرعية كأنما هذه المحاكم قلم من أقلام الخاصة الخديوية مع أنها تابعة لنظارة الحقانية ولم يعهد أن الجناب العالى وقف في طريق اصلاح استطاعته وارادته الحكومة لهذه المحاكم . أليس أكبر اصلاح في هذا الباب يأتي من قبيل انتخاب الاشخاص الذين يتولون العمل والقضاء في المحاكم الشرعية ؟ . فهل الجناب العالى الخديوى هو الذى ينتخب القضاة والكتاب أم نظارة الحقانية ؟ هل الجناب العالى الخديوى هو واضع لائحة المحاكم الشرعية وتعليمات القضاة والعمال أم تلك النظارة ؟

هل الجناب العالى الخديوي هو الذي يضع درجات القضاة ويقرر مرتباتهم بمثل مايعطى صغار الحجاب في المحاكم الاخرى أم تلك النظارة الخاضعة لارادة المستشار الانكليزي ؟؟

ما للورد كرومر عند ماذكر الجناب الخديوي بلسانه عرته حمى الغضب وانتفضت أوداجه بالاحقاد فلفظ من فيه أقوالا لايحسن بمثله وخصوصا في مثل موقفه أن يقولها حتى دل الناس على مكنونات صدره من هذا الرحيل الذى هو فاعله بالرغم عنه لا بمطلق ارادته

ألم يكن عند اللورد أسلوب لتحية الامة في شخص أميرها المعظم ألطف من هذا الاسلوب في وداعه . وهل مثل هذه الكلمات التى لفظها فى آخر موقف له بمصر هى الوصية التى تركها للمصريين يعلمهم بها كيف يتأدبون فى مخاطبة أولياء الامور . وأى فرق بين ماقال اللورد عن الجناب العالى الخديوى وبين ما كان يكتب المقطم فى أسوأ مظاهر وقاحته عنه

لقد حيا اللورد الامة المصرية هذه التحية المؤلمة التى حصبها بها حصبا ثم حياها تحية أخري موجهة لها بالذات ليدلها بها على مستقبلها فقال . أما الاحتلال

الانكليزى فباق في مصر الى الابد كانمـا اللورد غار من (الزرقاوي) وساءه ما أصاب فى تنجيمه عنه فبزه في نتيجته. أوكانمـا هو مصرف الاقدار فنطق بما قال واثقا من جبروته وقدرته. وقدغفل عن كون المقادير لاتلق بأعنتها الى تلك التقارير فانها بيد الله القاهر فوق كل قاهر والقادر فوق عباده يصرفها كيف يشاء لا كما يشاء اللورد وغضبه وحقده.

توعد الامة ببقاء الاحتلال خالدا وقال ان بقاءه يستلزم ان تكون الكلمة العلياء له فى مصر فلا يظنن المصريون انهم محررون يوما من رق هـذا الاحتلال ولا يرجون ان يحكموا انفسهم بأنفسهـم فى حال من الاحوال. ثم انذرهـا بأنه واقف لها في انـكلترا بالمرصاد يجاهدها ويجالدها فأين هذا من دعواه أنه لم يستقل الا لأن وطأة المرض قد ثقلت عليه وان الاطباء مانعوه بتاتا من العمل حتي ينجو من مخالب الموت الذى يتهدده آنا فآنا. والقارىء لما كتب المقطم نقلا عن الوكالة الانـكليزية في بيان أسباب الاستقالة يوم ورد الخبر يخـال له أن الرجـل لم يبق بينه وبين حشرجة الموت الا أن يودع بسلام

فما له قد وقف أكثر من ثلاثين دقيقة ينزل الصواعق من فـمه على مصر والمصريين وينذرهم بأنه سيقعدفى انـكلترا لخصومه هنا وهناك بالمرصاد. ماله كان يمشى في بهو الاوبرة يمينا وشمالا كما يمشى الممثل القدير متكبراً متجبرا مختالا غضوبا وصوته فى بعض المواضيع يكاد يسقط العرش على الفرش

ماله وهو ينـادي بأن الحركة الفكرية الموجودة فى مصر الا ن مفتعلة لاتستحق شيئا من العناية والاحترام — ينـاشـد كل الاوربيين في مصر ويدعوهم الى قوة الاتحاد ليقاوموا هذه الحركة ويخفوا صوتها من الوجود

ماله وهو يظهر الثقة التامة بخلفه السير غورست يكاد يقيم نفسه عليه وصيا

يحذره كل الحذر أن يحيد عن خطته يمنة أويسرة كائما خلفه سيبقى كواحد من النظار المصريين يحركه كالآلة بين يديه وهو فى انكلترا كما كان يحركهم وهو فى مصر

ما كان أغنى اللورد عن كل هذا التفاعل الغضبي الذى بدا على كل كلمة قالها في خطبته حتى قد انقلب عن موقفه ولسان حاله يقول

وتجلدي للشامتين أريهمو — انى لريب الدهر لا أتضعضع

فسبحان الذى لايزول ملكه سبحان العلى القهار مقلب الليل والنهار

(المؤيد فى ٢٤ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ـ ٧ مايو سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٥٧)

الرأي العام المصرى

وخطبة اللورد كرومر

ورد على ادارة المؤيد كثير من الرسائل البرقية والبريدية من انحاء القطر المصرى مستحسنة لرد المؤيد على خطبة جناب اللورد كرومر وباستقصائها يطول المقام فنقتصر منها على ما يأتي

هدية من أحمد نجيب الجواهرجي

للمؤيد

تذكارا لمقالة ٧ مايو سنة ٩٠٧

« هذه الاسطر الثلاثة قد كتبت على دواة من الفضة بقلم ذهبي وبجانبها أقلامها وختامتها ورمليتها ونشافتها كلها من الفضة المموهة بالذهب »

فى صباح هـذا اليوم زارنا حضرة الفاضل اسماعيل أفندى كامل شريك حضرة عزتلو السرى الوجيه أحمد بك نجيب الجواهرى الشهير ومعه علبة كبيرة من الحرير المخمل وبداخل هذه العلبة دواة زوجية ذات أدوات كاملة من الفضة المموهة بالذهب على ما وصفنا ومعها الكتاب الآتي

مصر في ١٢ مايو سنة ٩٠٧

سعادتلو أفندم

ان ماأظهرتموه من صدق الوطنية والاخلاص فى خدمة الامة بمقالتكم الشائقة رداً على تلك الخطبة المشهورة قد جمل لكم المقام الاعلى في نظر الامة وبصفتى أحدأفرادها وددت أن أشترك مع الامة في اظهار عواطفها نحوكم فأقدم لسعادتكم هذه الدواة وأدوات الكتابة تذ كاراً لدفاعكم الشريف ولوأنها قليلة بالنسبة لمقامكم السامى ولكن ثقتى بكرم أخلاقكم جعل لى العشم فى قبولها واستعمالها لمحرراتكم الشريفة

وكان بودى أن أتشرف بتقديمها لسعادتكم شخصيا ولكن لحضورى في محل أشغالى متأخراً لكثرة أشغالى الخارجية قد أنبت عنى حضرة اسماعيل أفندى كامل ليقوم بأداء هذا الواجب المقدس وتفضلوا بقبول فائق احترامى ومعذرتى

أحمد نجيب جواهرجي

(المؤيد في ٢٩ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ـ ١٢ مايو سنة ١٩٠٧عدد ٥١٦١)

صحيفة سوداء هنا بيضاء هناك

لذات كبار جليل وشاعر من شعراء اسماعيل

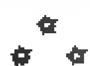
أيامكم أم عهد اسماعيلا ... أم أنت فرعون يسوس النيلا
أم حاكم فى أرض مصر بأمره ... لاسائلا أبداً ولا مسؤولا
يامالكا رق الرقاب بيأسه ... هلا اتخذت الى القلوب سبيلا
لما رحلت عن البلاد تشهدت ... فكأنك الداء العياء رحيلا
أوسعتنا يوم الوداع اهانة ... أدب لعمرك لايصيب مثيلا
هلا بدا لك أن تجامل بعد ما ... صاغ الرئيس لك الثناء اكليلا
أنظر الى أدب الرئيس ولطفه ... تجد الرئيس مهذبا ونبيلا

***

في (ملعب) للمضحكات مشيد ... مثلت فيه المبكيات فصولا
شهد (الحسين) عليه لعن أصوله ... وتصدر (الاعمى) به تطفيلا

الذي زعم انه كان نصب عينيه منذ قلد وظيفته فى مصر وهو أن يسعى الى اعادة الاتفاق الفرنساوى الانكليزى الى ما كان عليه والذى كان يوصي به على الدوام ذلك السياسى الطائر الصيت (غامبتا) قائلا (اياكم وأن تقطعوا حبل المحالفة الانكليزية) كذلك هو يوصى قومه اليوم (اياكم وأن تقطعوا حبل الاتفاق الفرنساوى) كأنما اللورد الذى ينسى التاريخ يظن أن جميع الناس ينسون التاريخ مثله فينسون تلك الخشونة السياسية أو الجلافة العسكرية التي كان يقابل السير افان بارنج بها خصومه الفرنساويين في مصر على الدوام . وأنه كان يحارب النفوذ الفرنساوى في كل مصلحة وفي كل طريق . وأنه هو الذى أنحى على العلوم والآداب واللغة الفرنساوية فى مدارس الحكومة المصرية . وكانت نبراساً للناشئين وأنه هو الذى أقفل جريدتى الاهرام والبسفور لكونهما فرنساويتين وما عادتا الى الظهور الا بأمر من لندرة وأنه وأنه الخ لا حبا في مصلحة مصر ولكن ليحل محل كل قدم فرنساوية قدما انكليزية وكل شيء فرنساوى مثله انكليزياً لتدخل سياسة الاحتلال على المصريين من كل باب.

يوهم اللورد كرومر أنه كان من أصحاب السعي والعمل لذلك الاتفاق الفرنساوى الانكليزى لمصلحة فرنسا وانكلترا معاً فى مصر مع أنه هو القائم بعد عقد هذا الاتفاق بمشروع الغاء الامتيازات الاجنبية الذى لا معنى له الا أن تصير هذه الامتيازات واسطة من جملة وسائط تقرير السيادة الانكليزية المطلقة على مصر وجميع سكانها . وان هذه الكلمات الحلوة التى يفوه بها تزلفا واسترضاء واستمالة للفرنساويين لا تستر ما وراءها من المقاصد السياسية الكبرى التى هى ضد مصلحة فرنسا كما هى ضد مصلحة بقية الدول ومصر معا



أراد اللورد بعد كل ما تقدم أن يعدد مننه على مصر والمصريين من الوجهتين المادية والادبيـة فذكر التقدم المالى اجمالا لعلمه أن الناس مجمعون على الاعتراف بفضله فى بابه ثم ذكر التقـدم الادبى تفصيلا فأخذ يعـدد للناس فصوله قائلا — هل السخرة باقية فى مصر . هل لعنة الرق لا تزال حالة عليها . أليس كل شخص فيها من الامير الى الصعلوك الحقير أمام القانون سواء . ألم ينشط الناس الى العمل والكسب . أليس صغار الناس يجنون اليوم ثمار كدهم الخ الخ .

وقد فات اللورد أن حكومة مصر كانت قد قررت قرارها في أمر العونة قبـل الاحتلال وكانت سائرة في طريق التنفيذ . وأن أول معاهدة للرق كانت بينها وبين انكلترا قبـل عهد اللورد بسنين . وأن النظامات القانونية التى سوت بين الامير والحقير فى النهاية لم يضع أساسها في مصر اللورد ولا قومه . وأن الناس نشطوا الى الكسب والعمل وأخذوا يجنون ثمار أعمالهم من يوم بدىء برفع أثقال الضرائب الشاذة عن كواهلهم وأن ما رفع من هذه الاثقال فى سنتى ٨٠ و٨١ قد بلغ أكثر من مليونى جنيه مع أن ما رفع من هذه الاثقال فى زمن الاحتلال كله لم يزد عن ٦٠٠ ألف جنيه سنويا . وأن كل شىء كان سائرا بطبيعته الى التحسين والكمال بحيث لو لم يكن في البلاد احتلال لما وقفنا عند ذلك الحال الذى تركنا عليه الخديو الاسبق . وهب أن ما وصلنا اليه في عهد ٢٥ سنة كنا مدركيه فى مدى ثلاثين مثلا فالتقدم حاصل بطبيعة الوجود وسنة الارتقاء في الاعمـال . ولكن الارتقاء الادبى لم يكن يبق واقفا عند الحد السلبي الذى من علينا به اللورد كرومر فان هذه الوجوه التى ذكرها سلبية أى من لوازم رفع أشياء نشأ عن رفعها عدم وجود لوازم ما قبلها لا ايجابيـة كبث أنوار العـلوم فى البلاد وكتأهيـل المصريين لان يحكموا أنفسهم بأنفسهم وهما العاملان القويان في ترقية الامم من الوجهة الادبية .

فأما مايوجد في البلاد الآن من هذين النوعين فمن عمل الشعب لامن عمل الاحتلال ولا من تشجيعه فالاندفاع في طريق التعلم وتحصيل المعارف للذكور والاناث ليس من عمل الاحتلال الذى لواستطاع أن يوقف هذا التيار القوى المتدفق فى وادى النيل من رغبات أهله لفعل . وأن الميل الشديد الى العمل والكسب والاشتغال بالمهن الحرة وما أشبه ذلك مما يعد من قبيل تأهيل المصريين للارتقاء الذاتى انما جاء كله من طبيعة قوة احتكاك الاقوام النازلة في البلاد وتشعب طرق العمل فيها لا بعمل الانكليز ولكن بواسطة قوة الامتيازات التى جعلت الاجانب من كل أمة فيها أسوة الانكليز في العمل والكسب ولو استطاع هؤلاء أن يقطعوا طريق الكسب على النزلاء سواهم ليحصروه في أنفسهم لما تأخروا طرفة عين

وهل ينسى أحد في البلاد خطة اللورد كرومر فى التعليم وسياسته العملية فى نظارة المعارف التى حصرها في أمرين . نشر التعليم الابتدائى البسيط بقدر الامكان. وقصر التعليم الوسط والعالى معا على غرض واحد هو أن يصنع من الناشئة المصرية القدر اللازم لوظائف الحكومة فقط

***

أراد اللورد بعد هذا كله أن يحيي الامة المصرية بكلمتين. احداهما موجهة لاميرها المعظم . والاخرى موجهة اليها بالذات ليدلها على مستقبلها

استطرد من ذكر الارتقاء الادبى الى التعليم العالى الى ذكر الجناب العالى الخديوى فبعد أن أشار الى كل الذين شاركوه فى العمل وساعدوه على ترقية البلاد من الاحياء والاموات وقد انتظر سامعوه أن يأتى على ذكر أمير البلاد بما يليق له من التجلة والاعظام وبالقسط الذى يناسبه من الثناء والاطراء على ماجرى بواسطته

وعلى يديه من الاعمال التى تعزى الى عهد الاحتلال وكلها بأوامر من الجناب العالى ومشاركة له محسوسة في العمل . بينما كان الناس ينتظرون أقواله عن سموه اذا هو قد خرج من ذكر نعم الاحتلال على مصر الى التهكم على أمير البلاد وتقريعه بعبارة مملوءة بالاحقاد وخالية من كل ذوق وأدب

ذكره بالحديث الذى نشرته جريدة الطان فى الشهر الماضي عن سموه وكأنه لم يعرف للجناب العالى عملا في مصر ولا شأنا يعرف به سوى ذلك الحديث

ذكر اللورد نظارة المعارف وأمله العظيم في ارتقائها وتقدمها على يدى ناظرها الجديد ومستشارها العنيد ثم قال « لا سيما وقد نزل بالامس الى الميدان حليف كفؤ عالى الشان فانى قرأت منذ برهة يسيرة حديثا جرى لسمو الخديو مع مكاتب احدى الجرائد الفرنساوية » ثم أشار الى بعض ما تضمنه ذلك الحديث وخرج منه الى ذلك التهكم المسيء بل الى ذلك الطعن الصريح الذي كاد يكون سبابا .

مضى على الجناب العالى الخديوى جالسا على عرش أجداده العظام خمسة عشر عاما وكسر يرأس مجلس النظار ويناقش اللورد ويجادله فى المشروعات ولا يظهر منها الا ما يوافق عليه وكم له من وقفة حالت دون أخطار كبار . مضى عليه ذلك الامد الطويل وهو يصدر الاوامر العلية على كل نظامات القضاء والادارة والمالية متوجا عمل المصلحين الذين يستمدون السلطة الشرعيـة منه بامضائه الشريف . مضى عليه ذلك العهد المديد وهو يعلم الناس كيف يتقدمون شأنا ويسبقون شأوا في الاعمال الزراعية والمشروعات الاقتصادية الكبرى باحياء الموات من الاراضى الواسـعة واستثمارها حتى أنه أحيا جانباً من الصحراء تؤسس اليوم فيها حكومة محلية شاسعة الاطراف وسيكون لعمله العظيم في استعمار ما بين مريوط ومرسى مطروح أعظم ذكري تاريخية . الخ الخ . ولكن جناب اللورد لم يكتشف وجود

الجناب العالى فى مصر الا من ذلك الحديث الذي اطلع عليه صدفة فى بعض
الصحف الفرنساوية وما كاد يذكر اسمه الكريم بعد هذا الاكتشاف حتى عير
بالفضائح التى تجرى بين يديه في ديوان الاوقاف قائلا انسموه قادرعلى أن يبطل
هذه الفضائح في الديوان وان يطهره من الادران المفسدة للآداب والاخلاق

وان الذي يسمع هذا يخيل له أمران . الاول أن ديوان الاوقاف ليس ا
قارورة أقذار تزكم بروائحها المنتنة خياشيم المارة عليه ومصدر فضائح لاتقف ع
حد الرشوة المفسدة للاخلاق بل هناك أدران تفسد الآداب العمومية أيضا
ولا ندرى ما الذي كان يمكن أن يعبر به اللورد لوحاول أن يصف مواخير الفسق
والفجور بأكثر مما عبر به عن ديوان الاوقاف . والثانى أن الذي يسمع قوله هذ
يتوهم أن بين رجال الاحتلال وأعمالهم وبين ديوان الاوقاف ألف حاجز حصير
مانعة لهم من الاطلاع على ما يجرى في ذلك الديوان والاقتراب منه لاصلاحه
ولكن هل استطاع اللورد أن يذكر لنا ماهى تلك الفضائح والادران المفسد
للاخلاق والآداب العمومية في ديوان الاوقاف العمومية بأكثر مما يشاع ع
نظارة الاشغال والصحة العمومية مثلا . أليس كل مايقال عن ديوان الاوقاف
أن فيه بعض موظفين يتهمون بالرشوة ؛ أليس هذا القول نفسه هو الذي قي
ويقال بأكثر منه عن تينك المصلحتين

ألم يشع قبل عشر سنوات أن أموال الاوقاف تصرف في سبيل الرسالا
السياسية في أوروبا وتعطى منها المرتبات لمصطفى كامل وأضرابه . وقد اتخذ اللور
تلك الاشاعات ذريعة الى التداخل في شؤن الاوقاف

ألم يتقرر لنظارة المالية من سنة ١٨٩٥ أن تشرف بسبب تلك الاشاعات؟
ديوان الاوقاف وتراقب حسابات دخله وخرجه

ألم يمعن النظر ويدقق البحث موظفو نظارة المالية في دفاتر الاوقاف ويقلبوا
راقها ظهراً لبطن حتى يروا مسوغا لتلك الاشاعات الباطلة فلم يجدوا شيأ . ألم
ع نظارة المالية طريقة لضبط حسابات الديوان موردا ومصرفا قد جرى عليها
مل بعد ذلك الى الآن تحت مراقبة النظارة واشرافها. ألم تنسخ الطرق القديمة
سابات الاوقاف المختلفة وتستبدل بطرق أخرى من عمل نظارة المالية قد وحدتها
ر مايجيز الشرع الشريف توحيدها

فاذا كان الامر كذلك فى الديوان فما هى اذن تلك الفضائح التى يلوكها اللورد
انه ويملأ بها ماضغيه

ألم يمن الجناب العالى الخديوي بانتخاب خير الرجال وأنزههم لتعيينهم مديرين
رقاف العمومية تاركا لهم الحرية المطلقة في انتخاب العمال واختيارهم على طريقة
خاب الاصلح فالاصلح من كل وجه

ألم يكن المدير السابق لعموم الاوقاف ذلك الرجل العامل النزيه عدلى باشا
ن وقد أصلح ما أراد وقدر عليه في طبقة العمال وانتخب المفتشين من المشهورين
فة والنزاهة

ألم يكن المدير الخلف لهذا الديوان ذلك العالم العامل النزيه المستقل حسين
دى باشا الذى كانت تضرب بعدله وفضله الامثال فى القضاء

***

فكيف سوغ اللورد لنفسه وهو رجل شريف مؤدب أن يقول عن ديوان
رقاف ما لا يقال أفظع منه عن مواخير الفسق وحانات الفجور لا لسبب غير
ن الاوقاف مصلحة اسلامية صرفة

عير اللورد الجناب العالى الخديوى بأنه لم يعمل شيأ ما لاصلاح المحاكم

الشرعية كأنما هذه المحاكم قلم من أقلام الخاصة الخديوية مع أنها تابعة لنظارة الحقانية ولم يعهد أن الجناب العالى وقف في طريق اصلاح استطاعته وارادته الحكومة لهذه المحاكم .أليس أكبر اصلاح فيهذا الباب يأتى من قبيل انتخاب الاشخاص الذين يتولون العمل والقضاء في المحاكم الشرعية ؟ . فهل الجناب العالى الخديوى هو الذى ينتخب القضاة والكتاب أم نظارة الحقانية ؟ هل الجناب العالى الخديوى هو واضع لائحة المحاكم الشرعية وتعليمات القضاة والعمال أم تلك النظارة ؟

هل الجناب العالى الخديوي هو الذي يضع درجات القضاة ويقرر مرتباتهم بمثل مايعطى صغار الحجاب في المحاكم الاخرى أم تلك النظارة الخاضعة لارادة المستشار الانكليزي ؟؟

ما للورد كرومر عند ماذكر الجناب الخديوي بلسانه عرته حمى الغضب وانتفضت أوداجه بالاحقاد فلفظ من فيه أقوالا لايحسن بمثله وخصوصا فيمثل موقفه أن يقولها حتى دل الناس على مكنونات صدره من هذا الرحيل الذىهو فاعله بالرغم عنه لا بمطلق ارادته

ألم يكن عند اللورد أسلوب لتحية الامة في شخص أميرها المعظم ألطف من هذا الاسلوب في وداعه . وهل مثل هذه الكلمات التى لفظها فى آخر موقف له بمصر هى الوصية التى تركها للمصريين يعلمهم بها كيف يتأدبون فى مخاطبة أولياء الامور . وأى فرق بين ماقال اللورد عن الجناب العالى الخديوى وبين ما كان يكتب المقطم فى أسوأ مظاهر وقاحته عنه

لقد حيا اللورد الامة المصرية هذه التحية المؤلمة التى حصبها بها حصبا ثم حياها تحية أخري موجهة لها بالذات ليدلها بها على مستقبلها فقال . أما الاحتلال

الانكليزى فباق في مصر الى الابد كانما اللورد غار من (الزرقاوي) وساءه ما أصاب فى تنجيمه عنه فبزه في نتيجته . أو كانما هو مصرف الاقدار فنطق بما قال واثقا من جبروته وقدرته . وقد غفل عن كون المقادير لا تلق بأعنتها الى تلك التقارير فانها بيد الله القاهر فوق كل قاهر والقادر فوق عباده يصرفها كيف يشاء لا كما يشاء اللورد وغضبه وحقده .

توعد الامة ببقاء الاحتلال خالدا وقال ان بقاءه يستلزم ان تكون الكلمة العلياء له فى مصر فلا يظنن المصريون انهم محررون يوما من رق هـذا الاحتلال ولا يرجون ان يحكموا انفسهم بأنفسهم فى حال من الاحوال . ثم انذرهـا بأنه واقف لها في انـكلترا بالمرصاد يجاهدها ويجالدها فأين هذا من دعواه أنه لم يستقل الا لأن وطأة المرض قد ثقلت عليه وان الاطباء مانعوه بتاتا من العمل حتى ينجو من مخالب الموت الذى يتهدده آنا فآنا . والقارىء لما كتب المقطم نقلا عن الوكالة الانـكليزية في بيان أسباب الاستقالة يوم ورد الخبر يخال له أن الرجـل لم يبق بينه وبين حشرجة الموت الا أن يودع بسلام

فما له قد وقف أكثر من ثلاثين دقيقة ينزل الصواعق من فمـه على مصر والمصريين وينذرهم بأنه سيقعد فى انـكلترا لخصومه هنا وهناك بالمرصاد . ماله كان يمشى في بهو الاوبرة يمينا وشمالا كما يمشى الممثل القدير متكبرا متجبرا مختالا غضوبا رصوته فى بعض المواضيع يكاد يسقط العرش على الفرش

ماله وهو ينـادي بأن الحركة الفكرية الموجودة فى مصر الا ن مفتعلة لا تستحق شيئا من العناية والاحترام — يناشـد كل الاوربيين في مصر ويدعوهم الى قوة الاتحاد ليقاوموا هذه الحركة ويخفوا صوتها من الوجود

ماله وهو يظهر الثقة التامة بخلفه السير غورست يكاد يقيم نفسه عليه وصيا

يحذره كل الحذر أن يحيد عن خطته يمنة أويسرة كانما خلفه سيبقى كواحد من النظار المصريين يحركه كالآلة بين يديه وهو فى انكلترا كما كان يحركهم وهو فى مصر

ما كان أغنى اللورد عن كل هذا التفاعل الغضبي الذى بدا على كل كلمة قالها في خطبته حتى قد انقلب عن موقفه ولسان حاله يقول

وتجلدي للشامتين أريهمو ... انى لريب الدهر لا أتضعضع

فسبحان الذى لا يزول ملكه سبحان العلى القهار مقلب الليل والنهار

(المؤيد فى ٢٤ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ـ ٧ مايو سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٥٧)

الرأي العام المصرى

وخطبة اللورد كرومر

ورد على ادارة المؤيد كثير من الرسائل البرقية والبريدية من انحاء القطر المصرى مستحسنة لرد المؤيد على خطبة جناب اللورد كرومر وباستقصائها يطول المقام فنقتصر منها على ما يأتي

هدية من أحمد نجيب الجواهرجي

للمؤيد

تذكارا لمقالة ٧ مايو سنة ٩٠٧

« هذه الاسطر الثلاثة قد كتبت على دواة من الفضة بقلم ذهبي وبجانبها أقلامها وختامتها ورمليتها ونشافتها كلها من الفضة المموهة بالذهب »

فى صباح هذا اليوم زارنا حضرة الفاضل اسماعيل أفندى كامل شريك حضرة عزتلو السرى الوجيه أحمد بك نجيب الجواهرى الشهير ومعه علبة كبيرة من الحرير المخمل وبداخل هذه العلبة دواة زوجية ذات أدوات كاملة من الفضة المموهة بالذهب على ما وصفنا ومعها الكتاب الآتى

مصر في ١٢ مايو سنة ٩٠٧

سعادتلو أفندم

ان ماأظهرتموه من صدق الوطنية والاخلاص فى خدمة الامة بمقالتكم الشائقة رداً على تلك الخطبة المشهورة قد جعل لكم المقام الاعلى في نظر الامة وبصفتى أحدأفرادها وددت أن أشترك مع الامة في اظهار عواطفها نحوكم فأقدم لسعادتكم هذه الدواة وأدوات الكتابة تذ كاراً لدفاعكم الشريف ولوأنها قليلة بالنسبة لمقامكم السامى ولكن ثقتى بكرم أخلاقكم جعل لى العشم فى قبولها واستعمالها لمحرراتكم الشريفة

وكان بودى أن أتشرف بتقديمها لسعادتكم شخصيا ولكن لحضورى في محل أشغالى متأخراً لكثرة أشغالى الخارجية قد أنبت عنى حضرة اسماعيل أفندى كامل ليقوم بأداء هذا الواجب المقدس وتفضلوا بقبول فائق احترامى ومعذرتى

أحمد نجيب جواهرجي

(المؤيد في ٢٩ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ـ ١٢ مايو سنة ١٩٠٧عدد ٥١٦١)

صحيفة سوداء هنا بيضاء هناك

لذات كابر جليل وشاعر من شعراء اسماعيل

أيامكم أم عهد اسماعيلا ... أم أنت فرعون يسوس النيلا
أم حاكم فى أرض مصر بأمره ... لاسائلا أبداً ولا مسؤولا
يامالكا رق الرقاب بيأسه ... هلا اتخذت الى القلوب سبيلا
لما رحلت عن البلاد تشهدت ... فكأنك الداء العياء رحيلا
أوسعتنا يوم الوداع اهانة ... أدب لعمرك لايصيب مثيلا
هلا بدا لك أن تجامل بعد ما ... صاغ الرئيس لك الثنا اكليلا
أنظر الى أدب الرئيس ولطفه ... تجد الرئيس مهذبا ونبيلا

***

في (ملعب) للمضحكات مشيد ... مثلت فيه المبكيات فصولا
شهد (الحسين) عليه لعن أصوله ... وتصدر (الاعمى) به تطفيلا

جبن أقل وحط من قدريهما … والمرء ان يجبن يمش مرذولا
لما ذكرت به البلاد وأهلها … مثلت دور مماتها تمثيلا
أنذرتنا رقا يدوم وذلة … تبقى وحالا لاترى تحويلا
أحسبت ان الله دونك قدرة … لايملك التغيير والتبديلا
الله يحكم في الملوك ولم تكن … دول تنازعه القوى لتديلا
فرعون قبلك كان أعظم صولة … وأعز بين العالمين قبيلا
اليوم أخلفت الوعود حكومة … كنا نظن عهودها الانجيلا
دخلت على حكم الوداد وشرعه … مصراً فكانت كالسلال دخولا
هدمت معالمها وهدت ركنها … وأضاعت استقلالها المأمولا
قالوا جلبت لنا الرفاهة والغنى … جحدوا الاله وصنعه والنيلا
وحياة مصر على زمان محمد … ونهوضها من عهد اسماعيلا
ومدارسا يبنى البلاد حوافلا … حظ الفقير بهن كان جزيلا
ومعاقلاً لاتنمحى آثارها … وجيوش ابراهيم والاسطولا
وجداولا بين الضياع جواريا … تذر اليباب مزارعا وحقولا
ومدائنا قد خططت وطرائقا … كانت حزونا فاستحلن سهولا
والقطن مزروعا بفضل محمد … في مصر محلوجا بها مغزولا
قد مد اسماعيل قبلك للورى … ظل الحضارة في البلاد ظليلا
ان قيس في جود وفي سرف الى … ماتنفقون اليوم عد بخيلا
أو كان قد صرع المفتش مرة … فلكم صرعت بدنشواي قتيلا
لاتذكر الكرباج في أيامه … من بعد ما أنبت فيه ذيولا
وامدح قصوراً شادهن بوازخا … قد أصبحت مأوى لكم ومقيلا
* لو أنه لم يبنها لتخذتمو … منها المضارب والخيام بديلا
كم منة موهومة أتبعتها … منا على الفطن الخبير ثقيلا
في كل تقرير تقول خلقتكم … أفهل ترى تقريرك التنزيلا
هل من نداك على المدارس أنها … تذر العلوم وتأخذ «الفوتبولا»

أم من صيانتك القضاء بمصر أن — تأتي بقاضي دنشواي وكيلا
أم هل يعد لك الاضاعة منة — جيش كجيش الهند بات ذليلا
أنظر الى فتيانه ماشأنهم — أوليس شأنا في الجيوش ضئيلا
حرمتهم أن ينالوا رتب العلي — ورفعت قومك فوقهم تفضيلا
فاذا تطلعت الجيوش وأملت — مستقبلا لم يملكوا التأميلا
من بعد مازفوا لادورد العلى — فتحا عريضاً في البلاد طويلا

***

لو كنت من حمر الثياب عبدتكم — من دون عيسى محسنا ومنيلا
أو كنت بعض الانكليز قبلتكم — ملكا أقطع كفه تقبيلا
أو كنت عضوا في الكلوب ملأته — أسفا لفرقتكم بكا وعويلا
أو كنت قسيساً يهيم مبشرا — رتلت آية مدحكم ترتيلا
أو كنت صرافا بلندن دائنا — أعطيتكم عن طيبة تحويلا
أو كنت تيمسكم ملأت صحائفي — مدحا يردد في الورى موصولا
أو كنت في مصر نزيلا جاحدا — سبحت باسمك بكرة وأصيلا
أو كنت (سريونا) حلفت بانكم — أنتم حبوتم بالقنال الجيلا
ما كان من عقباته وصعابه — ذللتموه بعزمكم تذليلا
عبد الفرنج وأنت تعلم عهدهم — لايبخسون المحسنين فتيلا
فارحل بحفظ الله جل صنيعه — مستعفيا ان شئت أو معزولا
واحمل بساقك ربطة في لندن — واخلف هناك غراي أو كيبيلا
أوشاطر الملك العظيم بلاده — وسس الممالك عرضها والطولا
انا تمنينا على الله المنى — والله كان بنيلهن كفيلا
من سب دين محمد فمحمد — متمكن عند الاله رسولا

كلمة في الرق

في الاسلام

دهشنا كما دهش غيرنا من المسلمين العارفين بدينهم لما قاله جناب اللورد كرومر في الاسلام . ولو كان جناب اللورد من عامة الناس لما بالينا بقوله ولكن لما لجنابه من المنزلة السامية والعقل الصائب والعلم الواسع (وان كان ذلك فى السياسية لافى الدين) اهتم المسلمون بقاله وأخذوا يبينون مافيه من الخطأ والبعد عن الحقيقة . وقد رأيت أن أضم الى ماقالوه كلمة أخرى في الرق فى الاسلام لان خطأ جنابه في هذا الموضوع أقل ظهوراً من خطئه في غيره من مسائل الدين الاسلامى

ولا أريد أن أبين فى هذه المقالة الفرق بين الرق عند المسلمين وبينه عند غيرهم ولا ماأتت به الشريعة الاسلامية من الاوامر القاضية بالاحسان الى الارقاء واكرامهم وعدم تكليفهم بما لايطيقون والمساواة بيننا و بينهم في نظر الدين واطعامهم مما نطعم والباسهم مما نلبس وتزويجهم وعدم دعائهم بما يسيؤهم من الالقاب واعتبارهم انهم اخوان لنا الى غير ذلك مما جاء به القرآن الشريف والسنة النبوية حتى صاروا فى حالة فى الشرق لاتخطر على بال أهل الغرب وبلغوا أعلى مناصب الرئاسة وكانت كلمتهم نافذة وأمرهم مسموعا حتى هابتهم الاحرار وخشوا بأسهم . ومن عرف أخبار مثل بلال المؤذن واحترام الرسول صلى الله عليه وسلم له وطالع تاريخ المماليك بمصر واطلع على حال الخصيان (الاغوات) في الدول الاسلامية تحقق له صدق ماأجملناه هنا وأوضحه غيرنا بما نشر حديثاً في الجرائد

ولا أريد أن أبين أن جل ماوقع فى البلاد الاسلامية من الاسترقاق واختطاف الناس للتجارة فيها والتسرى بالفتيات المختطفات الى غير ذلك مما هو معروف كان مضاداً لمبادئ الاسلام الشريفة وان كانت معاملتهم بخلاف مايتوهمه الغربيون بسبب ماعهدوه في بلادهم

وكذلك لاأريد أن أبين أن الاسترقاق كان فشياً في جميع الامم غير الاسلامية من قبل الاسلام ومن بعده وأن الارقاء كانت تعامل عند تلك الامم معاملة الحيوانات

اليهم و بقساوة تقشعر منها الجلود وتنفطر منها القلوب

كل ذلك لاأريد أن أبينه هنا لان غيرنا قد كفانا مؤنة البحث فى هذه المسائل وانما الذى أريد أن أبينه هو أن الاسلام هو الشريعة الوحيدة التى آتت من بين الشرائع المعروفة لنا لتبطل الرق من العالم وأن الاوروبيين لايزالون الى الآن يبيحون ضربا من ضروب الاسترقاق وهو معمول به قانونا في بلادهم : فأقول — جاء الاسلام والناس مستعبدون فى جميع البقاع على أشنع الاحوال فرق لحالهم كما هو شأنه لجميع الضعفاء وأخذ في تحريرهم وذلك بوضع القواعد الآتية :—

(١) افهام المسلمين أن فك الرقاب من أعظم القربات عند الله قال تعالى ٩٠:٧-١٨ (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة) الى قوله (ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة) وقال ٢ : ١٧٧ (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلوة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)

(٢) جعل عتق الرقاب كفارة لسيئات كثيرة مذكورة فى القرآن الشريف و بعضها كثير الوقوع فاش بين الناس كالحنث فى الايمان قال تعالى ٥ : ٨٩ (لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أوكسوتهم أوتحرير رقبة)

(٣) أمر المسلمين بعتق من يريد ذلك من الارقاء اذا دفع لسيده قدرا من المال يتفقون عليه وأوجب عليهم اعانته وامداده بالمال حتى يحصل على حريته قال تعالى ٢٤:٣٣ (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم)

(٤) أوجب على أولياء الامر أن يأخذوا مالا من الاغنياء (أى الزكاة) ليصرف بعضه في تحرير الرقاب اما باعانة المكاتبين السابق ذكرهم أو بشراء أرقاء واطلاق سبيلهم

الجناب العالى فى مصر الا من ذلك الحديث الذي اطلع عليه صدفة فى بعض
الصحف الفرنساوية وما كاد يذكر اسمه الكريم بعد هذا الا كتشاف حتى عير
بالفضائح التى تجرى بين يديه في ديوان الاوقاف قائلا انسموه قادر على أن يبطل
هذه الفضائح في الديوان وان يطهره من الادران المفسدة للآداب والاخلاق

وان الذي يسمع هذا يخيل له أمران . الاول أن ديوان الاوقاف ليس الا
قارورة أقذار تزكم بروائحها المنتنة خياشيم المارة عليه ومصدر فضائح لاتقف عند
حد الرشوة المفسدة للاخلاق بل هناك أدران تفسد الآداب العمومية أيضا
ولا ندرى ما الذي كان يمكن أن يعبر به اللورد لوحاول أن يصف مواخير الفسق
والفجور بأ كثر مما عبر به عن ديوان الاوقاف . والثانى أن الذي يسمع قوله هذ
يتوهم أن بين رجال الاحتلال وأعمالهم وبين ديوان الاوقاف ألف حاجز حصين
مانعة لهم من الاطلاع على ما يجرى في ذلك الديوان والاقتراب منه لاصلاحه

ولكن هل استطاع اللورد أن يذكر لنا ماهى تلك الفضائح والادران المفسدة
للاخلاق والآداب العمومية في ديوان الاوقاف العمومية بأ كثر مما يشاع عن
نظارة الاشغال والصحة العمومية مثلا . أليس كل مايقال عن ديوان الاوقاف
أن فيه بعض موظفين يتهمون بالرشوة ؛ أليس هذا القول نفسه هو الذي قيل
ويقال بأ كثر منه عن تينك المصلحتين

ألم يشع قبل عشر سنوات أن أموال الاوقاف تصرف في سبيل الرسالات
السياسية في أوروبا وتعطى منها المرتبات لمصطفى كامل وأضرابه . وقد اتخذ اللور
تلك الاشاعات ذريعة الى التداخل في شؤن الاوقاف

ألم يتقرر لنظارة المالية من سنة ١٨٩٥ أن تشرف بسبب تلك الاشاعات على
ديوان الاوقاف وتراقب حسابات دخله وخرجه

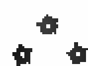
ألم يمعن النظر ويدقق البحث موظفو نظارة المالية في دفاتر الاوقاف ويقلبوا أوراقها ظهراً لبطن حتى يروا مسوغا لتلك الاشاعات الباطلة فلم يجدوا شيأ . ألم تضع نظارة المالية طريقة لضبط حسابات الديوان موردا ومصرفا قد جرى عليها العمل بعد ذلك الى الآن تحت مراقبة النظارة واشرافها . ألم تنسخ الطرق القديمة لحسابات الاوقاف المختلفة وتستبدل بطرق أخرى من عمل نظارة المالية قد وحدتها بقدر مايجيز الشرع الشريف توحيدها

فاذا كان الامر كذلك فى الديوان فما هى اذن تلك الفضائح التي يلوكها اللورد بلسانه ويملأ بها ماضغيه

ألم يعن الجناب العالى الخديوي بانتخاب خير الرجال وأنزههم لتعيينهم مديرين للاوقاف العمومية تاركا لهم الحرية المطلقة في انتخاب العمال واختيارهم على طريقة انتخاب الاصلح فالاصلح من كل وجه

ألم يكن المدير السابق لعموم الاوقاف ذلك الرجل العامل النزيه عدلى باشا يكن وقد أصلح ما أراد وقدر عليه في طبقة العمال وانتخب المفتشين من المشهورين بالعفة والنزاهة

ألم يكن المدير الخلف لهذا الديوان ذلك العالم العامل النزيه المستقل حسين رشدى باشا الذى كانت تضرب بعدله وفضله الامثال فى القضاء



فكيف سوغ اللورد لنفسه وهو رجل شريف مؤدب أن يقول عن ديوان الاوقاف ما لا يقال أفظع منه عن مواخير الفسق وحانات الفجور لا لسبب غير كون الاوقاف مصلحة اسلامية صرفة

عير اللورد الجناب العالى الخديوى بأنه لم يعمل شيأ ما لاصلاح المحاكم

الشرعية كأنما هذه المحاكم قلم من أقلام الخاصة الخديوية مع أنها تابعة لنظارة الحقانية ولم يعهد أن الجناب العالى وقف في طريق اصلاح استطاعته وارادته الحكومة لهذه المحاكم . أليس أكبر اصلاح في هذا الباب يأتى من قبيل انتخاب الاشخاص الذين يتولون العمل والقضاء في المحاكم الشرعية ؟ . فهل الجناب العالى الخديوى هو الذى ينتخب القضاة والكتاب أم نظارة الحقانية ؟ هل الجناب العالى الخديوى هو واضع لائحة المحاكم الشرعية وتعليمات القضاة والعمال أم تلك النظارة ؟

هل الجناب العالى الخديوي هو الذي يضع درجات القضاة ويقرر مرتباتهم بمثل مايعطى صغار الحجاب في المحاكم الاخرى أم تلك النظارة الخاضعة لارادة المستشار الانكليزي ؟؟

ما للورد كرومر عند ماذكر الجناب الخديوي بلسانه عرته حمى الغضب وانتفضت أوداجه بالاحقاد فلفظ من فيه أقوالا لايحسن بمثله وخصوصا في مثل موقفه أن يقولها حتى دل الناس على مكنونات صدره من هذا الرحيل الذىهو فاعله بالرغم عنه لا بمطلق ارادته

ألم يكن عند اللورد أسلوب لتحية الامة في شخص أميرها المعظم ألطف من هذا الاسلوب في وداعه . وهل مثل هذه الكلمات التى لفظها فى آخر موقف له بمصر هى الوصية التى تركها للمصريين يعلمهم بها كيف يتأدبون فى مخاطبة أولياء الامور . وأى فرق بين ماقال اللورد عن الجناب العالى الخديوى وبين ما كان يكتب المقطم فى أسوأ مظاهر وقاحته عنه

لقد حيا اللورد الامة المصرية هذه التحية المؤلمة التى حصبها بها حصباثم حياها تحية أخري موجهة لها بالذات ليدلها بها على مستقبلها فقال . أما الاحتلال

الانكليزى فباق في مصر الى الابد كانما اللورد غار من (الزرقاوي) وساءه ما أصاب فى تنجيمه عنه فبزه في نتيجته . أوكانما هو مصرف الاقدار فنطق بما قال واثقا من جبروته وقدرته . وقدغفل عن كون المقادير لاتلق بأعنتها الى تلك التقارير فانها بيد الله القاهر فوق كل قاهر والقادر فوق عباده يصرفها كيف يشاء لا كما يشاء اللورد وغضبه وحقده .

توعد الامة ببقاء الاحتلال خالدا وقال ان بقاءه يستلزم ان تكون الكلمة العلياء له فى مصر فلا يظنن المصريون انهم محررون يوما من رق هذا الاحتلال ولا يرجون ان يحكموا انفسهم بأنفسهم فى حال من الاحوال . ثم انذرها بأنه واقف لها في انكلترا بالمرصاد يجاهدها ويجالدها فأين هذا من دعواه أنه لم يستقل الا لأن وطأة المرض قد ثقلت عليه وان الاطباء مانموه بتاتا من العمل حتي ينجو من مخالب الموت الذى يتهدده آنا فآنا . والقارىء لما كتب المقطم نقلا عن الوكالة الانكليزية في بيان أسباب الاستقالة يوم ورد الخبر يخال له أن الرجل لم يبق بينه وبين حشرجة الموت الا أن يودع بسلام

فما له قد وقف أكثر من ثلاثين دقيقة ينزل الصواعق من فمه على مصر والمصريين وينذرهم بأنه سيقمدفى انكلترا لخصومه هنا وهناك بالمرصاد . ماله كان يمشي في بهو الاوبرة يمينا وشمالا كما يمشي الممثل القدير متكبرا متجبرا مختالا غضوبا وصوته فى بعض المواضيع يكاد يسقط العرش على الفرش

ماله وهو ينادي بأن الحركة الفكرية الموجودة فى مصر الان مفتعلة لاتستحق شيئا من العناية والاحترام — يناشد كل الاوربيين في مصر ويدعوهم الى قوة الاتحاد ليقاوموا هذه الحركة ويخفوا صوتها من الوجود

ماله وهو يظهر الثقة التامة بخلفه السير غورست يكاد يقيم نفسه عليه وصيا

يحذره كل الحذر أن يحيد عن خطته يمنة أويسرة كانما خلفه سيبق كواحد من النظار المصريين يحركه كالآلة بين يديه وهو فى انكلترا كما كان يحركهم وهو فى مصر

ما كان أغنى اللورد عن كل هذا التفاعل الغضبى الذى بدا على كل كلمة قالها في خطبته حتى قد انقلب عن موقفه ولسان حاله يقول

وتجلدي للشامتين أريهمو انى لريب الدهر لا أتضعضع

فسبحان الذى لايزول ملكه سبحان العلى القهار مقلب الليل والنهار

(المؤيد فى ٢٤ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ـ ٧ مايو سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٥٧)

الرأي العام المصرى

وخطبة اللورد كرومر

وردعلى ادارة المؤيد كثير من الرسائل البرقية والبريدية من انحاء القطر المصرى مستحسنة لرد المؤيد على خطبة جناب اللورد كرومر وباستقصائها يطول المقام فنقتصر منها على ما يأتي

هدية من أحمد نجيب الجواهر جي

للمؤيد

تذكارا لمقالة ٧ مايو سنة ٩٠٧

« هذه الاسطر الثلاثة قد كتبت على دواة من الفضة بقلم ذهبي وبجانبها أقلامها وختامتها ورمليتها ونشافتها كلها من الفضة المموهة بالذهب »

فى صباح هذا اليوم زارنا حضرة الفاضل اسماعيل أفندى كامل شريك حضرة عزتلو السرى الوجيه أحمد بك نجيب الجواهرى الشهير ومعه علبة كبيرة من الحرير المخمل وبداخل هذه العلبة دواة زوجية ذات أدوات كاملة من الفضة المموهة بالذهب على ماوصفنا ومعها الكتاب الآتي

معصر في ١٢ مايو سنة ٩٠٧

سعادتلو أفندم

ان ماأظهرتموه من صدق الوطنية والاخلاص فى خدمة الامة بمقالتكم الشائقة رداً على تلك الخطبة المشهورة قد جعل لكم المقام الاعلى في نظر الامة وبصفتى أحدأفرادها وددت أن أشترك مع الامة في اظهار عواطفها نحوكم فأقدم لسعادتكم هذه الدواة وأدوات الكتابة تذكاراً لدفاعكم الشريف ولوأنها قليلة بالنسبة لمقامكم السامى ولكن ثقتى بكرم أخلاقكم جعل لى العشم فى قبولها واستعمالها لمحرراتكم الشريفة

وكان بودى أن أتشرف بتقديمها لسعادتكم شخصيا ولكن لحضورى في محل أشغالى متأخراً لكثرة أشغالى الخارجية قد أنبت عنى حضرة اسماعيل أفندى كامل ليقوم بأداء هذا الواجب المقدس وتفضلوا بقبول فائق احترامى ومعذرتى

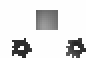
أحمد نجيب جواهرجي

(المؤيد في ٢٩ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ـ ١٢ مايو سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٦١)

صحيفة سوداء هنا بيضاء هناك

لذات كابر جليل وشاعر من شعراء اسماعيل

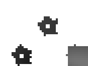
أيامكم أم عهد اسماعيلا ... أم أنت فرعون يسوس النيلا
أم حاكم فى أرض مصر بأمره ... لاسائلا أبداً ولا مسؤلا
يامالكا رق الرقاب بيأسه ... هلا اتخذت الى القلوب سبيلا
لما رحلت عن البلاد تشهدت ... فكأنك الداء المياء رحيلا
أوسعتنا يوم الوداع اهانة ... أدب لعمرك لايصيب مثيلا
هلا بدا لك أن تجامل بعد ما ... صاغ الرئيس لك الثنا اكليلا
أنظر الى أدب الرئيس ولطفه ... تجد الرئيس مهذبا ونبيلا



في (ملعب) للمضحكات مشيد ... مثلت فيه المبكيات فصولا
شهد (الحسين) عليه لعن أصوله ... وتصدر (الاعمى) به تطفيلا

جبن أقل وحط من قدريهما والمرء ان يجبن يمش مرذولا
لما ذكرت به البلاد وأهلها مثلت دور مماتها تمثيلا
أنذرتنا رقا يدوم وذلة تبقى وحالا لاترى تحويلا
أحسبت ان الله دونك قدرة لايملك التغيير والتبديلا
الله يحكم فى الملوك ولم تكن دول تنازعه القوى لتديلا
فرعون قبلك كان أعظم صولة وأعز بين العالمين قبيلا
اليوم أخلفت الوعود حكومة كنا نظن عهودها الانجيلا
دخلت على حكم الوداد وشرعه مصراً فكانت كالسلال دخولا
هدمت معالمها وهدت ركنها وأضاعت استقلالها المأمولا
قالوا جلبت لنا الرفاهة والغنى جحدوا الاله وصنعه والنيلا
وحياة مصر على زمان محمد ونهوضها من عهد اسماعيلا
ومدارسا يبنى البلاد حوافلا حظ الفقير بهن كان جزيلا
ومعاقلا لاتنمحى آثارها وجيوش ابراهيم والاسطولا
وجداولا بين الضياع جواريا تذر اليباب مزارعا وحقولا
ومدائنا قد خططت وطرائقا كانت حزونا فاستحلن سهولا
والقطن مزروعا بفضل محمد في مصر محلوجا بها مغزولا
قد مد اسماعيل قبلك للورى ظل الحضارة في البلاد ظليلا
ان قيس في جود وفي سرف الى ماتنفقون اليوم عد بخيلا
أو كان قد صرع المفتش مرة فلكم صرعت بدنشواي قتيلا
لاتذكر الكرباج فى أيامه من بعد ما أنبت فيه ذيولا
وامدح قصوراً شادهن بوازخا قد أصبحت مأوى لكم ومقيلا
* لو أنه لم يبنها لتخذتمو منها المضارب والخيام بديلا
كم منة موهومة أتبعتها منا علي القطن الخبير ثقيلا
فى كل تقرير تقول خلقتكم أفهل ترى تقريرك التنزيلا
هل من نداك على المدارس أنها تذر العلوم وتأخذ « الفوتبولا »

أم من صيانتك القضاء بمصر أن | تأتي بقاضي دنشواي وكيلا
أم هل يعد لك الاضاعة منة | جيش كجيش الهند بات ذليلا
أنظر الى فتيانه ماشأنهم | أوليس شأنا في الجيوش ضئيلا
حرمتهم أن يبلغوا رتب العلي | ورفعت قومك فوقهم تفضيلا
فاذا تطلعت الجيوش وأملت | مستقبلا لم يملكوا التأميلا
من بعد مازفوا لادورد العلى | فتحا عريضاً في البلاد طويلا



لو كنت من حمر الثياب عبدتكم | من دون عيسى محسنا ومنيلا
أو كنت بعض الانكليز قبلتكم | ملكا أقطع كفه تقبيلا
أو كنت عضوا في الكلوب ملأته | أسفا لفرقتكم بكا وعويلا
أو كنت قسيساً يهيم مبشرا | وتلت آية مدحكم ترتيلا
أو كنت صرافا بلندن دائنا | أعطيتكم عن طيبة تحويلا
أو كنت تيمسكم ملأت صحائفي | مدحا يردد في الورى موصولا
أو كنت في مصر نزيلا جاحدا | سبحت باسمك بكرة وأصيلا
أو كنت (سريونا) حلفت بانكم | أنتم حبوتم بالقنال الجيلا
ماكان من عقبانه وصعابه | ذللتموه بعزمكم تذليلا
عبد الفرنج وأنت تعلم عهدهم | لايبخسون المحسنين فتيلا
فارحل بحفظ الله جل صنيعه | مستعفيا ان شئت أو معزولا
واحمل بساقك ربطة فى لندن | واخلف هناك غراى أو كبيلا
أوشاطر الملك العظيم بلاده | وسس الممالك عرضها والطولا
انا تمنينا على الله المنى | والله كان بنيلهن كفيلا
من سب دين محمد فمحمد | متمكن عند الاله رسولا

كلمة في الرق

في الاسلام

دهشنا كما دهش غيرنا من المسلمين العارفين بدينهم لما قاله جناب اللورد كرومر في الاسلام . ولو كان جناب اللورد من عامة الناس لما بالينا بقوله ولكن لما لجنابه من المنزلة السامية والعقل الصائب والعلم الواسع (وان كان ذلك فى السياسية لافى الدين) اهتم المسلمون بمقاله وأخذوا يبينون مافيه من الخطأ والبعد عن الحقيقة . وقد رأيت أن أضم الى ماقالوه كلمة أخرى في الرق فى الاسلام لان خطأ جنابه في هذا الموضوع أقل ظهوراً من خطئه في غيره من مسائل الدين الاسلامى

ولا أريد أن أبين فى هذه المقالة الفرق بين الرق عند المسلمين وبينه عند غيرهم ولا ماأتت به الشريعة الاسلامية من الاوامر القاضية بالاحسان الى الارقاء واكرامهم وعدم تكليفهم بما لايطيقون والمساواة بيننا وبينهم في نظر الدين واطعامهم مما نطعم والباسهم مما نلبس وتزويجهم وعدم دعائهم بما يسيؤهم من الالقاب واعتبارهم انهم اخوان لنا الى غير ذلك مما جاء به القرآن الشريف والسنة النبوية حتى صاروا فى حالة فى الشرق لاتخطر على بال أهل الغرب وبلغوا أعلى مناصب الرئاسة وكانت كلمتهم نافذة وأمرهم مسموعا حتى هابتهم الاحرار وخشوا بأسهم . ومن عرف أخبار مثل بلال المؤذن واحترام الرسول صلى الله عليه وسلم له وطالع تاريخ المماليك بمصر واطلع على حال الخصيان (الاغوات) في الدول الاسلامية تحقق له صدق ماأجملناه هنا وأوضحه غيرنا بما نشر حديثًا في الجرائد

ولا أريد أن أبين أن جل ماوقع فى البلاد الاسلامية من الاسترقاق واختطاف الناس للتجارة فيها والتسرى بالفتيات المختطفات الى غير ذلك مما هو معروف كان مضاداً لمبادئ الاسلام الشريفة وان كانت معاملتهم بخلاف مايتوهمه الغربيون بسبب ماعهدوه في بلادهم

وكذلك لاأريد أن أبين أن الاسترقاق كان فاشياً في جميع الامم غير الاسلامية من قبل الاسلام ومن بعده وأن الارقاء كانت تعامل عند تلك الامم معاملة الحيوانات

لهم و بقساوة تقشعر منها الجلود وتنفطر منها القلوب

كل ذلك لاأريد أن أبينه هنا لان غيرنا قد كفانا مؤنة البحث فى هذه المسائل انما الذى أريد أن أبينه هو أن الاسلام هو الشريعة الوحيدة التى أتت من بين الشرائع المعروفة لنا لتبطل الرق من العالم وأن الاوروبيين لايزالون الى الآن يبيحون ضربا من ضروب الاسترقاق وهو معمول به قانونا في بلادهم : فأقول — جاء الاسلام والناس مستعبدون فى جميع البقاع على أشنع الاحوال فرق لحالهم كما هو شأنه لجميع الضعفاء وأخذ في تحريرهم وذلك بوضع القواعد الآتية :—

(١) افهام المسلمين أن فك الرقاب من أعظم القربات عند الله قال تعالى ٩٠:٧-١٨ (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة) الى قوله (ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة) وقال ٢ : ١٧٧ (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلوة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)

(٢) جعل عتق الرقاب كفارة لسيئات كثيرة مذكورة فى القرآن الشريف وبعضها كثير الوقوع فاش بين الناس كالحنث فى الايمان قال تعالى ٥ : ٨٩ (لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة)

(٣) أمر المسلمين بعتق من يريد ذلك من الارقاء اذا دفع لسيده قدرا من المال يتفقون عليه وأوجب عليهم اعانته وامداده بالمال حتى يحصل على حريته قال تعالى ٢٤:٣٣ (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم)

(٤) أوجب على أولياء الامر أن يأخذوا مالا من الاغنياء (أى الزكاة) ليصرف بعضه فى تحرير الرقاب اما باعانة المكاتبين السابق ذكرهم أو بشراء أرقاء واطلاق سبيلهم

قال تعالى ٩ : ٦٠ (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم)

فهذه بعض قواعد مما وضعه الاسلام لتحرير الارقاء حتي يزول الرق من بين المسلمين بالتدريج ولم يلزمهم بتحريرهم دفعة واحدة لانهم كانوا اذ ذاك أمة ضعيفة قليلة العدد فقيرة وكان العبيد في أيديهم كالمال عندنا الآن وكانوا يعينونهم في جميع الاشغال. ويساعدونهم على القيام بأعباء هذه الحياة وخصوصا في تلك الازمان التى لم يكن فيها آلات البخار والكهرباء وغيرها مما نتعاون به الآن . فلو حررهم المسلمون مرة واحدة دون سائر الامم لازدادوا ضعفا ووهنا ولوقعوا في الافلاس والشقاء دون غيرهم وكان المسبب لذلك دينهم فلذا اقتضت الحكمة الالهية أن يكون تحريرهم تدريجيا بما وضعته لهم من الاصول التى ذكرنا بعضها هنا

هذا مايتعلق بالارقاء الذين كانوا موجودين بالفعل في ذلك الزمن . ولم يأمر القرآن المسلمين بادخال حر في دائرة العبيد الا فى حالة واحدة وهى الحرب مع قوم لم يؤمن أذاهم من غير المسلمين واعتدوا عليهم . فأمروا أن يسترقوهم مؤقتا الى أن تضع الحرب أوزارها ويقهروا عدوهم فاذا أمنوا شره واطمأنوا من جهته لايجوز لهم ان يبقوا أحداً منهم طول حياته رقيقا بل يجب عليهم أحد أمرين لاثالث لهما (١) اما أن يطلقوا سراحهم لوجه الله تعالى (٢) واما أن يستبدلوهم بمن أسرهم العدو من المسلمين أو يأخذوا منه مالا في مقابلة فك أسرهم . ولذلك قال تعالى ٤٧ : ٤ (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) وهذه هى الآية الوحيدة في الامر بالاسر من جديد . ويجب علينا معاملة الاسرى مدة أسرهم المحدودة بما اشتهر به الاسلام من الاحسان والرفق واللين قال تعالى ٤ : ٣٦ (وبالوالدين احسانا وبذى القربى) الى قوله (وماملكت أيمانكم) وقال تعالى أيضا ٧٦ : ٨ و ٩ (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيراً انما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا)

ثبت مما تقدم أن الاسلام أتى بما يحرر الارقاء الموجودين بالفعل تدريجيا ولم يأمر بالاسترقاق من جديد الا فى حالة واحدة أوجب فيها على المسلمين تحريرهم بعد قليل اما منا

واما فـداء . فقـل لي بأبيك اذا اتبع المسلمون أوامر دينهم هـذه ووافقهم عليها الامم الاخري فهل يبقى فى الارض رقيق واحد ؟؟ وهل هذه الاصول تعيد الرق من جديد كما قال جناب اللورد كرومر ؟

فهذا هو ديننا كما نفهمه وهذه هى شريعتنا وكل ماخالفها ليس من الاسلام في شئ وانما منشؤه الجهل وعدم فهم الدين على حقيقته . فياجناب اللورد أى شئ رأيت فيه حتى ظننت أنه سبب تأخرنا ؟ وهل سمعت بدين غيره أتى بما أتي به الاسلام ؟ هاهى المسيحية كتبها بين أيدينا نقرؤها كثيراً من أولها الى آخرها ولا نجد فيها نصا واحـدا في الامر بفك الرقاب . فاذا قلنا ان سبب تأخر الاوربيين منذ اعتناقهم لها الى قبيل الوقت الحاضر كان ناشئا عنها فهل لاتسموننا متعصبين ؟

يقولون ان المسيح عليه الصلاة والسلام لم يأت ليسن للناس شرائع مدنيـة فبماذا نراه يحرم الطـلاق والتزوج بالمطلقة وتعدد الزوجات كما يزعم بعضهم ولانجد له ولا لحوارييـه كلمة واحدة في تحرير العبيدوفك قيودهم مع أنه أمر أجدر بالعناية وبه يفتخرون علينا ولولا تأخرنا الذي سقطنا فيه بسبب ترك ديننا لـكنا نحن القائمين به . ولكنى أستغفر الله من التعرض للخوض فى أديان الآخرين . وان كنا لسـنا الا عن ديننا مدافعـين . ولنرجع الى ما كنا فيه

الرق ضروب كثيرة أهونها ماعرف بين المسلمين . ويظن الـكثيرمن النـاس أنه لم يبق له أثر بين الاوروبيين. والذى نراه نحن أنه لايزال قائما بينهم في صورة أخرى فما هى تلك الصورة ؟ تلك هى حالة المسجونين المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة أوالمستطيلة. ومما يؤيد هذه الفكرة أن بعض الامم القديمة كانت تعاقب فيأحوال مخصوصة من يسرق باسترقاقه كما فيالشريعة الموسوية

ولنبين لك الآن حالة الرقيق عندنا وحالة المسجون عند الاوربيين وان كانت السجون الآن قد بلغت في بعض البلاد منتهي الرقى كما بلغت ذلك أيضا سجوننا المصرية

الرقيق عندنا يأكل مما نأكل منه ــ والمسجون لايأكل الا أشياء مخصوصة

الرقيق عندنا يلبس مماثلبس والمسجون لايلبس الا نوعا مخصوصا

الرقيق عندنا ينام كما ننام ـ والمسجون لاينام الا فى وقت مخصوص وعلى أشياء مخصوصة.

الرقيق عندنا يشتغل بقدر طاقته ـ والمسجون قد يكلف ما لا يطيق

الرقيق عندنا مختلط بنا وبأهله ان وجدوا ـ والمسجون لايقابل قريبا له أو خليلا الا فى وقت معين

الرقيق عندنا يتزوج ويتصرف فى أمواله - والمسجون لايرى النساء ولا يتصرف في ماله ولا يراه

الرقيق اذا مشى لايمتاز عنا – والمسجون لا يمشي الا وفي يديه أورجليه سلاسل الحديد.

الرقيق عندنا محترم وقد يصل الى درجة الملوك ـ والمسجون مهان ولا ينادى الا يامذنب ـ

فهذه جملة من الفروق بين الرق عندنا وبينه في صورته الاخرى عندهم فأيهما أرحم بالجنس البشرى . ولا ندرى لماذا يعيبوننا به ولا يعيبون أنفسهم بما هو من أشد ضروبه: ان كان الرقيق عندنا تحت تصرف أفراد المسلمين فالمسجون تحت تصرف افراد السجانين وكما يعاقب السجان اذا خرج عن حده في معاملة المسجون كذلك يعاقب المسلم اذا خرج عن حدود الشريعة فى معاملة رقيقه بل قد يفك من رقه لاقل اساءة كضربه كما دلت على ذلك السنة النبوية . نعم هناك فرق واحد بين الرقيق والمسجون وهو أن الرقيق عبد لفرد من أفراد الامة . والمسجون عبد للامة ولكن هذا فرق وهمى ويغتفر لما للرقيق عندنا من الحقوق والمزايا التى لايحلم بها المسجون ومع كل ذلك فنحن لانحب اعادة الرق. وليس الرق من ديننا .

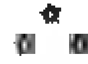
فهذا ياقوم ماأردت بيانه في هذه المقالة الصغيرة وأرجو ياجناب اللورد أن لاتتسرع في الحكم على دين هو أرقى الاديان الا بعد دراسته وفحصه كما تدرس المسائل السياسية التى اشتغلت بها والسلام على من اتبع الهدي

امضاء

أبقراط

جبن أقل وحط من قدريهما ... والمرء ان يجبن يعش مرذولا
لما ذكرت به البلاد وأهلها ... مثلت دور ممـاتها تمثيـلا
أنذرتنـا رقا يـدوم وذلة ... تبـقى وحالا لاترى تحويـلا
أحسبت ان الله دونك قدرة ... لايملك التغيير والتبديـلا
الله يحكم فى الملوك ولم تكن ... دول تنازعـه القوى لتـديلا
فرعون قبلك كان أعظم صولة ... وأعز بـين العالمين قبيـلا
اليوم أخلفت الوعود حكومـة ... كنا نظـن عهودها الانجيـلا
دخلت على حكم الوداد وشرعه ... مصراً فكانت كالسلال دخولا
هدمت معالمها وهـدت ركنها ... وأضاعت اسـتقلالها المـأمولا
قالوا جلبت لنا الرفاهـة والغنى ... جحـدوا الاله وصنعه والنيـلا
وحيـاة مصر على زمان محمـد ... ونهوضها من عهـد اسماعيـلا
ومدارسا بنى البلاد حوافـلا ... حظ الفقير بهن كان جزيلا
ومعاقـلاً لاتنمحى آثارها ... وجيوش ابراهـيم والاسـطولا
وجداولا بين الضياع جواريا ... تذر اليباب مزارعا وحقـولا
ومدائنا قد خططت وطـرائقا ... كانت حزونا فاستحلن سهولا
والقطن مزروعا بفضل محمـد ... في مصر محـلوجا بها مغزولا
قد مد اسماعيـل قبلك للورى ... ظل الحضارة في البلاد ظليـلا
ان قيس في جود وفي سرف الى ... ماتنفقون اليوم عـد بخيـلا
أو كان قد صرع المفتش مرة ... فلكم صرعت بدنشواي قتيـلا
لاتذكر الكرباج فى أيامـه ... من بعـد ما أنبت فيـه ذيولا
وامدح قصوراً شادهن بوازخا ... قد أصبحت مأوى لكم ومقيلا
* لو أنه لم يبنها لتخذتمـو ... منها المضارب والخيام بديـلا
كم منـة موهومـة أتبعتها ... منـا علي الفطن الخبير ثقيـلا
فى كل تقرير تقول خلقتكم ... أفهـل ترى تقريرك التنزيـلا
هل من نداك على المدارس أنها ... تذر العـلوم وتأخذ « الفوتبولا »

أم من صيا تلك القضاء بمصر أن   تأتي بقاضي دنشواى وكيلا
أم هل يعد لك الاضاعة منة   جيش كجيش الهند بات ذليلا
أنظر الى فتيانه ماشأنهم   أوليس شأنا في الجيوش ضئيلا
حرمتهم أن يبلغوا رتب العلي   ورفعت قومك فوقهم تفضيلا
فاذا تطلعت الجيوش وأملت   مستقبلا لم يملكوا التأميلا
من بعد مازفوا لادورد العلى   فتحا عريضاً في البلاد طويلا



لو كنت من حمر الثياب عبدتكم   من دون عيسى محسنا ومنيلا
أو كنت بعض الانكليز قبلتكم   ملكا أقطع كفه تقبيلا
أو كنت عضوا في الكلوب ملأته   أسفا لفرقتكم بكا وعويلا
أو كنت قسيساً يهيم مبشرا   رتلت آية مدحكم ترتيلا
أو كنت صرافا بلندن دائنا   أعطيتكم عن طيبة تحويلا
أو كنت تيمسكم ملأت صحائفي   مدحا يردد في الورى موصولا
أو كنت في مصر نزيلا جاحدا .   سبحت باسمك بكرة وأصيلا
أو كنت (سربونا) حلفت بانكم   أنتم حبوتم بالقنال الجيلا
ما كان من عقباته وصعابه   ذللتموه بعزمكم تذليلا
عهد الفرنج وأنت تعلم عهدهم   لايبخسون المحسنين فتيلا
فارحل بحفظ الله جل صنيعه   مستعفيا ان شئت أو معزولا
واحمل بساقك ربطة فى لندن   واخلف هناك غراى أو كمبيلا
أوشاطر الملك العظيم بلاده   وسس الممالك عرضها والطولا
انا تمنينا على الله المنى   والله كان بنيلهن كفيلا
من سب دين محمد فمحمد   متمكن عند الاله رسولا

كلمة في الرق

في الاسلام

دهشنا كما دهش غيرنا من المسلمين العارفين بدينهم لما قاله جناب اللورد كرومر في الاسلام . ولو كان جناب اللورد من عامة الناس لما بالينا بقوله ولكن لما لجنابه من المنزلة السامية والعقل الصائب والعلم الواسع (وان كان ذلك فى السياسية لافى الدين) اهتم المسلمون بقاله وأخذوا يبينون مافيه من الخطأ والبعد عن الحقيقة . وقد رأيت أن أضم الى ماقالوا كلمة أخرى في الرق فى الاسلام لان خطأ جنابه في هذا الموضوع أقل ظهوراً من خطئه في غيره من مسائل الدين الاسلامى

ولا أريد أن أبين فى هذه المقالة الفرق بين الرق عند المسلمين وبينه عند غيرهم ولا ماأتت به الشريعة الاسلامية من الاوامر القاضية بالاحسان الى الارقاء واكرامهم وعدم تكليفهم بما لايطيقون والمساواة بيننا و بينهم في نظر الدين واطعامهم مما نطعم والباسهم مما نلبس وتزويجهم وعدم دعائهم بما يسيؤهم من الالقاب واعتبارهم انهم اخوان لنا الى غير ذلك مما جاء به القرآن الشريف والسنة النبوية حتى صاروا فى حالة فى الشرق لاتخطر على بال أهل الغرب وبلغوا أعلى مناصب الرئاسة وكانت كلمتهم نافذة وأمرهم مسموعا حتى هابتهم الاحرار وخشوا بأسهم . ومن عرف أخبار مثل بلال المؤذن واحترام الرسول صلى الله عليه وسلم له وطالع تاريخ المماليك بمصر واطلع على حال الخصيان (الاغوات) في الدول الاسلامية تحقق له صدق ماأجملناه هنا وأوضحه غيرنا بما نشر حديثاً في الجرائد

ولا أريد أن أبين أن جل ماوقع فى البلاد الاسلامية من الاسترقاق واختطاف الناس للتجارة فيها والتسرى بالفتيات المختطفات الى غير ذلك مما هو معروف كان مضاداً لمبادئ الاسلام الشريفة وان كانت معاملتهم بخلاف مايتوهمه الغربيون بسبب ماعهدوه في بلادهم

وكذلك لاأريد أن أبين أن الاسترقاق كان فاشياً في جميع الامم غير الاسلامية من قبل الاسلام ومن بعده وأن الارقاء كانت تعامل عند تلك الامم معاملة الحيوانات

اليهم و بقساوة تقشعر منها الجلود وتنفطر منها القلوب

كل ذلك لاأريد أن أبينه هنا لان غيرنا قد كفانا مؤنة البحث فى هذه المسائل وانما الذى أريد أن أبينه هو أن الاسلام هو الشريعة الوحيدة التى أتت من بين الشرائع المعروفة لنا لتبطل الرق من العالم وأن الاوروبيين لايزالون الى الآن يبيحون ضربا من ضروب الاسترقاق وهو معمول به قانونا في بلادهم : فأقول — جاء الاسلام والناس مستعبدون فى جميع البقاع على أشنع الاحوال فرق لحالهم كما هو شأنه لجميع الضعفاء وأخذ في تحريرهم وذلك بوضع القواعد الآتية :—

(١) افهام المسلمين أن فك الرقاب من أعظم القربات عند الله قال تعالى ٩٠:٧-١٨ (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة) الى قوله (ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة) وقال ٢ : ١٧٧ (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلوة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)

(٢) جعل عتق الرقاب كفارة لسيئات كثيرة مذكورة فى القرآن الشريف و بعضها كثير الوقوع فاش بين الناس كالحنث فى الايمان قال تعالى ٥ : ٨٩ (لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أوكسوتهم أوتحرير رقبة)

(٣) أمر المسلمين بعتق من يريد ذلك من الارقاء اذا دفع لسيده قدرا من المال يتفقون عليه وأوجب عليهم اعانته وامداده بالمال حتى يحصل على حريته قال تعالى ٣٣:٢٤ (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم)

(٤) أوجب على أولياء الامر أن يأخذوا مالا من الاغنياء (أى الزكاة) ليصرف بعضه فى تحرير الرقاب اما باعانة المكاتبين السابق ذكرهم أو بشراء أرقاء واطلاق سبيلهم

قال تعالى ٩ : ٦٠ (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم)

فهذه بعض قواعد مما وضعه الاسلام لتحرير الارقاء حتي يزول الرق من بين المسلمين بالتدريج ولم يلزمهم بتحريرهم دفعة واحدة لانهم كانوا اذ ذاك أمة ضعيفة قليلة العدد فقيرة وكان العبيد في أيديهم كالمال عندنا الآن وكانوا يعينونهم في جميع الاشغال. ويساعدونهم على القيام بأعباء هذه الحياة وخصوصا في تلك الازمان التى لم يكن فيها آلات البخار والكهرباء وغيرها مما نتعاون به الآن . فلو حررهم المسلمون مرة واحدةدون سائر الامم لازدادوا ضعفا ووهنا ولوقعوا فيالافلاس والشقاءدون غيرهم وكان المسببلذلك دينهم فلذا اقتضت الحكمة الالهية أن يكون تحريرهم تدريجيا بما وضعته لهم من الاصول التى ذكرنا بعضها هنا

هذا مايتعلق بالارقاء الذين كانوا موجودين بالفعل في ذلك الزمن . ولم يأمر القرآن المسلمين بادخال حر في دائرة العبيد الا فى حالة واحدة وهى الحرب مع قوم لم يؤمن أذاهم من غير المسلمين واعتدوا عليهم . فأمروا أن يسترقوهم مؤقتا الى أن تضع الحرب أوزارها ويقهروا عدوهم فاذا أمنوا شره واطمأنوا من جهته لايجوز لهم ان يبقوا أحداً منهم طول حياته رقيقا بل يجب عليهم أحد أمرين لاثالث لهما (١) اما أن يطلقوا سراحهم لوجه الله تعالى (٢) واما أن يستبدلوهم بمن أسرهم العدو من المسلمين أو يأخذوا منهمالا فيمقابلةفك أسرهم . ولذلك قال تعالى ٤٧ : ٤ (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثختموهم فشدوا الوثاقفاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) وهذه هى الآية الوحيدة في الامر بالاسر من جديد . ويجب علينا معاملة الاسرى مدة أسرهم المحدودة بما اشتهر به الاسلام من الاحسان والرفق واللين قال تعالى ٤ : ٣٦ (وبالوالدين احسانا وبذىالقربى)الى قوله (وماملكت أيمانكم)وقالتعالىأيضا ٧٦ : ٨و ٩ (ويطعمونالطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيراً انما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا)

ثبت مما تقدم أن الاسلامأتى بما يحرر الارقاء الموجودين بالفعل تدريجيا ولم يأمر بالاسترقاق من جديد الا فىحالة واحدة أوجب فيها على المسلمين تحريرهم بعد قليل اما

واما فـداء . فقـل لى بأيك اذا اتبع المسلمون أوامر دينهم هـذه ووافقهم عليها الامم الاخري فهل يبقى فى الارض رقيق واحد ؟؟ وهل هذه الاصول تعيد الرق من جديد كما قال جناب اللورد كرومر ؟

فهذا هو ديننا كما نفهمه وهذه هى شريعتنا وكل ماخالفها ليس من الاسلام في شئ وانما منشؤه الجهل وعدم فهم الدين على حقيقته . فياجناب اللورد أى شئ رأيت فيه حتى ظننت أنه سبب تأخرنا ؟ وهل سمعت بدين غيره أتى بما أتي به الاسلام ؟ هاهى المسيحية كتبها بين أيدينا نقرؤها كثيراً من أولها الى آخرها ولا نجد فيها نصا واحـدا في الامر بفك الرقاب . فاذا قلنا ان سبب تأخر الاوربيين منذ اعتناقهم لها الى قبيل الوقت الحاضر كان ناشئا عنها فهل لاتسموننا متعصبين ؟

يقولون ان المسيح عليه الصلاة والسلام لم يأت ليسن للناس شرائع مدنيـة فبماذا نراه يحرم الطـلاق والتزوج بالمطلقة وتعدد الزوجات كما يزعم بعضهم ولانجد له ولا لحوارييـه كلمة واحدة في تحرير العبيد وفك قيودهم مع أنه أمر أجدر بالعناية وبه يفتخرون علينا ولولا تأخرنا الذي سقطنا فيه بسبب ترك ديننا لـكنا نحن القائمين به . ولكنى أستغفر الله من التعرض للخوض فى أديان الآخرين . وان كنا لسنا الا عن ديننا مدافعـين . ولنرجع الى ما كنا فيه

الرق ضروب كثيرة أهونها ماعرف بين المسلمين . ويظن الـكثير من النـاس أنه لم يبق له أثر بين الاوروبيين. والذى نراه نحن أنه لايزل قائما بينهم في صورة أخرى فما هى تلك الصورة ؟ تلك هى حالة المسجونين المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة أو المستطيلة. ومما يؤيد هذه الفكرة أن بعض الامم القديمة كانت تعاقب في أحوال مخصوصة من يسرق باسترقاقه كما في الشريعة الموسوية

وانبين لك الآن حالة الرقيق عندنا وحالة المسجون عند الاوربيين وان كانت السجون الآن قد بلغت في بعض البلاد منتهي الرقى كما بلغت ذلك أيضا سجوننا المصرية

الرقيق عندنا يأكل مما نأكل منه — والمسجون لايأكل الا أشياء مخصوصة

الرقيق عندنا يلبس مما نلبس والمسجون لايلبس الا نوعا مخصوصا

الرقيق عندنا ينام كما ننام ـ والمسجون لاينام الا فى وقت مخصوص وعلى أشياء مخصوصة.

الرقيق عندنا يشتغل بقدر طاقته ـ والمسجون قد يكلف ما لايطيق

الرقيق عندنا مختلط بنا وبأهله ان وجدوا ـ والمسجون لايقابل قريبا له أو خليلا الا فى وقت معين

الرقيق عندنا يتزوج ويتصرف فى أمواله - والمسجون لايرى النساء ولا يتصرف في ماله ولا يراه

الرقيق اذا مشى لايمتاز عنا - والمسجون لايمشي الاوفي يديه أورجليه سلاسل الحديد.

الرقيق عندنا محترم وقد يصل الى درجة الملوك ـ والمسجون مهان ولا ينادى الا يامذنب ـ

فهذه جملة من الفروق بين الرق عندنا وبينه في صورته الاخرى عندهم فأيهما أرحم بالجنس البشرى . ولا ندرى لماذا يعيبوننا به ولا يعيبون أنفسهم بما هو من أشد ضروبه: ان كان الرقيق عندنا تحت تصرف أفراد المسلمين فالمسجون تحت تصرف افراد السجانين وكما يعاقب السجان اذا خرج عن حده في معاملة المسجون كذلك يعاقب المسلم اذا خرج عن حدود الشريعة فى معاملة رقيقه بل قد يفك من رقه لاقل اساءة كضربه كما دلت على ذلك السنة النبوية . نعم هناك فرق واحد بين الرقيق والمسجون وهو أن الرقيق عبد لفرد من أفراد الامة . والمسجون عبد للامة ولكن هذا فرق وهمي ويغتفر لما للرقيق عندنا من الحقوق والمزايا التى لايحلم بها المسجون ومع كل ذلك فنحن لانحب اعادة الرق. وليس الرق من ديننا .

فهذا ياقوم ماأردت بيانه في هذه المقالة الصغيرة وأرجو ياجناب اللورد أن لاتتسرع في الحكم على دين هو أرقى الاديان الا بعد دراسته وفحصه كما تدرس المسائل السياسية التى اشتغلت بها والسلام على من اتبع الهدى

امضاء

أبقراط

بدائع الفوائد

للعلامة الامام شيخ الاسلام علم العلماء الاعلام

أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي المشهر

بابن قيم الجوزية المتوفى

(سنة ٧٥١ هجرية)

قدس الله روحه ونور مرقده وضريحه

قال البرهان البقاعي في تفسيره المبني على التناسب بين الآيات (وأبدي الامام شمس الدين ابن قيم الجوزية الدمشقي الحنبلي في كتاب له كالتذكرة سماه « بدائع الفوائد » سراً غريباً في ابتداء القرآن بقوله آلم الخ)

الجزء الثالث

(عُنِيَ بتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله للمرة الأولى)

ادارة الطباعة المنيرية

لصاحبها ومديرها محمد منير عبده أغا الدمشقي

طبع على نفقة عبد الهادى وأخيه أبي بكر نجلي الشيخ محمد منير الدمشقي